الشعر العربي

بين الجمود والتطور

تأليف

محمد عبد العزيز الكفراوي

نهضة مصر

للطباعة والنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحاجة إلى هذا البحث

قد كان هناك إجماع أو شبه إجماع بين مؤرخي الأدب ونقاده على أن الشعر العربي ظل في صدر الإسلام والعهد الأموي صورة من الجاهلي حتى إذا جاء العباسي انحرف عن أصوله الجاهلية قليلا عند بشار وأبي نواس ، ثم اشتد به الانحراف في شعر مسلم بن الوليد ، وبلغ الذروة على يد أبي تمام . ولكنهم لم يفصّلوا القول في ذلك مما أتاح لبعض نقاد الأدب ومؤرخيه[1] أن يهاجم ذلك الإجماع ، ويتحداه بذكر أمثلة كثيرة ، حاول بها أن يستدل على تطور الشعر العربي أثناء العصر الأموي .

ومع أننا نؤمن بكثير مما قاله القدامى ، وقليل مما جاء به الناقد الفاضل ، فإننا لن نقدم بحثنا في صورة الهجوم حتى لا يجرّ إلى مثله فيلزم الدور والتسلسل كما يقول علماء الكلام . وبعد فله فضل إثارة هذا الموضوع وتوجيه الأنظار إليه ، ولا يضيره بعد ذلك أن يكون هناك بعض المآخذ على بحثه . والرأى عندنا أن الشعر العربي أصابه تغيرّ حقا في العصر الأموي وصدر الإسلام ، بل وأصابه عدة تغيّرات أثناء العصر الجاهلي ، لأنه كائن حيّ يخضع كغيره من الكائنات لعوامل النشوء والارتقاء . وكل ما هنالك أن ذلك التغيرّ يسير جدًا وسطحي لا يمس العناصر الأولية ، والسمات الأصيلة التي اتّسم بها الشعر الجاهلي . وهذا هو السبب في إغفال جمهور النقاد له واعتباره مع الجاهلي كلا لا يتجزأ .

ولكي ننظّم الجدل حول هذا الموضوع اتخذنا نقطة ارتكاز نبدأ بها وندور حولها . ونعني بها العناصر الأصلية للشعر الجاهلي . وهي تلك التي كان يقصدها القدامى حينما يتحدثون عن عمود الشعر العربي . وقد قسمنا بحثنا في ضوئها إلى الخطوات التالية : —

الباب الأول : — ويهتم بتحديد تلك العناصر ، وتعرّف الظروف الاجتماعية التي كونتها . والآثار التي ترتبت عليها في الشعر الجاهلي ، وقد تلمّسناها فانتهينا إلى أنها الطبع ، والصدق ، والصدق ، والميل إلى التصوير مع الدقة فيه ، والموسيقية ، وأخيرًا بناء القصيدة التقليدي وتقسيمها إلى مقدمة وغرض :

---

(١) دكتور شوقي ضيف في كتابه « التطور والتجديد في الشعر الأموي » .

الباب الثانى : — وقد قسمناه إلى فصول .

الأول : فى بيان الأسباب التى حالت دون تأثر الشعر العربى بالدين الجديد فى صدر الإسلام ، وتلك التى وجهته شطر الجاهلية فى العهد الأموى .

الثانى : — فى ذكر نموذج من الشعر الأموى يؤكد جمود ذلك الشعر عند الحدود التى رسمها شعراء الجاهلية .

الثالث : فى الرد على القائلين بتطور الشعر العربى فى العصر الأموى . وذلك بالتعرُّض لما أشاروا إليه من فنون ونماذج يبدو عليها سمات التطور وإقامة الدليل على أنها ليست إلا امتدادًا طبيعيا للشعر الجاهلى .

الباب الثالث : — فى العصر العباسى ويتكون من أربعة فصول .

الأول : فى بيان مدى ما أصاب بناء القصيدة العربية من تطور .

الثانى : فى الأغراض وتطورها تبعا لتطور الحالة الاجتماعية فى ذلك العصر .

الثالث : فى ذكر ما أصاب عناصر الشعر من تطور . وفيه موازنة بين العباسى والأموى .

الرابع : فى استرداد الشعر العربى لحريته على يد أبى الطيب المتنبى . وقبل أن ندخل فى تفاصيل هذه المباحث نلفت النظر إلى أن جميع ما ورد إلينا من الشعر الجاهلى الذى سيكون طرفا فيما سنعقده من موازنات ، وإنما هو من نتاج القرن السابق لظهور الإسلام ، وقد يعجب القارئ لغزارة ذلك النتاج وروعته حين يقاس بقصر الفترة التى قيل فيها . ويزيد من عجبه سكوت المؤرخين عما كان قبل ذلك من شعر وشعراء ، وربما سأل نفسه عن السر فى كل هذا .

والذى ينبغى أن نذكره إجابة عن تلك الأسئلة ، أن الشعر العربى مرَّ بأطوار طويلة من التثقيف والتهذيب قبل أن يصل إلينا مكتملا ، وما أمرؤ القس ومعاصروه إلا الذروة العليا لجبل ضخم من الثلج يسبح معظمه هادئًا متئدًا فى أعماق المحيط . ولم يُتح لذلك الجبل أن يعرف لسبب يسير وهامّ فى الوقت نفسه ، وهو أن الجزيرة العربية وثبت وثبة قوية أثناء القرن الخامس الميلادى(٢) ، تردد صداها فى حياتهم الاجتماعية والسياسية والأدبية ، بحيث صار البون شاسعًا بين ما ضيهم وحاضرهم فى

---

(٢) أهم أسباب تلك الطفرة ما كان من حروب بين عرب الشمال والجنوب انتصر فيها الشماليون وتخلصوا من سيطرة الجنوبيين ، وقد خاض كليب بن ربيعة سيد تغلب ومن ورائه عرب الشمال أهم تلك المعارك وأبعدها أثرا فى حياة الجزيرة العربية .

هذه الأمور جميعًا . ولما كان العرب يعتمدون فى حفظ آثارهم الأدبية وحوادثهم السياسية على الذاكرة فقط فقد شغلوا بما كان لهم أثناء تلك الطفرة من مواقف ، وما سجل فيها من أشعار عما كان لهم قبل ذلك من هذا أو ذاك . وهكذا ألهى بنى تغلب عن ماضيها أشعار مهلهل بن ربيعة وعمرو بن كلثوم . كما شغلت بكر بشعر طرفة بن العبد والحرث بن حِلِّزة . وقريبًا من ذلك فعلت كل قبيلة بشعر شعرائها . وضربوا عما كان قبل ذلك من أشعار لا تتسع لها الذاكرة(٣) .

---

(٣) قال بعض الشعراء يتهكم ببنى تغلب :

ألهى بنى تغلب عن كل مكرمة قصيدة قالها عمرو بن كلثوم

الباب الأول
العناصر الأصلية للشعر الجاهلى

الطبع : كان الشعراء الجاهليون يجرون من طباعهم فيسجلون كل ما تمليه عليهم شياطينهم ، أو تجود به قرائحهم ، دون مراجعة طويلة ، يجعلون الفكرة رائدهم وإصابتها هدفهم صارفين النظر عن الزخارف اللفظية والمعانى الغريبة ، وما سوى ذلك من أمور شُغف بها طائفة من شعراء العصر العباسى ، فأفسدت الطبع عندهم وأشاعت التكلّف فى أشعارهم .

وليس بعجيب أن ينحو الجاهليون هذا المنحى فى أشعارهم . فقد كانوا بدوًا يعيشون عيشة ساذجة لا تكلف فيها ولا تعقيد ، وقد فطرتهم الصحراء على الحرية والصراحة فى أحاديثهم العادية التى يندفعون فيها اندفاع الرياح الهوجاء فى عرض الصحراء . . وطبيعى أن يسرى عدوى ذلك إلى آدابهم وأشعارهم .

وكأنما رأى الشاعر العربى أنه مرهق بأغلال وتبعات مختلفة من إقامة الوزن وتسديد القافية والتماس الروىّ وإصابة المعنى . فأحب ألا يشغل نفسه عن ذلك كله بزخرفة اللفظ وتقليب العبارة . أما العودة إلى الشعور بعد الفراغ منه ، وإعادة النظر فيه بقصد تنقيحه وتنخُّله ، فأمر وراء طبائعهم القلقة ، وأفكارهم التى لا تعرف الاستقرار إلا بقدر ما تعرفه رحالهم ، التى لا تفتأ تضطرب فى عرض الصحراء من مكان لآخر . ولم يهتدوا إلى هذا النحو من تنقيح الشعر وتهذيبه إلا فى أواخر العصر الجاهلى على عهد زهير بن أبى سلمى . وقبل أن نعرض لزهير نورد لك نموذجاً من المطبوع لعبيد بن الأبرص قالها لحجر بن عمر والكندى حين أقسم ألا تساكنه أسد بأرض وكان ملكا عليهم وعلى غطفان[1] فطردهم من بلادهم بعد أن قتل كثيراً منهم ضرباً بالعصا حتى سموا عبيد العصا وفيها يقول :

---

(١) عصر ماقبل الإسلام للأستاذ مبروك نافع ص ١١٦ .

يا عين فابكى ما بنى أسد فهم أهل الندامة[٢]
أهل القباب الحمر والنـ ـعم المؤبَّل والمدامة[٣]
وذوى الجياد الجرد والأ سل المثقفة المقامة[٤]
حِلاً أبيت اللعن حِـ ـلا إن فيما قلت آمة[٥]
فى كل واد بين يثـ ـرب فالقصور إلى اليمامة[٦]
تـطريب عـان أودعا م. محرِّق أو صوت هامة
ومـنـعـهتم نجدا فقـد حلّوا على وجل تهامة
إما تركت تركت عفـ ـوا أو قتلت فلا ملامة
أنت المليك عـليهـمُ... وهم العبيد إلى القيامة
ذلوا لسوطك مثلما... ذل الأشقير ذو الخزامة[٧]

ونعود إلى زهير فنذكر أنه قد اجتمعت له عدة أمور جعلت منه أستاذاً لمدرسة ظهرت فى عهد النضج الاجتماعى الذى سبق ظهور الإسلام ومهَّدله . وعرفت بتجويد الشعر وتنقيحه . نشأ زهير قريباً من شيخ شعراء الجاهلية إذ ذاك أوس بن حجر فقد كان راويته[٨] وعنه أخذ الأصول الفنية لصناعة الشعر ثم تفرّغ لها فوقف عليها جهده ، وصرف إليها همته . وبلغ من ولوعه بتجويد شعره أن كلا من مطولاته كانت تستنفد عاماً كاملاً من وقته[٩] . وقد خالف بذلك سنة العرب فى الارتجال على البديهة ، ولذا قال فيه الأصمعى[١٠] زهير والحطيئة وأمثالهما عبيد الشعر لأنهم

---

(٢) ديوانه ص ٧٧ .

(٣) المؤبل: المتخذة للقنية(بكسر فسكون)لا للذبح .

(٤) جرد: قصيرة الشعر رقيقته من أثر التضمير. الأسل: مفرده أسلة ، شجر يتخذ منه الرماح فصار يطلق عليها . مقامة: مقومة مثقفة .

(٥) حلا· تحللا من يمينك . يشير إلى ماكان منه من إقسامه ألا يساكن أسدا بأرض آمة: عيب ، غضاضة .

(٦) القصور لعله يقصد قصور خيرين بالموصل .

(٧) الأشيقر· الجمل الأشقر– الخزامة: الحلقة التى توضع فى أنف البعير.

(٨) الشعر والشعراء ص ٤٤ .

(٩) البيان والتبيين ج – ٢ – ص ١٠ .

(١٠) الشعر والشعراء ص ١٦ .

نقحوه ولم يذهبوا فيه مذهب المطبوعين . والقارىء لشعر زهير يرى فيه ثلاثة أمور دقة التصوير ، وتهذيب العبارة البراعة فى اختيار مواطن المدح ، أما الأول فلن نعرض له هنا ، لأنه سيأتى بعد قليل فى حديث عام يشترك فيه زهير مع غيره من معاصريه ، وأما الثانى والثالث ففيهما يبدو امتيازه على سواه ، وإليك نموذجا يوضحهما ، وفيه ينتقل من الحديث عن ناقته إلى مدح هرم بن سنان فيقول(١١) :

إلى هرم تهجيرها ووسيجها ... تروح من الليل التمام وتغتدى(١٢)
إلى هرم سارت ثلاثا من اللوى ... فنعم مسير الواثق المتعمد(١٣)
سواء عليه أىَّ حين أتيته ... أساعة نحس تُتَّقى أم بأسعد
أليس بضراب الكماة بسيفه ... وفكاك أغلال الأسير المقيد
كليث أبى شبلين يحمى عربته ... إذا هو لاقى نجدة لم يعرِّد(١٤)
وثقل على الأعداء لا يَضعُونه ... وحمال أثقال ومأوى مطرَّد(١٥)
إذا ابتدرت قيس بن عيلان غاية ... من المجد من يسبق إليها يُسوَّد
سبقت إليها كل طَلَقْ مبرِّز ... سبوق إلى الغايات غير مجلَّد(١٦)
كفضل جواد الخيل يسبق عفوه الـ ... ـسراع وإن يَجْهدَنَ يَجْهدَ ويُبْعدِ(١٧)

أرأيت لغة أعذب وأنقى من هذه. ثم أرأيت اختيار الألفاظ وتكرار (إلى هرم) إشارة إلى أن السير إليه كان قصداً لا مجرد مصادفة ثم تأكيد ذلك بقوله « مسير الواثق المتعمد » أما الأوصاف التى أوردها فجميعها من أخص ما يعتز به أهل الجاهلية كما سنذكر بعد قليل . وأخيراً انظر إلى البيتين الأخيرين من المقطوعة وانظر كيف شبه صاحبه فى سبق الناس جميعاً إلى الخير بالجواد مع الخيل يتقدم الركب

---

(١١) ديوانه ص ٩٣ .

(١٢) تهجيرها: سيرها فى الهاجرة – الوسيج: السير السريع – الليل التمام: أطول مايكون من الليل .

(١٣) اللوى: منقطع الرمل – وأراد به هنا مكانا بعينه .

(١٤) أبو شبلين: له شبلان فى عربه وذلك أدعى لفتكه حتى يطعمهما ، وثورته على من يقترب منهما – نجدة: شدة – يعرد: يفر .

(١٥) ثقل على الأعداء: شديد الوطأة عليهم – لايضعونه: لايستطيعون التخلص من ضغطه عليهم .

(١٦) الطلق: الطليق غير المقيد أو الضاحك الوجه سماحة – مجلد مضروب .

(١٧) العفو: ماأتى عن سماحة وبغير مجهود .

دون أن يُستحث ، كأنه يفعل الخير دون أن يدفع إليه أو يحمل عليه .

وهكذا يتضح أن امتياز زهير على إخوانه من أهل الجاهلية لم يكن لإدخاله شيئاً من البديع أو نحوه كما فعل العباسيون من بعد ولكن لهذه الدقة والحرص الشديد على تهذيب اللغة وصقل العبارة . وما دمنا نبحث الطبع والتكلف عند القدامى فلابد لنا أن نذكر وجهة نظرنا فى رأى سبقنا إليه الدكتور شوقى ضيف وذلك أن جميع شعراء الجاهلية بدون استثناء كانوا متكلفين، وأن الجاحظ كان مدفوعاً بالعصبية للعرب حينما زعم أنهم كانوا يقولون الشعر ارتجالاً ، وبدون كد أو عناء . وحجته فى ذلك أن قرض الشعر صنعة ، وكل صنعة لها قواعدها التى ينبغى مراعاتها . فنى الشعر لابد للشاعر من ملاحظة الوزن والقافية والروى وما إلى ذلك . وهذا كاف لأن يقول أن الشاعر الجاهلى كان صانعاً ومتكلفا ، وإن لم يبلغ مبلغ زهير . وأظنه يوافقنا على أننا نتفاوت فيما بيننا تفاوتا كبيراً حين نتّجه إلى قاعة من القاعات لإلقاء محاضرة عامة عن موضوع نعرفه جيداً ، أو لأخذ طرف فى مناظرة من المناظرات ، فمنا من يقضى ساعة أو ساعتين منفردا بنفسه كى يعد ما سيقول ، ويفكر فيما يمكن أن يلقيه الطرف الآخر فيعد الجواب عليه . ومنا من لا يكاد يفكر فى الأمر إلا وهو على منصة الخطابة . إن هذا بالضبط هو ما نعنيه حينما نقول إن العرب القدامى كانوا مطبوعين لا يطيلون الرَّوية أو يُعملون الفكر فيما قالوا أو ما سيقولون . وربما قال قائل : إن فرقا بين هذا وذاك ، فالشعر محتاج لإقامة الوزن وما إليه من تكاليف الشعر . والجواب على ذلك أن طول المراس وتمكّن الملكة يجعل هذه الأمور أقرب منالا إلى الشاعر القديم المطبوع مما نتصور . وكيف ننكر على القدامى مثل هذا مع أن بعض الشعراء العباسيين ممن لم تكن اللغة الفصحى لغة أبيه ولا جده كان يقول : لو أردت أن أجعل كلامى كله شعرا لفعلت[١٨] ثم يقول : إن الناس يتكلمون بالشعر فى أحاديثهم العادية وهم لا يشعرون ولو أحسنوا تأليفه لكانوا شعراء[١٩] .

وبعد فلا أظن إلا أن الجاحظ والأصمعى وأضرابهما كانوا أعرف بلغة العرب منا ، لأن التكلف فى اللغة مقرون بالمشقة ، ولست أدرى لأى مشقة تعرض

(١٨) أغان ج ٣ ص ١٢٧ .
(١٩) الأغانى ج ٣ ص ١٤٠ .

طرفة بن العبد حينما قال فى حبيبته هرّ وهو من خير شعره بشهادة الثقاة من النقاد (٢٠)

لا تلمنى إنها من نسوة رُقُد الصيف مقاليت نُزُرُ (٢١)
كبنات المَخْر يَمأدْن كما أنبت الصيف عساليج الخضر (٢٢)
فجعونى يوم زمّوا عِيرهم برخيم الصوت ملثوم عطر (٢٣)
ولها كشحا مهاة – مطفل تقترى بالرمل أفنان الزهر (٢٤)
تحسب الطرف عليها نجدة بالقومى للشباب المسبكر (٢٥)

ألا توافقنى على أن البيت الأول والأخير يعبران إلينا أكثر من أربعة عشر قرنا ليمتزجا بلغة أهل الفتوة والمرح من أبناء عصرنا . حقيقة هناك بعض ألفاظ غريبة ولكنها غريبة عندنا فقط أما عند طرفة فإنها عادية ومفهومة جيداً ، وإن شئت مزيداً فاقرأ الأبيات التى ختم بها قصيدته والتى يعتذر فيها إلى قومه من سابق لهوه وعبثه عساك تظفر فيها بشىء من التكلف قال :

ولقد كنت عليكم عاتبا فعقبتم بذنوب غير مر (٢٦)
كنت فيكم كالمغطّى رأسه فانجلى اليوم قناعى وخمر
سادرا أحسب غَيِّى رَشَدًا فتناهيت وقد صابت بِقُر (٢٧)

---

(٢٠) الشعر والشعراء لابن قتيبة .

(٢١) ديوانه ص٦٤. مقاليت : لايعيش لهن ولد . نزر : قليلات الأولاد .

(٢٢) بنات مخر : سحائب بيض يأتين قبل الصيف – يمآدن : يتثنين – العساليج : ما أخضر ولان من القضبان .

(٢٣) زموا العير: وضعوها فى الأزمة للرحيل – ملثوم: عليه لثام أى نقاب .

(٢٤) الكشح: مابين الخاصرة إلى الضلع الخلف – تقترى: تتبع – أفنان: أنواع .

(٢٥) النجدة . الشدة – المسبكر: الممتد ، ولعله أراد بالممتد المتغطرس غير المكترث بمن حوله – وتحسب الطرف أى رفع الطرف .

(٢٦) عقبتم: جدتم – ذنوب: نصيب .

(٢٧) سادرا : لا أبالى بشىء ولا بأحد – صابت – من الصوب وهو النزول . قر : قرار ، وفى الأمثال « صابت بقر » أى نزل الأمر فى قراره فلا يستطاع له تحويل .

«الصدق أو التزام الحقيقة»(*)

وقد فطرهم على ذلك صراحتهم مع أنفسهم تلك الصراحة التى لابد وأن تكون قد تسللت إلى نفوسهم من حياة البادية . فالبادية واضحة مكشوفة لا أدغال فيها ولا أحراش . بل ولابحار تطوى بين أمواجها أسرار من طوتهم من راكبى ظهورها . والسماء بعد ذلك صحو والشمس نهاراً والقمر ليلا لا تكاد تترك بالبادية حجراً بل حبة رمل حتى تجعلها تتوقد ناراً ونوراً .

وأخيراً يأتى دور الخيمة – التى يولد فيها العربى ويموت – فهى تلقنه دروساً لا تنتهى فى الوضوح والصراحة وذلك بفضل حوائطها الرقيقة التى لا تكاد تخفى شيئاً عن أعين الناس . وإن زهير بن أبى سلمى الذى رسم الخطوط العريضة لحياة العرب فى الأبيات الأخيرة من معلقته(٢٨) لم يفته أن يشير إلى هذه الحقيقة حين قال :

ومهما تكن عند امرئ من خليقة   وإن خالها تخفى على الناس تعلم

وتبدو آثار تلك النزعة عند العرب فى البعد عن المبالغة والإغراق وتوخى القصد فى المدح والفخر اقرأ ما شئت من الشعر فسترى دقة شديدة والتزاماً للحقائق . وإليك أبياتاً لطرفة بن العبد من القصيدة التى عرضنا لها منذ قليل هذه النزعة ، قالها يفخر بقومه بنى بكر :–

لا تعزُّ الخمر إن طافوا بها   بسباء الشول والكوم البكر(٢٩)

(*) كل أحكامنا تقريبا نسبية فحين نقول إن القدامى كانوا يلتزمون الحقائق لانعنى أنهم ما كذبوا قط . ولكن نعنى أن الغالب على شعرهم هو ذاك وسنعرض لهذا الموضوع مرة أخرى حين نتحدث عن المبالغة عند المحدثين لنرى أن غلو الجاهليين كان مع ندرته مستساغا .

(٢٨) نقصد تلك الأبيات التى يبدؤها عن الشرطية مثل:

ومن لم يصانع فى أمور كثيرة   يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم
ومن يك ذا فضل ويبخل بفضله   على قومه يستغن عنه ويذمم

(٢٩) الشول: جمع شائلة وهى الناقة التى مضى على وضعها سبعة أشهر– الكوم: جمع كوماء كحمر–

فإذا ما شربوها وانتشوا وهبوا كل أمون وطمر[٣٠]
ثم راحوا عَبَقُ المسك بهم يلحفون الأرض هُدَّاب الأزر
نحن فى المشتاة ندعو الجفلى لا ترى الأدب فينا يتنقر[٣١]
بجفـان تـعترى نـاديـنـا من سديف حين هاج الصِّنبرِّ[٣٢]
كـالجوابى لا تنى مترعة لقرى الأضياف أو للمحتضر[٣٣]
ثم لا يخزن فينا لحمه إنما يخزن لحم المدخـر

وشبيه بهذا أبيات لبيد التى ختم بها قصيدته وفيها يقول :—

إنا إذا التقت المجامع لم يزل منا لزاز عظيمة جشامها[٣٤]
ومقسِّم يعطى العشيرة حقها ومغذمر لحقوقها هضامها[٣٥]
فضلا وذو كرم يعين على الندى سمح كسوب رغائب غنامها

فلم يزد لبيد هاهنا على أن جعل أسرته من أعز الأسر فى قبيلته ، ولم يسرف فيخلع عليها من المحامد والمفاخر ما ليس من شأنها . وهذا نفسه ما فعله طرفة من قبله . وقد ازداد هذا الأصل قوة بفضل زهير ومدرسته فقد جعله أساساً من أسسها ، والتزمه التزاما استرعى التفات عمر بن الخطاب الذى قدمه على الشعراء جميعاً ولما سئل عن سبب ذلك قال : «كان لا يعاظل بين القول ، ولا يتبع حوشى الكلام ، ولا يمدح الرجل إلا بما هو فيه »[٣٦]وتبعه فى ذلك حواريُّة الحطيئة . استمع إلى قوله يمدح بنى لأى بن شماس ابن أنف الناقة بن قريع ويهجو الزبرقان بن بدر ابن عمهم ورهطه

=وحمراء وهى الناقة العظيمة السنام – سباء الشول: شراؤها أى الحمر بالشول – البكر: الحديثات السن .

(٣٠) الأمون: مايؤمن عثاره من الإبل والخيل – الطمر (بكسر الطاء)الطويل . المشرف من الخيل .
(٣١) الجفلى: أن يعم بدعوته إلى الطعام .
(٣٢) الصنبر: بتشديد الصاد مع الكسر ، وتشديد النون مع الفتح أو الكسر ، الريح الباردة .
(٣٣) الجابية: الحوض الواسع يجبى فيه الماء أى يجمع – المحتضر: النازل على الماء .
(٣٤) لزاز عظيمة: ملازمها أى حمالها .
(٣٥) مغذمر لحقوقها هضامها . مطلق اليد يعطى ويمنع من يشاء .
(٣٦) الشعر والشعراء ص ٤٤ .

وقد كان بين الفريقين تنافس وتحاسد(٣٧)

أفلّوا عليهم لا أبا لأبيكم
من اللوم أو سدّوا المكان الذى سدوا

أولئك قوم إن بنوا أحسنوا البنا
وإن عاهدوا أوفوا إن عقدوا شدوا

وإن كانت النعماء فيهم جَزَوْا بها
وإن أنعموا لا كدّروها ولا كدّوا

مطاعين فى الهيجا مكاشيف للدجى
بنى لهم آباؤهم وبنى الجد

ويحسدنى أفناء سعد عليهم
وما قلت إلا بالذى علمت سعد

فقد وصفهم بأجمل ما يتمنى أن يوصف به المرء من الوفاء بالعهد والابقاء على الصديق والسماحة والشجاعة وكرم المحتد ، كل ذلك فى ألفاظ يسيرة وعبارات عادية أو كالعادية لا أثر فيها لمبالغة أو إغراق .

وقوله فى الزبرقان :—

دع المكارم لاترحل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسى

آذاه رغم بساطته أشد إيذاء حيث رماه بسقوط الهمة وتفاهة التفكير. وقد بلغ من تأذّى الزبرقان بها أن استعدى عليه عمر بن الخطاب ، فسجنه وهمّ بقطع لسانه . أو تظاهر بذلك على الأقل(٣٨)

وبالرغم من أن ماذكرناه كان الصبغة الغالبة على الشعر الجاهلى ، فقد كانت هناك مخالفات اقتضتها الظروف السياسية والاجتماعية المختلفة .

---

(٣٧) تهذيب الكامل ج ٢ ص ١٠٦ .
(٣٨) نفسه ص ١١٠ .

فالدارس للشعر الجاهلى يدرك ميل شعراء تغلب إلى الغلو فى تقدير شجاعتهم . ولم يحتمل منهم النقاد ذلك ، فقالوا فى قول مهلهل بن ربيعة :—

فلو لا الريح أسمع أهلَ حجر . . . صليلَ البيَضْ تقرع بالذكور(٣٩)

أنه أول كذب سمع فى الشعر ومن الإنصاف أن نقول إن مثل هذه الزلة لا ينبغى أن تذهب ما فى بقية القصيدة من قصد يبدو فى قول مهلهل :

وهمام بن مرة قد تركنا ... عليه القشعين من النسور(٤٠)
على أن ليس عدلا من كليب ... إذا طُرد اليتيم عن الجزور
على أن ليس عدلا من كليب ... إذا ما ضيم جيران المجير
على أن ليس عدلا من كليب ... إذا خيف المخوف من الثغور
على أن ليس عدلا من كليب ... إذا برزت مخبأة الخدور

أما ما نراه فى شعراء بكر كطرفة بن العبد والحرث بن حِلِّزة من قصد واتزان فيرجع فيما نعتقد إلى تلك الضربات المتوالية التى كالتها لها تغلب ، فقد ذاقت بكر مرارة الهزيمة بسبب اعتزال بعض بطونها الحرب ، ولذا كسبوا النصر النهائى بعد أهوال طوال ، ودفعوا له ثمنا غاليا من دمائهم وأموالهم ، فعلمتهم التجارب ألا يلقوا الكلام على عواهنه إلقاء .

وقد تعرَّضت هذه النزعة الكريمة إلى محنة أخرى على لسان المتكسبين بأشعارهم من أمثال النابغة الذبيانى ، فقد انتهى به حرصه على إطراء الممدوح إلى مجاوزة القصد فيما يقول أحياناً كما ترى فى قوله يصف سيوف الغساسنة :—

---

(٣٩) الأمالى ج ٢ ص ١٣٣ – ١٣٤ حجر: قصة اليمامة ، والمعركة بالجزيرة . البيض: الخوذ

(٤٠) المرجع السابق ص ١٣٢ ، القشعم: الهرم ، «على أن ليس عدلا من كليب »أى أن همام بن مرة أو بجير للذكور قبله لايغنى غناء كليب وقت الشدة ، لأن جميع الأمور التى ذكرها من طرد اليتيم أو العجز عن حماية الجار أو خروج النساء من خدورهن لايحدث إلا فى الأوقات العصيبة حين يشتد الجدب أو يحدق بهم العدو .

تقدَ السَّلوقىَّ المضاعف نسجه . . . وتوقد بالصُّفَّاح نار الحُباحب[٤١]

ولكن مثل هذه الأبيات النادرة لا ينبغى أن تهدم القاعدة العامة التى سار عليها الشعر الجاهلى .

ولعله قد صار من واجبنا وقد انتهينا إلى هذا الحد من البحث أن نشير إلى أن أكثر الفضائل جرياناً على ألسنة العرب الشجاعة والكرم ويدخل تحت الشجاعة حماية الجار ونجدة الملهوف . وإنما عظم تقديرهم لهاتين الفضيلتين لأن حياة البادية تفرض عليهم ذلك ، فانعدام الحكومة المركزية ، واضطراب الحال الاقتصادية عرضهم للغارات ، وجعلهم بحاجة إلى من يرد عنهم ويلاتها ، وقلة الأمطار عرضتهم للجدب وأحوجتهم إلى من يرد عنهم غوائله الميل إلى التصوير .

يظهر أن هذا الميل فطرى فى الإنسان ، فهو بطبيعته شغوف بأن ينقل إلى غيره ما عساه أن يكون قد سبق إليه من مشاهد أو تعرض له من تجارب . وقد وجدت هذه النزعة متنفساً عند الأمم الكاتبة القارئة ، فظهر التصوير ممتزجاً بالكتابة عندها أول الأمر ثم استقل عنها بعد ذلك[٤٢] وفى كلا الحالين استغلت تلك الأمم أيديها لتصوير تجاربها ومشاهداتها .

ولكن الشعب العربى لا يكتب ولا يرسم وهو مع ذلك محتاج كغيره من الشعوب إلى نقل تجاربه . بل هو أشد حاجة إلى ذلك لقوة المشاركة الوجدانية عنده ولم يجد وسيلة إلى ذلك سوى بضاعته الأولى وهى الشعر يرسم فيه صوراً دقيقة لكل ما يقع تحت سمعه وبصره من مناظر وتجارب ، ولذا تكثر تلك الصور فى الشعر العربى أثناء العصر الجاهلى كثرة لا نرى لها شبها فى عهد آخر سوى العهد الأموى الذى يحاول دائما أن ينسج على

---

(٤١) شعراء النصرانية ج – ٢ ص ٦٤٧ ، السلوقى الدرع نسبة إلى سلوق ببلاد الروم المضاعف نسجه . نسحت حلقاته مثنى – الصفاح : حجارة عراض – الحباحب . ذباب يرسل شررا أو شعاعا أثناء الليل

(٤٢) كانت الكتابة أول الأمر صورية ثم مقطعية ثم تحولت على يد الفينيقين إلى رمزية

منواله ، وإذا أعوزك الدليل على ذلك فاقرأ المعلقات السبع وتأمل وصف امرئ القيس لحبيبته وفرسه ولا تنس الأبيات التى ختم بها معلقته وتحدث فيها عن الطبيعة . وإذا انتقلت إلى طرفة ومعلقته فقف قليلا أو كثيراً عند وصفه أو بعبارة أدق تصويره لناقته ، وإنا لواثقون من أنك ستسأل نفسك عما إذا كنت أمام شاعر أو مصور وذلك لكثرة ما فيها من تشبيهات تتوالى فى إسراف عجيب ، ويجمل بهذه المناسبة أن نذكر أن أسلوب أهل الجاهلية فى التصوير هو الاعتماد على التشبيهات الحسيَّة لتصوير الحسيَّات والمعنويات جميعاً ومثال الأول قول طرفة بن العبد :

وبلاد زَعِلٍ ظلمانها كالمخاض الجرب فى اليوم الخدر(٤٣)

ومثال الثانى قول طرفة أيضا .

وظلم ذوى القربى أشد مضاضة
على النفس من وقع الحسام المهند(٤٤)

واستعمال التشبيهات على هذا النحو مظهر من مظاهر البساطة والسذاجة والرغبة فى الإيجاز حيث لايستطيع المتحدث ذكر تفاصيل المنظر الذى يريد تصويره فيكتفى بذكر شىء شديد الشبه به ومعروف لكل من القائل والسامع مستغنيًا بذكره عن التعرض لدقائق الموصوف ، ولكى يكون الغرض من هذه التشبيهات واضحا نذكر لك مثالين يعينان على مانريد أما أولهما امرئ القيس يصف شعر حبيبته :—

وفرع يزين المتن أسود فاحم أثيثٍ كقِنْو النخلة المتعثكل(٤٥)
غدائرة مستشزرات إلى العلا تضل العقاص فى مثنى ومرسل

---

(٤٣) زعل: نشيطة — المخاض: الحوامل من النوق — الخدر: الشديد البرد ، ديوانه ص ٦٦ .

(٤٤) معلقته .

(٤٥) القنو للنخلة مثل العنقود لشجرة العنب ، ومتعثكل تمت عثاكيله وهى العيدان الرفعية التى تحمل البلح .

فأنت تراه قد وصفه بأوصاف متعددة تؤكد غزارته وكثافته ولكنه مع ذلك لايهدأ ولايستريح حتى يقول بجانب ذلك كل ، «كقنو النخلة المتعثكل ، وكأنى به يرى أن تلك الصفات مهما توالت لاتنقل الصورة التى ارتسمت على مرآة فكره وهو يتطلع إلىشعر حبيبته ، صورة قنو النخلة ولذا يبادر بتسجيله فى شعره وشبيه بهذا قوله :–

وكشح لطيف كالجديل مخصَّر   وساق كأنبوب السِقىِّ المذلَّل(٤٦)

بعد أبيات قلائل من قوله :–

هصرت بفودى رأسها فتمايلت   على هضيم الكشح ريا المخلخل

وكأنه رأى أن الإيضاح بالنعوت والصفات أقل دقة ووضوحاً منه بالتشبيه ، فعمد بعد ذلك إلى تشبيهه بالجديل ، فإنه على بساطته يتضمن الضمور واللطف وتداخل بعض الأجزاء فى بعض مع الخلو من الفضول والترهل .

وفى هذا الضوء يجب أن تقرأ الشعر الجاهلى ، وأن تنظر إلى التشبيهات التى تمر بك فى كثرة أثناء قراءته متتبعا الشاعر وهو يتنقل بك كالنحلة أو الفراشة من زهرة إلى أخرى أو من منظر إلى آخر واضعا بين يديك الصورة التى انطبعت فى ذهنه عند رؤية هذا المنظر أو ذلك ، وفى هذا الضوء ينبغى أن نتدبر أمثال قول طرفة فى ناقته وقد خطرت به :–

فذالت كما ذالت وليدة مجلس   ترى ربها أذيال سحل ممدد(٤٧)

أو قوله يصف امتلاء أطراف عشيقته :

كأن البُرين والدماليج عُلقَّت   على عُشُر أو خِروع لم يخضَّد(٤٨)

---

(٤٦) السقِىّ : المسقىّ ، المذلّل : المثقل بالثمار ، شبه ساقها بأنابيب البردى أو القصب التى نشأت فى ظل محل كثير الماء والثمار .

(٤٧) شبه الناقة فى سيرها بجارية ترقص أمام سيدها فى ثياب بيضاء (المعلقة)

(٤٨) نفسه . البرين والدماليج : الخلاخيل والأساور ، والعشر والخروع نوعان من الشجر .

أو قوله متحدثاً عن حدة قلبه ونفاذه فى الأمور:

أنا الرجلُ الضَّرب الذي تعرفونه   خَشاش كرأس الحيّة المتوقدة(٤٩)

والتصوير اللفظى عند العرب يشبه اليدوى عند غيرهم من حيث اقتصاره على منظر جزئى بسيط كقول طرفة:

وبلاد زَعِـــل ظـــلمانهـــا   كالمخاض الجرب فى اليوم الخدر(٥٠)

أو اتساع أطرافه وتعدد جوانبه حتى يشبه اللوحات الضخمة .

وكانت روح الدقة التى تشيع فى شعر زهير معينة له على تجويد هذا النوع من التصوير كما ترى فى قوله:

تَبَصَّر خليلى هل ترى من ظعائن   تحمَّلن بالعلياء من فوق جرثم(٥١)
جعلن القنان عن يمين وحَزْنهِ   وكم بالقنان من محل ومحرم(٥٢)
عَـلَوْن بـأنماط عِـتـاقٍ وكِلَّة   ورادٍ حواشيها مشاكهة الدم(٥٣)
كأن فتات العهن فى كل منزل   نزلن به حب الفنا لم يحطم(٥٤)
فـلما وردن الماء رزقـا جمامـه   وضعن عصى الحاضر المتخيم(٥٥)

على أنه ينبغى ألا تغلو فى تقدير زهير فإن معظم شعراء الجاهلية كانوا مصورين مثله ، بل ربما كان من الواجب أن نذكر أنه مديناً لهم بأجمل ماعرف له من التصوير ألا ترى أن قوله:

---

(٤٩) نفسه . الضرب : الخفيف اللحم ، الخشاش بفتح المعجمة : الماضى الذى لايتردد .

(٥٠) راجع ص٢١ من هذا الكتاب .

(٥١) ديوانه ص ٤ – الظعائن: النساء على الإبل جمع ظعينة .

(٥٢) القنان. جبل لبنى أسد – والحزن ماغلظ من الأرض – المحل: الذى لاعهد له كأنه يستحل مال الناس ودماءهم – المحرم: الذى له حرمة ودمة .

(٥٣) الأنماط: مايفترش من المتاع – الكلة: الستر– وراد حواشيها: حمراء ، مفرده ورد .

(٥٤) العهن: الصوف– فتاته: ماتناثر منه – الفنا: شجر حبة أحمر .

(٥٥) الجمام: جمع جمة وجم وهو مااجتمع من الماء وغزر– وزرقته دليل صفائه .

فبينا نبغى الصيد جاء غلامنا يدبّ ويخفى شخصه ويضائله[٥٦]

مأخوذ من قول طرفة يتحدث عن بعض الفلوات .

يظل بها غير الفلاة كأنه رقيب يخافى شخصه ويضائله[٥٧]

وإن أحببت أمثلة على ماتقول فاقرأ قول النابغة حين يصور سعة عطاء النعمان مشبها إياه بالفرات .

فما الفرات إذا جاشت غواربه ترمى أو إذّيه العبرين بالزبد[٥٨]
يمده كل واد مترع لجب فيه ركام من الينبوت والخضد[٥٩]
يظل من خوفه الملاح معتصما بالخيزرانة بعد الأين والنجَد
يوما بأجود منه سبب نافلة ولايحول عطاء اليوم دون غد

أو حين يقول مصورا سعة سلطانه وامتداد نفوذه:

فإنك كالليل الذى هو مدركى وإن خلت أن المنتأى عنك واسع
خطاطيف حجن فى حبال متينة تمد بها أيد إليك نوازع

ولكى يثق القارئ أن هذا النوع من التصوير كان عاما فى الشعر الجاهلى نزيده مثالين أحدهما لطرفة والآخر لأمير شعراء الجاهلية أما طرفه فيقول:

ونحن إذا ما الدجن أمسى كأنه
سماحيق غيم وهى حمراء حرجف[٦٠]
وجاءت بُصرّاد كأن صقيعة خلال البيوت والمبارك كرسف[٦١]

---

(٥٦) ديوانه ص ٢٧ .
(٥٧) ديوانه ص ٣٩
(٥٨) النابغة الذبيانى ص ١٧٦ .
(٥٩) الينبوت: شجر الخروب – الخضد. الحشائش ،
(٦٠) ديوانه ص ٤٣ – سماحيق الغيم: الرقيق منه – حرجف: شديدة البرودة .
(٦١) الصراد كرمان: الغيم الذى لاماء فيه – الصقيع: ماينزل بالليل كأنه الثلج .

وجاء قريع الشول يرقص قبلها إلى الدفء والراعي لها متحرف(٦٢)
تبيت إماء الحمى تطهَى قدورنا ويأوى إلينا الأشعث المتجرف(٦٣)

فقد وصف السماء والأرض ومايغطى إحداهما من غيم رقيق كأنه أغشية الدهن ومايتثر على وجه الأخرى من صقيع كأنه القطن المندوف ووصف الإبل وقد عادت مساء وعاد فحلها يرتعش ويستحث الخطأ طلباً للدفء على حين تخلف عنها الراعى خوفا من البرد. كل ذلك ليعطينا صورة مما كان يحل بالبادية من أزمات فى الشتاء يتولّون هم تفريجها على المعسرين بإطعام الطعام فى غير تقتير.

وأبيات امرئ القيس فى وصف السيل وأثره فى البادية معروفة مشهورة ومنه فى وصف الجبل والسباع والطير أثناء اندفاعه وعقب إقلاعه:

كأن ثبيراً فى عرانين وبله كبير أناس فى بجاد مزمّل(٦٤)
كأن ذرا رأس المجيمر حوله من السيل والغُثّاء فلكة مغزل(٦٥)
كأن السباع فيه غرقى عشيّة بأرجائه القصوى أنابيش عنصل(٦٦)
كأن مكاكى الجواء غديّة صبحن سلافاً من رحيق مفلفل(٦٧)

وهى وإن كانت جزئيات منفصلة إلا أن تجاورها يكوّن منها وحدة

---

(٦٢) قريع الشول فحلها -- متحرف. متخلّف عنها سبب البرد.

(٦٣) المتجرف المعدم.

(٦٤) ثبير: جبل -- عرانين وبله. أوائل المطر -- البجاد. ثوب مخططة -- مرمل: متلفف

(٦٥) المجيمر. أكمة معينة -- الغثاء: ماجاء به السيل من حشيش أو شجر ونحوه فلكة المغزل· رأسه، شبه دوران السيل حول الأكمة بدوران فلكة المغزل

(٦٦) العنصل: البصل البرى -- الأنابيش: جذور النبات، مفيدها انبوش (بالضم) لأنه ينبش عنها، شبه السباع وقد اختلط الطين بشعرها بجذور البصل البرى حين يختلط بها الطين واختار البصل البرى لأن جذوره أقرب للشعر.

(٦٧) المكاكى: ضرب من الطير مفردها مكاء بضم الميم وتشديد الكاف.

عامة تعطينا صورة دقيقة لمنظر من مناظر البادية عند هبوب العواصف المطرة .

وقد عرضنا لنظرية التصوير لأنها تفسر لنا تفسيراً تاما ميل العرب إلى تحرىّ الدقة فى تشبيهاتهم واستعاراتهم . وقد مر بنا تشبيه طرفة للظلمان بالمخاض الجرب ولايكاد يخفى قوة وجه الشبه بينهما . وإليك صورتين أخريين أولاهما لشاعر جاهلى والأخرى لآخر عباسى .. قال امرؤ القيس فى عقاب يشبه بها فرسه ثم يشير إلى كثرة ضحاياها من الطيور:

كأن قلوب الطير رطباً ويابساً لدى وكرها العناب والحشف البالى

ويحدثنا بشار أنه ظل يحسد امرأ القيس على هذا التشبيه المزدوج حتى قلده بقوله:

كأن مثار النقع فوق رءوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

وأظننا ندرك بسهولة قوة التشابه عند الأول فالرطب من قلوب الطير يكاد يختلط بالعناب حجماً وشكلا ولينا كما أن اليابس منها يكاد يشتبه على المرء بالحشف من البلح ، والوضع بخلاف ذلك عند بشار لأسباب سنعلمها إن شاء الله عندما نتحدث عن التصوير وماأصابه من تطور فى العصر العباسى .

« الموسيقية »

لا يكاد القارئ للشعر الجاهلى يخطئ سيطرة الموسيقية عليه ، فأبياته مقسمة إلى مقاطع متوالية متناسقة ، وقوافيه محوطة بسياج من الشروط التى توجب أن تكون صورتها متحدة فى القصيدة كلها من حيث الحركات والسكنات .

والروى يجب ألاّ يتغير أو يتبدّل مهما طالت القصيدة . والذى يمكن أن يصل إليه الباحث من هذا كله أن الشاعر العربى يهتم بإرضاء الأذن ،أنه يعلم أنها تتوقع عند سماع الشعر صورة صوتية خاصة تطرب لسلامتها وتضطرب لاضطرابها ، ولاسيما إذا كان ذلك الاضطراب فى القافية ، الذى يمتد طنينها فى الأذن أكثر من أى كلمة أخرى فى البيت لوقوعها فى آخره . وهذا هو السبب فى أن قوماً سمعوا قول النابغة .

زعم البوارح أن رحلتنا غداً   وبذاك خبرنا الغراب الأسودُ
لا مرحبًا بغد ولا أهلا به   إن كان تفريق الأحبة فى غد

فلم يغتفروها له وكبر عليهم أن يجمع بين الكسر والضم فى الروى . واحتالوا للأمر فأوحوا إلى قينة بغناء الأبيات فى حضرته على النحو السابق ، ففطن إلى خطئه(٦٨) ويروى قول امرئ القيس :

كـأن ثبيـرًا فى عـرانين وبلـه
كـبير أنـاس فى بجاد مـزمَّـل

بكسر اللام فى مزمل ، محافظة على حركة الرويّ ، مع أنها تستحق الضم لأنها صفة كبير والسبب فى عناية الشاعر العربى بالأذن واهتمامه بالموسيقى تبعا لذلك أن اللغة العربية لغة مسموعة لا مكتوبة . حيث يجهل أهلها القراءة والكتابة وقد كان

---

(٦٨) الشعر والشعراء ص٣٨ .

لهذه الخاصة فوائدها وأضرارها ، أما من حيث المزايا فقد ساعدت على شيوع تلك الروح العذبة التى تطل من خلال الشعر الجاهلى ، وكل ما نسج على منواله من شعر العصور التالية ، روح لا تلبث أن تستولى على نفس القارئ والسامع فتعمل فيه عمل السحر . ونحن لا نشك فى أن هذا هو شعور القارئ لقول المرقِّش الأكبر :

سرى ليلا خيال من سليمى   فأرقّنى وأصحابى هجود (٦٩)
فبت أدير أمرى كل حال   وأرقب أهلها وهم بعيد
على أن قد سما طرفى لنار   يشب لها بذى الأرطى وقود
حواليها مها جم التراقى   وأرآم وغـــزلان رقود (٧٠)
نواعم لا تعالج بؤس عيش   أوانس لا تروح ولا ترود
يسرن معا بطاء المشى بدا   عـليهن المجاسد والبرود (٧١)
فما بالى أفى ويخان عهدى   وما بالى أصاد ولا أصيد

ونحن نعتقد أن قدراً كبيراً من إعجابنا بهذه الأبيات يعود إلى اتصالها الوثيق بعواطف مشتركة بين الناس جميعاً ، ولكننا لا نشك فى أن قسطاً كبيراً أيضاً من هذا الإعجاب يرجع إلى ما فيها من موسيقية . وأن هذا الإعجاب كان يمكن أن يضعف أو يتلاشى لو أن تلك العواطف قد صبّت فى عبارات معقدة تنقصها السلاسة والعذوبة والموسيقية . وحتى لا يخدع القارئ فيظن أن التأثير كله أو معظمه عائد إلى موضوع الشعر فقط نثنىّ بقول أبى العلاء :

حيـاة عـناء وموت عنا   فليت بعيد حمام دنا (٧٢)
يـد صفرت ولهاة ذوت   ونفس تمنت وطرف رنا
ومـوقد نيرانه فى الدجى   يـروم سنـاء بـرفع السنا

---

(٦٩) المفضليات ص ٢٣ .

(٧٠) جم جمع جماء كحمرو حمراء ، وهى التى غطى اللحم عظمها ، والتراقى جمع ترقوة بفتح فسكون فضم ففتح ، وهى أعلى الصدر فى مقدم العنق

(٧١) مجاسد . جمع مجسد بصيغة اسم المفعول ، وهو الثوب المصبوغ بالجساد أى الزعفران — البرد : الثوب المخطط بدّ . جمع بداء كحمر وحمراء . وهى الغليظة الفخذين .

(٧٢) اللزوميات ص ٥٩

يحاول من عاش ستر القميص وملءَ الخميص وبرء الضنا
ومن ضمّه جدث لم يُبَل على ما أفاد ولا ما اقتنى(٧٣)
يصير ترابا سواء عليه مسّ الحرير وقطعن القنا

فبالرغم من أنها تدور حول الموت فإننا على يقين من أن قارئها سيطرب لها سواء كان من عشاق الموت أو الحياة ، وأن جزءاً كبيراً من ذلك الإعجاب يرجع إلى موسيقيتها . وقد أشرنا فى أول هذا الفصل إلى الشروط التى تتعاون على جعل الشعر موسيقياً وهى الوزن السليم وفقاً لبحر خاص من البحور المعروفة لدارسى العروض مع خفة القافية واتحاد الروى . ولكن هذه جميعاً قد لا تحقق سوى أدنى مراتب الموسيقية كما سنرى فى الشعر المتكلف المصنوع ولابد أن ينضم إليها أمور أخرى للارتفاع بالشعر إلى أعلى المراتب فى هذه الناحية ، منها صدوره وعلى عاطفة جياشة وجريانه مع الطبع وخفة بحره(٧٤) ووضوح معانيه . ولعل أبرز شيء فى القصيدة التى بين أيدينا بعد خفة بحرها ، ما نراه من اختيار مفرداتها بحيث يتفق معظمها مع التفعيلات العروضية كما هو واضح بأدنى ملاحظة .

أما الآثار السيئة التى يمكن أن تعزى إلى حرص الشعراء والنقاد على موسيقى الشعر فأهمها احتفاظه بالوعاء الشكلى الذى ورد عن الجاهلية من اتحاد الوزن والروى مع تشابه القوافى فى القصيدة الواحدة(٧٥) وقد بلغ من عناية الشعراء والنقاد بالقوافى واحتفالهم لها أن قالوا : « إن حظ جودة القافية وإن كانت كلمة واحدة أرفع من حظ سائر البيت(٧٦) » .

وما من شك فى أن هذه الأمور جميعاً ، رغم إسهامها فى تحقيق الموسيقية تشبه السلاسل والأغلال التى تعوق الشاعر أحياناً عن متابعة ما يدور برأسه من أفكار ، أو يعتلج فى صدره من عواطف ، لأن جزءًا كبيرًا من نشاطه الفكرى يضيع فى ملاحظتها . ولعل الروىّ بخاصة أسوؤها أثراً ، وأثقلها حملا ، فإن الشاعر العربى

---

(٧٣) حذف الألف للتخفيف وعلى غير قياس (تاج العروس . مادة بلى)
(٧٤) لاشك أن بعض البحور أخف من بعض . وهذا هو السبب فى تسميتهم المتدارك بالبحر المرقص .
(٧٥) وقد وضع النقاد وعلماء العروض كثيرا من الشروط التى تضمن تشابهها فى جميع أبيات القصيدة .
(٧٦) البيان والتبيين ج ٣ ص ١٠٦ .

ربما قصّ أغصاناً مثمرة من الفكر ، أو غيَّرها ، بل ربما ضحّى بها جمعاء فى سبيل المحافظة على وحدة الرويّ .

ولا يعلم أحد غير الله تعالى ماكان يمكن أن ينتهى إليه الشعر العربى من حيث اتساع الأغراض ، وقوة الأداء لو أنه صادف من أبنائه ما صادفه الشعر الإنجليزى على عهد إليزابث من مارلو الذى استطاع أن يحرّره من وحدة الرّوىّ ، وبذلك مهّد لظهور الشعر المسرحى على يد شكسبير. حقيقة حاول الشعراء العباسيون كأبى العتاهية فى أرجوزته ، وأبان اللاحقى فى نظمه لكتاب كليلة ودمنة أن يحطّموا هذا القيد ، ولكنهم لم ينجحوا لشدة اعتزاز الأذن العربية بالروىّ . ونحن لا نشك فى أن هذه الفكرة لو اعتنقها شاعر فحل كالمتنبى لكان أبعد أثراً من هذين وأشباههما ولعل هذا الميل الطبيعى بين شعراء العربية ونقادها إلى المحافظة على موسيقى الشعر كان الصخرة التى تحطمت عليها محاولة أبى تمام تجديد الشعر العربى فى معانيه وأصباغه التى تستمد ألوانها من المحسنات البديعية . فقد كان غَوْص أبى تمام على المعانى وبحثه عن المحسنات صارفاً له عن العناية بموسيقى الشعر مما أضعف تحمّس الناس له ، بل أثار النقاد عليه . وأكبر الظن أن عناية البحترى بموسيقى الشعر عناية فائقة لم تكن مجرد مصادفة ، بل كانت محاولة موفقة منه لاستغلال الظروف السائدة وتحويل ثورة النقاد على أبى تمام إلى عاصفة من التصفيق له وقد نجح فى ذلك أيما نجاح ، وكان مما أثر عنهم فى بيان سبب تعصبهم له أنه يحافظ على عمود الشعر ولم يحددوا بالضبط ما هية ذلك العمود وأوصافه إلا أننا نستطيع الاهتداء إليه بتتبع أبرز الخواص التى يمتاز بها شعر البحترى من جهة والتى يلتقى فيها مع شعراء الجاهلية من جهة أخرى وقد وجدنا بعد البحث الطويل أن أول ما يصادف المرء فى ذلك الصدد الطبع والموسيقية .

بناء القصيدة

ونختم حديثنا عن الشعر الجاهلى ببيان الخطوط العريضة فى بناء القصيدة الجاهلية . ولعل أول ما ينبغى التنبيه عليه هنا أن الشعر الجاهلى كأخيه الإسلامى لم يرو جمعه فى صورة قصائد مطولة ، بل منه مقطوعات قصيرة أنشدت فى مناسبات غير خطيرة . أو اكتنفتها السرعة ، فلم يشأ أو لم يتمكن الشاعر من إعطائها ما تستحقه من عناية واهتمام ، ومنه قصائد مطوّلة جمع لها الشاعر شعاب نفسه واستغل فيها فنّه ومواهبه إلى أبعد حدود الاستغلال . والنوع الثانى هو موضوع بحثنا الآن . أما الأول فليس له بناء خاص جدير بالدراسة بل كان يلقى به الشاعر دون أن يلقى له بالا .

ولعل أتم صورة للنوع الثانى المعلقات العشر وإن كان بجانبها مئات من القصائد الطويلة الرصينة الجديرة بالدراسة . وأول ما يلاحظ على القصائد الجاهلية بدؤها بالوقوف على ديار الحبيبات بعد رحيلهن ، والدعاء لها حينا والبكاء عليها أحيانا ، ووصل ذلك بالحنين إلى صواحبها ، واستعراض شىء من ذكريات الشاعر عنهن ، أو علاقته بهن ، بمثل هذا يبدؤ معظم الجاهلين قصائدهم مسرفين أو مقتصدين . ثم يفترقون بعد ذلك وفقا لمشاربهم . فامرؤ القيس مثلا ينتقل من التشبيب إلى الصيد وما التبس به من وصف الخيل .

وطرفة يذكرنا بأن له هواية غير الصيد وهى الضرب فى عرض الصحراء على ظهر ناقته التى يسرف فى الحديث عنها إسرافا يضيق به من لم يألف الشعر الجاهلى . وبعد الفراغ منها يأخذ فى غرضه الأصلى ، من الفخر بنفسه ، والدفاع عنها أمام لائميه على شربه وتبذيره .

على أن هناك أمثلة قليلة لمعلقات أو قصائد بدئت بالغزل والتشبيب دون تعرض للأطلال والدمن كمعلقة عمرو بن كلثوم . ونوع ثالث وإن كان أقل من القليل لم

يتعرض فيه صاحبه للتشبيب إلا تائبا منه مستغفراً . وقد استبدل به وبالأطلال وصف الطبيعة والصيد من ذلك إلى المدح . ونشير بذلك إلى قول زهير بن أبى سلمى يمدح حصن بن حذيفة بن بدر الفزارى .

صحا القلب عن سلمى وأقصر باطله
وعُرِّى أفراس الصبا ورواحله[77]

وأقصرت عما تعلمين وسُدِّدت
علىَّ سوى قَصْد السبيل معادله

وغيثٍ من الوسمىّ حُوٍّ تلاعه
أجابت روابيه النِّجاء هواطله[78]

هبطتُ بممسود النواشر سابح
مُمَرّ أسيل الخد نَهْد مراكله[79]

فأنه يستمر بعد ذلك فى وصف حصانه رابطا بين ذلك وبين الصيد ثم يخلص إلى غرضه من مدح حصن بن حذيفة . ولندع هذه الأمثلة النادرة جانبا ، ونتقدم لنسأل أنفسنا عن السبب فى حرص الشعراء الجاهليين على أن يبدؤا قصائدهم بمقدمات تمهيدية خارجة عن الموضوع الأصلى الذى قد يكون مدحا أو فخراً أو نحوه ، ولماذا لا يهدفون إلى الغرض الأساسى من القصيدة مباشرة ثم لماذا كان النسيب وذكر الديار البالية أحب الموضوعات إليها ، وأخيراً ما الضرورة إلى ذكر الناقة والصحراء بحيوانها ونباتها ؟

لقد نقل ابن قتيبة[80] عن ناقد لم يذكره إجابة لهذه الأسئلة نذكرها مع الاختصار قال « سمعت بعض أهل العلم يقول إن مُقصِّد القصيدة إنما بدأها بذكر

---

(٧٧) ديوانه ص ٢٤ ،

(٧٨) الوسمى : أول المطر – التلاع · مسايل الماء – حو· جمع حواء ، أى أن أطراف النبات سوداء من شدة الخضرة والخصب .

(٧٩) ممسود : مفتول – النواشر . جمع ناشرة وهو عصب الذراع – الممر : المحكم – المراكل : جوانب الفرس التى تركلها رجل الفارس – نهد . ضخم .

(٨٠) الشعر والشعراء ص ١٤ .

الديار فشكا وبكى ليجعل ذلك سبباً لذكر أهلها ثم وصل ذلك بالنسيب يميل نحوه القلوب ويستدعى إصغاء الأسماع إليه لأن النسيب قريب من النفوس . فإذا تأكد من إصغاء الناس إليه عقّب بإيجاب الحقوق فرحل فى شعره وشكا النصب والسهر وإنضاء الراحلة فإذا علم أنه أوجب على صاحبه حق الرجاء بدأ فى المديح فهزه على السماح وفضّله على الأشباه .

وفى رأينا أن إجابة ابن قتيبة جزئية وجانبية ، لأنه إن أمكن فى ضوئها تعليل قول الأعشى فى مدح الرسول ﷺ .

ألم تغتمض عيناك ليلة أرمداً   وبتَّ كما بات السليم مسهداً[81]
وما ذاك من عشق النساء لأننى   تناسيت بعد اليوم خُلّة مهددا
ولكن أرى الدهر الذى هو خائن   إذا أصلحت كفّاىَ عاد بأسدًا
شباب وشيب وافتقار وثروة   فلله هذا الدهرُ كيف ترددا ؟
وما زلت أبغى المال مذكنت يافعا   وليداً وكهلاً حين شبت وأمردا
وأبتذل العبس المراقيل تغتلى   مسافة ما بين النّجير فصر خدا[82]
ألا أيها السائر أين يَمَّمَتْ   فإن لها فى أهل يثرب موعدا
فآليت لا أرثى لها من كَلالة   ولامن حفى حتى تلاقى محمدا[83]
متى تُناخى عند باب ابن هاشم   تُريحى وَتُلْقى من فواضله يدا[84]
فى يرى مالا يرون وذكره   أغار لعمرى فى البلاد وأنجدا[85]

حيث تدل روح القصيدة وهذا المزج بين الأسفار وحب المال أن الشاعر كان حريصا على أن يلفت نظر الرسول إلى الغرض من تحمله هو وناقته المشاق . أو أمكن بها تعليل كثير من قصائد المدح التى جاءت بعد عصر الأعشى كقول جرير فى عبد الملك مثلا : —

(٨١) ديوانه ص ١٣٥ — الأرمد: الذى يشكو وجعا فى عينه — السليم. الذى لدغته الحية — . .

(٨٢) المراقيل: التى ترقل فى سيرها أى تسرع — تغتلى· تسرع — النجير. مكان بحضرموت — صرخد: مكان الجزيرة .

(٨٣) الكلالة. الكلال والتعب .

(٨٤) أراح : رجعت إليه نفسه بعد الإعياء . تناف : مبنى للمجهول .

(٨٥) أغار : سار إلى الفور وهو ما انخفض من الأرض ، وانجد : صعد النجاد وهى المرتفعات .

أتصحو أم فؤادك غير صاح عشيةَ هَمَّ صحبك بالرواح

حيث يذكر عدة أبيات فى الغزل ثم ينتقل إلى ذكر رحلته باختصار فيقول : -

سيكفيك العواذل أرْحِبَىٌّ هِجانُ اللون كالفَرَد اللَّيَاح [٨٦]
يعزٌّ على الطريق بمنكبيه كما ابترك الخليع على القداح [٨٧]

فإنه لا يمكن فى ضوئها ولا ظلالها تعليل كل ما ورد من ذلك قبل عصر الأعشى وإخوانه قبل أن يصير الشعر مرتزقا وطريقا لكسب المال والثروة . بل ولا تعليل ما جاء بعد ذلك من أشعار فى غير المدح من أغراض كالفخر والهجاء . إذن فالمسألة فى حاجة إلى نظرة أشمل وتوجيه أدق (وهذا ما نستعين بالله عليه) وإليك رأينا فى هذا الصدد : -

يظهر أن الشعر العربى كما يفهم من اشتقاقه بدأ أول الأمر فى صورة نجوى بين المرء ونفسه يترجم بها عن مشاعره ، ويتغنى فيها بآماله وآلامه . وعواطفه ونزعاته كلما طال عليه الليل . أو امتد به الطريق ، فيحيل تلك المشاعر والعواطف ألحانا عذبة ، وأغاريد شجية . وأى شىء أحب إلى نفسه وألصق بفؤاده من حبيبته يسترجع ذكرياته معها حلوها ومرها ، أو يبثها هواه وشكواه ، إن قدر له أن يلقاها أو يلقى من يلقاها فإن حال الزمان بينهما فارتحلت عن ديارها على عادة البدو ، لم يجد سوى الربع الخالى يروى أرضه بدموعه حينا ، ويسأله عن الحبيبة الراحلة أحيانا ، ويتلمس فى جوانبه موطئ أقدامها ، ومضجع جنبها . فإذا أعياه التماسها هناك ، التمس صورتها فى وجه القمر ، وتسمع حديثها فى هديل الحمائم ، وتنسم أنفاسها عند الأصائل والأسحار .

ومن يدرى لعل الشاعر العربى لم يكن يبكى حبيبته أو يرثى لعشها المهجور فقط ، بل كان يبكى من حيث لا يشعر ذلك الحظ التعس الذى مُنى به هو أمثاله من البدو حين فرضت عليهم ضرورة الحياة ، ألا يزالوا متنقلين على رقعة الصحراء

---

(٨٦) أرحبى: نسبة إلى فحل لبنى أرحب من همدات – الفرد : الثور المنفرد – اللياح : الأبيض .
(٨٧) يعز: يشتد – الخليع المقامر – القداح: سهام الميسر.

كأنهم قطع الشطرنج ، تاركين فى كل مكان فلذة من أكبادهم وقطعة من تاريخهم ، فهم دائماً غرباء وهم دائماً على سفر ، فى اجتماع وافتراق ، ووصل وهجران ، مختارين حينا ، ومكرهين أحياناً .

ولست أدرى مدى ما يمكن أن يكون فى قولنا من صواب ، إذا ذهبنا إلى أن ارتباط الرجل العربى بالمرأة من جهة وبالبيت من جهة أخرى أقوى مما نتصور . فلم يكن عبثاً أن يقول الله تعالى وهو العليم بسرائر خلقه « والله جعل لكم من بيوتكم سكنا » ويقول فى آية أخرى « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها » .

إن الشيء الذى يمكن أن يهدينا إليه مجموع هاتين الآيتين هو أن المرأة تمثل فى حياة العربى بعامة والبدوى بخاصة عنصر الاستقرار النفسى والحسى الذى كان يود بجدع الآلف أن لو أدركه فى بيئته المضطربة القلقة : أليس خباؤها هو المكان الوحيد الذى يأوى إليه من كل تلك الصحراء العريضة حين يفرغ من مشاكل البادية التى لا تنتهى فيصادف فيه نوعاً من الراحة والاطمئنان ، أليست الحياة دائماً فى تجدد وتنكُّر أمامه إلا وجهها ينظر إليه كلما دارت به الحياة ، فيدرك أنه لا يزال فى يده شيء جوهرى من ماضيه العزيز يمكن أن يبنى عليه مستقبله ، ثم يستأنف رحلته فى طريق الحياة الذى لا ينتهى إلا حيث ينتهى جميع الأحياء ، وهذا هو السر فى تعلقه بها ، وحنينه إليها ، وربطه بينها وبين الديار ، ديارها أولا ، وديار الجنس المشرد ثانياً وإذن فنحن نظلم العرب ، ونسيء إلى الشعر العربى ، حينما نقول أن حب العربى للمرأة كان حب الجسد للجسد فقط ، فلو كان كذلك لما طال بهم الحنين إليها . فأشد الناس شغفا بالجسد أسرعهم نسياناً له حين يختفى عن نظره . ونظلم الحقيقة حينما ندعى أن العرب أهانوا المرأة بترديد ذكرها فى مطالع قصائدهم[٨٨] .

شغل العربى إذن بنفسه وعواطفه أول الأمر ، وكانت المرأة وديارها أهم تلك

---

(٨٨) الشعر الأندلسى ص ٥٧ .

العواطف وأكثرها جريانا على لسانه(٨٩) وقد حسن موقع أغانيه تلك من نفسه ومن نفوس السامعين ، وظهر تأثير الشعر على النفس البشرية ، فوجدت فيه القبيلة سلاحاً هاماً تدافع به عن نفسها فى السلم والحرب ، واستعمله الشاعر رافعاً من شأنها ، واضعاً من شأن أعدائها ، وظل مع ذلك يبدأ بنفسه أول القصيدة ، متحدثاً كما كان يفعل من قبل عن مشاعره وعواطفه وأى خير فيه وفى شعره إن لم يكن له منه نصيب الأسد . بدأ الشاعر بنفسه اعتزازا بها وبعواطفها من جهة ، وجرياً على قديم عادته من جهة أخرى ، ولكنه مالبث أن أدرك بوضوح أن مثل هذا البدء يخدم غرضه الجديد(٩٠) من ناحيتين أولاهما أن يقوى انفعاله ، ويذكى شاعريته ، ويرضى شيطانه ، فيمده بكل جديد وعجيب من المعانى والأفكار .

ثانيهما : أنه يخدر السامعين ويسحرهم بتلك العواطف الإنسانية العامة التى يرى فيها السامع صورة من عواطفه ومغامراته ، فتأخذه هزة ونشوة تنسيه المنطق الجاف ، بل والوقار والتعقل ، وتجعله أداة طيِّعة فى يد الشاعر يوجهه بها كيفما شاء ، فإن كانت دعوته إلى حرب هب القوم إلى سلاحهم فلبسوه ، وإن كانت إلى سلم عادوا إليه فخلعوه .

وبما قدمنا من أن تأثير هذه المقدمات مزدوج يتناول الشاعر والمستمع كليهما ، يبدو ما فى تعليل ابن قتيبة من قصور ، حيث يفهم منه أن المتأثر هو السامع فقط ، ومن أجله حيكت تلك المقدمات ، ولكى نزيد الأمر وضوحاً نضرب مثلا بالمقدمات الموسيقية التى تُعزف بين يدى الأغانى عند إنشادها . أيتأثر بها الجمهور المستمع فقط أم يشاركه المغنى والمغنية ذلك الشعور ؟ أكبر الظن أن جميع من شاهد المحافل الكبرى يؤكد معنا اهتزاز المغنين والمغنيات الشديد لتلك المقدمات مثل الجمهور تماما ، بل أكثر وأعمق من الجمهور . وأكبر الظن أنهم بدون تلك المقدمات قد لا يحسنون الغناء ، بل ولا يستطيعونه .

(٨٩) إن معلقة امرئ القيس صورة مكبرة لذلك النوع الذى لم يفكر فيه الشاعر فيما وراء نفسه ، ولم يشتغل بما وراء عواطفه . وهذه المعلقة تعتبر فريدة من هذه الناحية بين بقية المعلقات التى لم تخل من غرض هام بجانب اللهو المرح ولعل السبب فى ذلك أن امرأ القيس أنشدها فى الفترة الأولى من حياته التى وهبها للذة وللشيطان ، ولم يكن أثناءها يحفل بما سواها من أمور الحياة .

(٩٠) العناية بشئون قبيلته .

على أن الظروف قد تجعل هذا الغزل ضرورة فى بعض المواقف كما هو الحال فى نقائض جرير والفرزدق فإن فيها كثيرا من السباب والترامى بالتهم وهذه الأمور يثقل على النفوس الأخذ فيها ابتداء ، وكأننى بجرير حين يقول :

بكرت حمامة أيكة محزونة تدعو الهديل فهيجت أشجانى
لا زلت فى غلل يسرك ناقع وظلال أملس وارف الأغصان

كأننى به يخدِّر الأعصاب ، ويستميل الأسماع حتى تتجاوز عما يمكن أن يأتى به بعد ذلك من إيذاء للذوق العام بهجومه على عرض خصمه ، ونهشه للحمه(٩١) .

وتتدخل الظروف أحيانا لتخرج أحاديث الدمن والأطلال عن دورها التقليدى وتجعل منها موضوعا حيًّا ، ومن أبرز النماذج فى هذا الصدد معلقة عنترة العبسى ، حيث استغل المقدمة الغزلية فى تأليف قلوب بنى ذبيان النافرة ، وذكّرهم بما بينهم ، وبين أبناء عمهم العبسيين من روابط عاطفية ، وعلاقات إنسانية ، وذلك حين راح يبكى فى إثر فتاة ربط الحب بين قلبها وقلبه برباط مقدس ، ثم جاءت الحزازات الشخصية لتمزّق تلك القلوب الغضة دون رحمة أو إشفاق ، وذلك إذ يقول :

وتحلّ عبلة بالجواء وأهلنا بالحَزْن فالصِمّاء فالمتثلَّم
حلّت بأرض الزائرين فأصبحت عَسِرا على طِلابك ابنةَ مَخْرَم(٩٢)
عَلِّقتها عَرَضا وأقتل قومها زعماً لَعَمْر أبيك ليس بمَزْعَم(٩٣)

---

(٩١) وفى هذا المعنى يقول ابن الرومى (ديوانه ١٣٥ ، تصنيف كيلانى)

ألم تر أننى قبل الأهاجى أقدم فى أوائلها النسيبا
لتخرق فى المسامع ثم يتلو هجائى محرقا يكوى القلوبا
كصاعقة أتت فى إثر غيث وضحك البيض تتبعه النحيبا

يعنى بالشطر الأخير أن السيوف حين تلمع كالضاحكة فى الحروب تتسبب فى القتل ، ومايتبعه من بكاء أهل الضحايا .

(٩٢) الزائرين: الأعداء أى بنو ذبيان ، شبههم بالأسود الزائرة ، وهذه خصومة شريفة .

(٩٣) علقتها بالبناء للمجهول: أحببتها ، عرضا: دون تفكير أو تدبير سابق من جانبها أو جانبى ، وإنما نص على ذلك اتقاء للغيرة الشديدة عند العرب ، أو ليشير إلى عنف جماها ، حيث يسلب الإرادة من أول نظرة . زعما=

وقريب من هذا قول الحرث بن حِلِّزة فى مطلع معلقته :

آذنتنا ببينها أسماء رب ثاوٍ يمل منه الثواء
بعد عهد لنا ببُرْقة شمَّا ء فأدنى ديارها الخَلْصاء
فالمُحيَّاة فالصِّفاح فأعنا ق فِتاق فعاذِبٌ فالوفاء
لا أرى من عَهِدت فيها فأبكي اليوم دَلْهًا وما يردّ البكاء ؟
فتنوَّرت نارها من بعيد بخزَارى هيهات منك الصَّلاء

أو قول عبيد الله بن قيس الرقيات :

أقفرت من عبد شمس كدَاء فكُدَيّ فالركن فالبطحاء
فمنى فالجمار من عبد شمس مقفرات فبلدح فحراء
فالخيام التى بعسفان فالجحفة منهم فالقاع فالأبواء
موحشات إلى تعاهن فالسقيا قفار من عبد شمس خلاء
قد أراهم وفى المواسم إذ يَغدون حلم ونائل وبهاء

إلى أن قال :

حبذا العيش حين قومى جميع لم تفرق أمورها الأهواء

فهذا الإسراف فى ذكر الأماكن يدل على أن للشاعر غاية من ورائها أسمى وأعمق من المحافظة على بناء القصيدة ، وغرض ابن قيس الرقيات واضح فهو يتفجع على مجد قريش . ثم يوازن بين عبد شمس وحفدتهم الأمويين فيذكر أن الأوائل كانوا أبر بالحجار وأهله من الأواخر فهؤلاء جمعوا قريشا تحت لواء واحد وأولئك فرقوا كلمتها وضيعوا وحدتها ونقلوا الخلافة من الحجاز إلى الشام فى أحضان القبائل اليمنية المنتشرة هنالك .

فاستعراض الأماكن المذكورة هنا يراد به إثارة الماضى حيث يمثل كل مكان مجموعة من الذكريات العزيزة على نفس كل حجازى وقرشى فهو أشبه بتلك المناظر

= لعمر أبيك الخ : أى إن حبى لها . وطمعى فى وصالها رغم مابين أهلى وأهلها من حروب خرافة حالم وهذيان محموم

التى تمر بخيال الحالم كلما عاد بذاكرته إلى الماضى . أو بلغة العصر الحاضر هو أشبه بتلك الصور والمناظر التى يقحمها لمخرجون من رجال الخيالة فيما بين أيديهم من قصص فيقطعون بها سير الحوادث كلما أرادوا العودة بأبطال القصة والنظارة معهم إلى ماض بعيد ،

وأكبر الظن أن الحرث بن حلزة لم يكن مشغولا أثناء تعداده لهذه الأماكن بحبيبته أسماء رغم الربط الظاهرى بينها وبين تلك الديار ، بل كان مشغولا بقومه وقبيلته . ولعله كابن قيس الرقيات كان يشير إلى ما مضى من زمن كانت تغلب وبكر فيه أخوين متواصلين غير متقاطعين ، متقاربين غير متدابرين ، ويؤكد هذا قوله يعقب ذلك :

لا أرى من عهدت فيها فأبكى
اليوم دَلْهاً وما يفيد البكاء

فإن اللاشعور قد فضحه فى هذا البيت أراد أم لم يرد(٩٤) .

هذا ما كان من شأن المرأة وما يتصل بها من دمن وأطلال . والآن ما شأن الناقة والصحراء والرحلة والأسفار ؟ لقد رأينا صورة من ذلك فى شعر الأعشى وجرير ، واتخذنا منه نموذجا للمتكسبين بأشعارهم . فماذا كان موقف الناقة قبل أن يصير الشعر مطية لكسب المال ؟

أخطرت فى شعر الأوائل من الجاهليين ، وما كان الغرض من ذكرها مع أنهم لم يكونوا إذ ذاك أمام سادة يمدحونهم ، ويعرضون لهم بما تحملوه فى سبيل الظفر برؤيتهم من مشاق وأهوال ؟ وجواب ذلك أن أحاديث الناقة والضرب بها فى عرض الصحراء وكبد البادية قد ورد كثيراً فى شعر الجاهليين الأوائل على أنه نوع من تلك المغامرات الحبيبة إلى نفوسهم . فهم يستعدون بذكر الناقة والصحراء عصر المخاطرة

---

(٩٤) ذكر الدكتور عبد الله الطيب الاستاذ بجامعة الخرطوم فى محاضرة له بجامعة مانستران أن حلزة لم يكن يبكى فراق تغلب ، بل يبدى سعادته برحيلها ، معتمدا على قوله « رب ثاو يمل منه الثواء » ونحن نرى أن هذه العبارة تحتمل تفسيرات كثيرة ، منها مثلا « لعل اسماء لسؤ حظنا قد ملت الثواء قريبا منا »

والفتوة والشباب الذى تركوه وراء ظهورهم . وهو لذلك جزء مكمل لما بدأه الشاعر من الحديث عن عواطفه وذكرياته أثناء الحديث عن المرأة . وهذا هو السبب فى أن مالك بن الريب وقد حضرته الوفاة بمرو بعيداً عن دياره بجزيرة العرب قد لخص أمانيه من الحياة فى بيتين(٩٥) :

ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة
بجنب الغضى أزجى القلاص النواجيا(٩٦)
فليت الغضى لم يقطع الركب عرضه
وليت الغضى ماشى الركاب لياليا

ومثله قول جميل بثينة :

ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة
بوادى القرى إنى إذن لسعيد(٩٧)
وهل أزجرن حرفاً علاة شِمِلَّة
بخرق تباريها سواهم قود(٩٨)
على ظهر مرهوب كأن نشوزه
إذا جاز هُلاَّك الطريق رقود(٩٩)
وهل أهبطن أرضاً تظل رياحها
لها بالثنايا القاويات وئيد(١٠٠)

والمتأمّل فى شعر الأوائل من الجاهليين يدرك صدق ما قدّمناه ألا ترى طرفة مثلا

(٩٥) ذيل الأمالى ١٣٥
(٩٦) أزجى القلاص النواجيا . أسوق الأبل السريعة
(٩٧) الأمالى ج ٢ ص ٢٩٩ .
(٩٨) حرف: ناقة ضامرة – العلاة: الناقة المشرفة – الشملة السريعة – الخرق· الفضاء الواسع – سواهم ساهمة بمعنى ضامرة – قود طيعة ، منقادة: جمع قوداء ، كسود وسوداء
(٩٩) نشوره: جمع نشز (بفتح الشين وسكونها)وهو المكان المرتفع عما حوله – هلاك الطريق. المسافرون سمى للهلاك فيه ، أى أقطع بهذه الناقة طريقا تبدو ونشوره حين أمر بها وكأنها قوم نيام .
(١٠٠) الثنايا: المعطمات – القاويات· الخاليات – وئيد صوت .

ينوب فى قصيدته الرائية بعد أن فرغ من التشبيب حبيبته هو :

وبلا زَعِــــل ظِـــلمانهـــا
كالمخاض الجرب فى اليوم الحذر(١٠١)
قــد تـبـطـنـت وتحتى جسرة
تتقى الأرض بملثوم معر(١٠٢)
فترى المرو إذا مــا هــجـرت
عن يديها كالفراش المشفتر(١٠٣)
ذاك عصر وعــــدانى إننى
نابنى اليوم خطوب غير سر
مـن أمور حــدثت أمـثــالها
تبترى عود القوى المستمر(١٠٤)

ألست ترى أن البيتين الأخيرين يمكن أن يبسطا على النحو التالى : تلك أيام عذبة جميلة مضت لسبيلها ولن تعود ، فقد حلّ بى اليوم من هموم الحياة ومشاغلها ما حال بينى وبين المتعة والأسفار ، ويروى ذكر الرواحل مقترناً باللهو والهوى والشباب فى قول زهير :

صحا القلب عن سلمى وأقصر باطلة
وعرّى أفراس الصبا ورواحله(١٠٥)

على أن امرأ القيس قد قطع كل جدل حول هذا الموضوع بأبياته التى عدد فيها هوايته فى الحياة وجعل الضرب بالعيس فى مناكب الأرض لإحداها ، وذلك إذ يقول :

(١٠١) ديوانه . زعل: نشيط – ظلمان. جمع طليم وهو الذكر من النعام – المخاض: الحوامل من النوق الحذر: الشديد البرد .
(١٠٢) تبطنت: صرت فى بطنها أى جست خلالها – حسرة· ناقة عظيمة – معر: ذهب شعره
(١٠٣) المرو: الحجارة البيض – هجرت· سارت وقت الهاجرة – المشفتر· المتفرق .
(١٠٤) المستمر: ماض فى شأنه لايضعف ولايلين .
(١٠٥) ديوانه (المطبعة الخيرية سنة ١٣٢٣هـ)ص ٢٦ .

فأصبحت ودعت الصبا غير أننى
أراقب خلات من العيش أربعا[١٠٦]
فمنهن قولى للندامى ترفقوا
يداجون نشاجاً من الخمر مترعاً
ومنهن ركض الخيل ترجم بالقنا
يبادرن سربا آمنا أن يفزعا
ومنهنّ نص العيس والليل شامل
ييممن مجهولا من الأرض بلقعا[١٠٧]
خوارج من بريّة نحو قرية
يجدّدن وصلا أو يرجّين مطمعا

ومازال منظر الإبل وقوافلها يسحر الشاعر الأموى كما كان يسحر سلفه فى الجاهلية فترى كثير عزّة فى معرض قسمة لها يرسم لنا لوحة بديعة لقافلة من الإبل تسير بالحجيج إلى مكة رسماً يدل على رقة ومشاركة وجدانية فيقول :

حلفت برب الراقصات إلى منى
خلال الملا يمددن كل جديل[١٠٨]
تراها رفاقا بينهن تفاوت
ويمددن بالأهلال كل أصيل[١٠٩]
تواهقن بالحجاج من بطن نخلة
ومن عزور والخبت خبت طفيل[١١٠]

---

(١٠٦) ديوانه ص ١١٢ .
(١٠٧) العيس. الأبل – نصها سوقها .
(١٠٨) الأمالى ج ٢ ص ٦٣ الراقصات : البون لأنها تهتز فى سيرها كأنها ترقص – الملا : الفضاء – الجديل : الزمام لأنه مجدول أى مفتول .
(١٠٩) الأهلال : قول (لا إله إلا الله)فلعله يريد أن هذا الأهلال يفعل فيها فعل الحداء فتسرع فى سيرها وقت الأصيل .
(١١٠) تواهقن. تبارين – بطن نخلة ، عزور ، خبت طفيل أماكن بعينها .

بكل حرام خاشع متوجه
إلى الله يدعوه بكل نقيل[111]
على كل مذعان الرواح معيدة
ومخشية ألا تعيد هزيل[112]
شوامذ قد ارتجن دون أجنة
وهوج تبارى فى الأزمة حول[113]

وأخيراً أليست الناقة شريكة العربى فى مسراته وأحزانه ومعوانه على بلوغ مآربه وإمضاء همومه. وبذا قويت الرابطة بينهما حتى ليكاد يناجيها بخلجات نفسه وتناجيه. استمع إلى قول عروة بن حزام، وقد ترك اليمن خلفه واتجه نحو العراق فى طلب حبيبته وابنة عمه، ثم انظر كيف يمزج بين عواطفه وعواطف ناقته، إن صح أن للنوق عواطف وأهواء.

هوى ناقتى خلفى وقُدّامى
وأنى وإياها لمختلفان
هوايَ عرافىّ وتثنى زمامها
لبرق إذا لاح النجوم بَيمان
من تجمعى شوقى وشوقك تظلعى
ومالك بالعبء الثقيل يدان[114]

(١١١) النقيل: الطريق.
(١١٢) المذعان: المذللة – معيدة: عاودت السير.
(١١٣) الشوامذ: الشائلات الأذناب – حول جمع حائل وهى التى لاتلقح.
(١١٤) ظلع البعيرُ غمز فى مشيه لداء فى قوائمه.

الباب الثانى

فى صدر الإسلام ، وعصر بنى أمية

ويتكون من فصلين ، أولها فى أسباب جمود الشعر فى العصرين المشار إليهما آنفا ، وثانيهما فى مظاهر ذلك الجمود فى العصر الأموى

الفصل الأول

فى صدر الإسلام :

إن الشعر مثل غيره من الفنون والآداب يركد ويكسد حين تركد الحياة ، ويخطو إلى الأمام حين تتطور الحياة وتتجدد بما يطرأ عليها من أحداث داخلية ، أو اتصالات خارجية .

فلننظر إلى الإسلام ، أيمكن أن يسمى حدثاً هاماً ؟ الذى لا شك أنه لم يكن حدثا وكفى ، بل ثورة ، بيضاء هادئة ما وجدّت إلى ذلك سبيلا ، حمراء صارمة ما أعوزها الصبر ، وأعيتها الحيل ، ثورة على الأوضاع الاجتماعية الظالمة ، والأنظمة السياسية البالية ، والخرافات الدينية المزرية .

لم تكن ثورة هوجاء أو عمياء ، بل ثورة متعقلة لها فلسفتها العملية والنظرية ومن خلفها كتاب مقدس يمثل أعظم ثورة أدبية أعلنها كتاب من الكتب فى أية لغة من اللغات . فأين أثر ذلك جميعه أو بعضه فى الشعر العربى ؟ إننا ننظر هنا وهناك فلا نرى شيئاً ، اللهم إلا مفردات أو شبه مفردات اقتبسها من القرآن حسان وإخوانه من شعراء الرسول ﷺ فى ردودهم على شعراء قريش ، ردود لا تكاد تختلف عن

الهجاء الجاهلي فى قليل ولا كثير. فأين الإسلام وتسامحه ، وأين صرخاته المدوية فى سبيل العدل والمساوة ، ألم يأخذ كل ذلك طريقه إلى شعراء الصدر الأول للإسلام ؟ بل أين تأثر الشعر العربى بالقرآن من حيث الأسلوب والمعنى ، أسئلة كثيرة سنحاول الإجابة عليها فيم يلى :

لم تكن العداوة بين الدعوة الإسلامية والشعر سرًّ خافيًا ، فقد كان الشعراء شديدى الوطأة على الرسول ﷺ ، آذوه فى شخصه وفى أهله ، وفى دعوته وكان يود مخلصًا لو هادنهم وهادنوه . ولذا بادر بإطلاق سراح أبى عزة الجمحى عندما وقع أسيرٌ فى يده يوم بدر دون فدية أو أذى ولكنهم أبوا إلا على أن يحتضنوا قضية الباطل فى تحمس وإخلاص . ومع أن مؤرخى الأدب ورواته قد تحرجوا[1] من تدوين تلك الهجاءات الشعرية التى شنها القرشيون على الرسول وصحبه ، فإننا لا نشك فى أنها كانت لاذعة ومقذعة وإلا استحل الرسول وهو الرؤوف الرحيم دماءهم ، وأعلنها حربا عليهم لا هوادة فيها ولا مهادنة فمنهم من قتل ومنهم من ألقى السلاح ، ورمى بنفسه بين قدمى الرسول عائذا تائبًا .

ولم يتخلف القرآن عن تلك الحرب فهاجم الشعراء فى أكثر من موضوع وقد رسم للشعر دستوراً لا يتعداه وحدًّا لا يتخطاه فى قوله « والشعراء يتبعهم الغاوون ، ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون ، وأنهم يقولون ما لايفعلون ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً ، وانتصروا من بعد ما ظلموا ، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون » .

وظاهر الآية أن الشعر بجميع أنواعه وألوانه غير مرغوب فيه إلا إذا جرى فى ركاب الدعوة الجديدة . وقد تقيد الصحابة بتلك الآية حرفيا ، فأقسم لبيد ألا يقول شعراً ووقف الباقون مواهبهم على خدمة الدعوة برد هجاءات قريش ؛ حتى إذا وضعت الحرب الأدبية بين قريش والرسول أوزارها لاذوا بالصمت . وهكذا

---

(١) من العجب أن القرآن نفسه لم يجد بأسا فى الإشارة إلى بعض ماينسبه المشركون إلى الرسول من الجنون والسحر والافتراء وعدم الانجاب . وبهذا صار الرواة ملكيين أكثر من الملك ، وضاعت تلك الآثار ، والويل للمغلوب .

خمدت أنفاس الشعر فى مكة والمدينة واضطربت قوائم عرشه فى باقى الجزيرة العربية . ولعل ، الحطيئة خير من يمثل محنة الشعراء فى تلك الفترة . فقد كان الشعر مرتزقه وصناعته ، أعد لها نفسه إعداداً كاملا ، فلما جاء الإسلام شغل الناس عنه وعن شعره بالدعوة الجديدة ، وبكتابها الذى فاق الشعر حتى كاد يكون سحراً ، فصبر مغيظاً محنقاً ، حتى إذا قامت فتنة المرتدين خب فيها ووضع ، وود أن لو عادت جذعة حتى يستعيد هو وأمثاله مجدهم السالف وسلطانهم الغابر ، وقد حفظ لنا التاريخ شيئاً من شعره فى ذلك الصدد وفيه يقول :

أطعنا رسول الله ما كان بيننا — فيالعباد الله ما لأبى بكر
أيورثها بكراً إذا مات بعده — لتلك لعمر الله قاصمة الظهر

ويفىء المرتدون إلى ظل الإسلام الوريف ، ويعود الحطيئة معهم وعباءة الجاهلية فوق كتفيه ، وقوافيه المسمومة تتطاير هنا وهناك تطاير المريش من السهام ؛ فيضطر عمر بن الخطاب إلى إلقائه فى السجن ، وتهديده بقطع لسانه حتى يكف عن الناس [٢] .

ولعل روح الدين الجديد الذى ينهى عن التعظم بالآباء ، ويحرّم الخمر ، وينفر من التعرض لأحساب الناس بالهجاء ، وأعراضهم بالتشبيب — لعل كل ذلك كان سبباً فى ضعف الشعر العربى بضعف الدوافع إليه . وإلا فماذا يقول الشعراء فى مدائحهم وقد صار أبو هريرة وابن مسعود وبلال وغيرهم من المغمورين أكرم على الله وعلى الناس ، بفضل تقواهم من صناديد قريش وقادة العرب . ثم فى أى شىء يخوض الشعراء ، وقد حرّمت أهم الموضوعات التى تثير الشعور وتعين عليه ، من شرب وغزل وهجاء ونحوه ، وإذا كان الحطيئة قد زار السجن بسبب الهجاء ، فإن أبا محجن الثقفى قد زاره أيضاً فى سبيل الخمر [٣] ؛ كما عزل نعمان بن عدىّ عامل على البصرة بأبيات قالها فيها [٤] .

(٢) تهذيب الكامل — ٢ — ج — ص ١١٠
(٣) عمر بن أبى ربيعة ص ١٦٨ .
(٤) عمر بن أبى ربيعة ص ٦٦ ومن قوله فيها:
من مبلغ الحسناء أن حليلها — بميسان يسقى فى زجاج وحنتم =

ولقائل أن يقول : فما بال الشعراء لم يتّجهوا إلى الحديث عن المبادئ التى جاء بها الإسلام ، من زهد فى الدنيا ، وعمل للآخرة وجهاد فى سبيل الله ؟ والجواب على دلك يتطلب الإلمام بعدة حقائق .

أولا : أن المسلمين فى الصدر الأول للإسلام كانوا على العمل أحرص منهم على القول . ولذا كانوا يرضون عواطفهم الدينية عن طريق الأول لا الثانى . وكانت فرص العمل أمامهم كثيرة بسبب الفتوح والغزوات .

ثانياً : أن سلطان الكتاب الجديد على نفوسهم كان أقوى من أن يدع لهم فرصة للتفكير فى سواء وماذا كان ينقص القرآن فى لغته وأسلوبه أو معانيه وأهدافه حتى يطلبوه فى سواه ؟ ألم تقل عنه قريش : إنه سحر حيناً ، وشعر أحياناً . إذن فبحسب المسلم أن يتلوه آناء الليل وأطراف النهار ، وله على تلاوته أجر كأجر الصلاة والصيام .

ثالثًا : إن لغة القرآن كانت مقدّسة ومعجزة ، ولعل الجيل الأول من المسلمين قد ظنُّوا أن مجرد التفكير فى محاكاتها ، أو النسج على منوالها يعد تحدياً لقول الله تعالى : « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » إذا عرفت كل ذلك أدركت لماذا صمت الشعراء ، وجمد الدم فى شرايين الشعر ثم أدركت بعد هذا لماذا لم يتردد صدى الثورة الإسلامية ، وروحها العالية فى الشعر وأخيراً أدركت لماذا لم يحاول المسلمون محاكاة أسلوب القرآن بما فيه من محسنات بديعية مختلفة وخصائص أخرى ليس هذا مكان تفصيلها .

= إدا شئت غنتى دهاقين قرية ... وصناجة تجذو على كل مسم
إدا كنت ندمانى فبا لأكبر اسقنى ... ولا تسنى بالأغر المتثلم
لعل أمير المؤمنين يسوءه ... تنادمنا بالجوسق المتهدم
فلما ملغ عمر ذلك قال· أى والله إنه ليسؤنى ذلك ، وعزله .

« العصر الأموى »

عرفنا أن الصبغة الغالبة على الشعر العربى فى صدر الإسلام كانت الصمت أو ما يشبه الصمت . سمه توقفاً عن الحياة والحركة ، أو جمودا أو ما تشاء من الأسماء . ولكن ذاك العصر قد انتهى وانتهت معه الظروف التى أدت إلى شحوب ضوء الشعر – فالناس لا ينظرون إلى الشعر على أنه رجس من عمل الشيطان ، ثم هم لا يقفون طويلا عند آيات القرآن ليروا ما تأمر به أو تنهى عنه(٥) . وقامت أحزاب سياسية مختلفة من شيعة وزبيريين وأمويين وخوارج . ووصل المسلمون فى الغرب إلى جبال البرانس وفى الشرق إلى الهند والصين وفى الشمال إلى أبواب القسطنطينية وسيطرت أساطيلهم على جزء كبير من مياه البحر الأبيض . واختلطوا بكثير من الشعوب والأجناس . وبالإجمال صارت لهم إمبراطورية بكل ما تتحمله هذه الكلمة من معان وأخيلة فأين كان الشعر العربى من كل ذلك أما زال يغط فى ذلك السبات العميق الذى سكن إليه خلال الصدر الأول للإسلام أم نهض منه ؟ وسؤال أشد من هذا أهمية ، وأكثر مناسبة لبحثنا(٦) . إلى أى شطر ولى الشعر وجهه أثناء تلك الحقيقة ؟ كان الشعر العربى إذ ذاك يقف فى مفترق الطرق . فكان يستطيع أن يأخذ عن الدول التى فتحها ، وبعضها كان أعرق حضارة من العرب ، وكان يستطيع أن يأخذ عن الدعوة الإسلامية وكتابها ، وقد كان يستطيع أشياء أخرى كثيرة إلى جانب ذلك ولكنه آثر أن يثب وثبة طويلة إلى الوراء فيعود إلى الشعر الجاهلى ينسج على منواله ، ويجرى فى ركابه بم تسمى مثل هذه الحركة إذن ؟ أنسميها جموداً لأنها إلى الوراء ، ولأن الشعر فيها جمد عند أصوله الأولى ، أم نسميها تقليداً لأنه أولع بتقليد الماضى نترك لك الخيار مرة أخرى فى أن تسميها بأحب الأسماء إليك ، وأعذبها وقعا فى آذان القارئين إلا التطور .

---

(٥) الإشارة هنا إلى قول الله تعالى « والشعراء يتبعهم الغاوون »

(٦) لأنا نبحث هنا عن تطور الشعر واتجاهاته لاقوته وضعفه .

فإن كنت لا محالة فاعل فلى معك حديث أرجو ألا يطول : وكأنى بك تنسبنى إلى الغلط أو المغالطة فيما أُدعيه من تشابه تام أو شبيه بالتام بين الأمويين والجاهليين ، نتيجة لتقليد هؤلاء لأولئك . وأنا أعلم أن كتابا قيما قد ألف فى هذا الموضوع (٧) وأن صاحبه قد أنفق كثيراً من وقته كى يقنعنا بأن تطوراً خطيراً قد أصاب الشعر العربى أثناء ذلك العصر ، ولكن ماذا أجداه ذلك المجهود الجبار ، والجبروت لا يغنى شيئاً ما دامت القضية من أساسها خاسرة .

لقد قيل لنا إن نقائض جرير مع الفرزدق والأخطل كانت بدعاً من الشعر ومن الهجاء وأن مثل ذلك أو قريباً منه يمكن بل ينبغى أن يقال فى غزل عمر بن أبى ربيعة ، وحديث ذى الرمة عن البادية ، واحتجاج الكميت لآل البيت ، ونحن نعتقد أن فى مثل هذا القول مخالفة كبيرة ، لا لرأى السابقين من النقاد فقط بل للشعر الأموى نفسه ، حيث لا ترى فارقا كبيراً بينه وبين شعر الجاهليين .

ولا نقول هذا لأننا ننكر إنكاراً تاماً أن هناك فروقا بين شعراء العهد الأموى وأسلافهم من الجاهليين ، وكيف يمكن هذا والحياة والأحياء فى حركة دائبة مستمرة . ولكن الذى نحب أى ننبه إليه هو أن تلك الفروق يسيرة وهينة بحيث لا ينبغى أن تسمى تطوراً فى الشعر العربى . وإنما كانت هينة لأنها لا تمس أحد الأصول التى يقوم عليها الشعر الجاهلى والتى أشرنا إليها من قبل .

والرأى الذى يمكن فى ضوئه تحديد ما بيننا وبين غيرنا من تقارب أو تباعد فى هذا الصدد هو أن الشعر العربى بعدما ثبتت أصوله فى العصر الجاهلى كان جديراً كأى كائن حى أن يتطور رويداً ، وأن يلائم دائما بين منهجه وبين الظروف التى مر بها . ولكن عواملا خارجية كانت تتدخل من حين لآخر ، لوقف هذا التطور أو تعويقه كما حدث فى صدر الإسلام وفى العصر الأموى أو لإذكاء روح التجديد والتطور كما تم فى عهد بنى العباس .

هذه كلمة عامة أحببنا أن نمهّد بها لحديثنا عن العصر الأموى ولو بقى أمامنا أمران :

---

(٧) التطور والتجديد فى الشعر الأموى للدكتور شوقى ضيف .

أما أولها : فبيان الأسباب التى جعلت شعراء هذا العصر يترسمون خطا الجاهليين .

وأما ثانيهما : فبيان مظاهر وأمثلة ذلك التشابه فى أشعارهم .

وسنبدأ بالأول منها .

لماذا اتجه شعراء ذلك العصر
إلى الشعر الجاهلى

« من دخل الكعبة فهو آمن ، ومن دخل بيت أبى سيفان فهو آمن » بمثل هذا التكريم حاول الرسول ﷺ أن يتألف قلوب بنى أمية النافرة ، وإنما نفرت لأنها كانت تعتقد أن ظهور أمر محمد سينال من ذلك المجد الذى أحرزوه فى أواخر العهد الجاهلى .

ودخل بنو أمية الإسلام حين دخل الرسول مكة فاتحاً ، أى أسلموا حين لم يكن من الإسلام بد ، وخضعوا لما خضع له بقية المسلمين من سيطرة عمر وأبى بكر راغمين ، حتى ولى عثمان الأمر وهو منهم ، وإن كان خيرهم ، وثبوا إلى السلطة فشاركوه فيها ، وبذلك استردوا بعض ما كان لهم من سلطان فى الجاهلية . وحين قتل عثمان كشفوا القناع عن حقيقة نواياهم وما قصة المطالبة بدمه إلا سلما ارتقاه معاوية إلى مآربه وأطماعه ، وما حرب الجمل وصفِّين وتقسيم صفوف المسلمين إلا ثمرة من ثمار تلك الأطماع . أطماع لم يبق فيها معاوية على روح الإسلام إلا بقدر ما أبقى به عليها خلفاؤه من بعده حين أباحوا المدينة ، وحرقوا الكعبة .

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر

وكأن محمداً لم يقف على منبرها منذ قليل داعيا إلى الأخوة والتسامح .

وإن دل كل هذا على شىء فعلى أن روح الإسلام لم تكن قد تغلغلت فى قلوب كثير ممن استظلوا بظله ، أو ساروا تحت لوائه . وبنو أمية دون شك من هؤلاء

الكثيرين . وكان معاوية بن أبى سفيان يمثل فى كثير من تصرفاته شيوخ القبائل أكثر مما يمثل الخليفة الإسلامى الدّارس لأحكام الدين ، الواقف عند حدوده فهو يجمع الأنصار حوله على حساب بيت مال المسلمين . ويتصرف فيه كما يتصرف فى ماله الخاص . وهو يسارع إلى التخلص من أعدائه السياسيين بالقتل ، وإن أعوزه الدليل على استحقاقهم له(٨) وهو يورث ابنه يزيد الملك بعد مسرحية سياسية تذكرنا بمسرحية التحكيم وبطلها عمرو بن العاص . لم يتعمق الإسلام إذن قلوب بنى أمية . ومازال بها بقية من جاهلية ، والذى يهمنا هو صدى تلك الروح الجاهلية فى أذواقهم الأدبية ، فقد جعلتهم دائماً تحن إلى الشعر الجاهلى ، وتعود إليه من وقت لآخر لكى تجد فيه مثلها العليا فى الشجاعة والكرم وما إليها ، وسيرتهم تؤيد ذلك وتؤكده . قال عبد الملك يوماً لجلسائه أى المناديل أفضل ؟ فقال قائل مناديل مصر كأنها غِرْقِئُ البيض . وقال آخر مناديل اليمن كأنها نور الربيع فقال : بل مناديل عَبدة بن الطبيب حيث يقول(٩) :

لما نزلنا نصبنا ظل أخبية ... وفار للقوم باللحم المراجيل
وَرْد وأشقر ما يأنيه طابخه ... ماغيّر الغلى منه فهومأكول(١٠)
ثَمّة قمنا إلى جرد مسومة ... أعرافهن لأيدينا مناديل(١١)

لم يكن عبد الملك إذن مترفا يفكر فى مناديل مصر أو غيرها وإنما كان فارسا محاربا يعيش بين مظاهر الحرب والفروسية بشخصه حينا ، وبخياله وتفكيره أحياناً ، وهو بعد ذلك بدوى يحب البساطة فيحن إلى ظلال الخيام ويهوى الصيد والتهام اللحم على عادة البدو نيئا أو كالنئ(١٢) .

ويمدحه عبيد الله بن قيس الرقيات فيقول .

يـأتلق التاج فوق مفرقه ... على جبين كأنه الذهب

(٨) من ذلك قتل حجر بن عدى وصحبه تاريخ الفتح الإسلامى للأستاذ فحر الدين ص ٩١
(٩) تهذيب الكامل ج - ١ - ص ٣٠٤ .
(١٠) أى يأنى كرمى يرمى: أمهل وانتظر.
(١١) ثم وثمة بفتح المثلثة اسم مكان بمعنى هنا وهناك .
(١٢) طعام نىء على وزن نيل : لم ينضج .

فيعترض عبد الملك قائلا :

تمدحنى بالتاج كأنى من ملوك العجم ، وتقول فى مصعب :

إنما مصعب شهاب من الله   تجلت عن وجهه الظلماء !

لم يكن عبد الملك إذن يريد أن يكون صورة من كسرى أو قيصر رغم عظم ملكهم وقدم حضارتهم فأين كان يجد مثله الأعلى ؟ إن موقفه مع كثير عزة يجيب عن ذلك السؤال ، فقد أخذ يوما يمدحه حتى إذا وصل إلى قوله

على ابن أبى العاصى دلاص متينة   أجاد المسدّى نسجها فأذالها

قال عبد الملك : كان الأعشى خيراً منك حين قال فى قيس بن معدى كرب .

وإذا تكون كتيبة ملمومة   خرساء يخشى الدار عون نزالها

كنت المقدَّم غير لابس جنّة   بالسيف تضرب معلما أبطالها

فقال كثير : وصف الأعشى صاحبه ياأمير المؤمنين بالخرق ، ووصفتك بالحزم(١٣) ولم يعلم كثير أن ممدوحه لم يكن يبالى أكان أخرق أم حازماً ، مادام الشعراء يخلعون عليه نفس تلك الصفات البدوية التى خلعوها من قبل على أبطال الجاهلية فأعجب بها أيما إعجاب وتاقت نفسه إلى أن يمدح بمثلها ، ومن أجل ذلك جاهد وخاطر وقاتل وقوتل .

وما قيل فى عبد الملك يمكن أن يقال فى الحجاج بن يوسف وغيره من ولاة الأقاليم ،ورؤساء الدولة . بل لعل الحجاج وأشباهه كانوا أشد جهالة من الجاهليين أنفسهم وما أظن أن كليبا وتأبط شراً أو سواهما من طغاة الجاهلية وذؤبانها حين ولى العراق فى خطبته المشهورة(١٤) .

وقد مدحته يوما ليلى الأخيلية فقالت .

إذا هبط الحجاج أرضا مريضة   تتبع أقصى دائها فشفاها

---

(١٣) نقد الشعر لقدامه بن جعفر ص ٢٢ .

(١٤) نعنى تلك التى بدأها بقوله:

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا   متى أضع العمامة تعرفونى

شفاها من الداء العضال الذى بها   غلام إذا هز القناة سقاها

فقال لها : هلا قلت همام . أتبصر الروح الجاهلية من ثنايا تلك المراجعة إنه لا يريد أن تلين لغة الشعر أو تتكسر ، ولذا يبادر بتقويم الشعراء كلما بدرت منهم بادرة فى ذلك الاتجاه ، ولسنا بذلك نحاول أن نحمّل رجل الدولة الأموية أوزار ذلك العصر ، ولا أن نلقى عليهم وحدهم ما كان فيه من ثبوت الشعر العربى على الأسس التى أرسل عليها الجاهليون بنيانه . وكل ما نود أن نقوله هنا : أن لهم نصيبهم الموفور وحقهم المعلوم من هذه التبعة وتلك الأوزار ، فالملوك وأنصاف الملوك كالسوق يحمل إليها الناس ما يروج فيها من بضاعة ، وأى غرابة فى ذلك ؟ ألم يكن الشعر إذ ذاك سلعة تباع وتشترى ، فلماذا لا يتحرى فيها الشعراء رضا المشترين ؛ وسترى حينما نعرض للشق[١٥] الثانى من هذا البحث مدى التشابه بين شعر هذا العصر والعصور السابقة .

على أننا نحسن الظن بشعراء هذه الفترة حينما ندعى أنهم كانوا بحاجة إلى من يشجعهم على أن يتخذوا مثلهم العليا من حياة الجاهليين ، أو ينسجوا على منوالهم فى أشعارهم فلسنا ندرى إلى أى حد ، أخلصت القبائل البدوية – وهم معظم العرب – للإسلام حينما علقت شارته على صدورها ولكن الذى نعلمه يقينا أن الرسول ألف قلوبهم بالمال حتى أسخط فريقا من الصحابة . وأن الله تعالى يقول فيهم «الأعراب أشد كفراً ونفاقا وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله والله عليم حكيم ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرما ويتربص بكم الدوائر ، عليهم دائرة السوء والله سميع عليم» ولا تكاد الآية الكريمة تستثنى من أهل الجزيرة العربية إلا سكان المدن الثلاث مكة والمدينة والطائف[١٦] وقد صدقتها الحوادث حيث ارتدت جميع القبائل العربية تقريباً عدا تلك المدن . على أن بعض القبائل رأت نفسها فى غير حاجة إلى المسالمة كقبيلة تغلب التى اعتزت بقوتها فرفضت الخضوع للإسلام ، وبقت على جاهليتها الأولى قلباً وقالبا ، ولنسأل أنفسنا عن كبار الشعراء فى ذلك

---

(١٥) مدى مظاهر التشابه بين الشعر الأموى والجاهلى

(١٦) الأعراب معناها البدو أو سكان البادية .

العصر ، أهم الأخطل وجرير والفرزدق ؟ إن الأول منهم لم يزر الإسلام قلبه ، إلا بقدر مازار الأعشى أو طرفة أو غيرهما من شعراء الجاهلية . أما الأخير فقد أوشك الإسلام أن يمس قلبه يوما من الأيام ، فحبس نفسه على القرآن يحفظه ، ولكنه ما كاد يعلم أن جريراً علا صوته فى هجاء قومه حتى فرّ من سجنه ، ولم يعد إليه حتى مات .

وبعد فقد كان أخذ الأمويين عن الجاهليين أمراً طبيعياً ، فهم يرون نموذجا يحتذونه ، وقد عجز شعراء الإسلام عن أن يبتدعوا لأنفسهم نوعاً جديداً من الشعر يستمدون من الدين روحه ، ومن كتابه لغته وأسلوبه ، بل عجزوا عن أن يتركوا فى الشعر أثراً يذكر إذا ذكرت الآثار . فلم يبق أمام الشعراء الأمويين إذن سوى الشعر الجاهلى يمدون أبصارهم إليه ، ويسيرون على ضوئه وهداه . أما الفتوح الأجنبية والاتصلات الخارجية ، فما كان لنا أن نتوقع منها أية مساعدة فى ذلك الاتجاه . حيث كانت آثارها لاتزال محصورة فى الناحية الحربية والإدارية ، فإن تجاوزت ذلك قليلا فإلى إقامة شعائر الدين وتدارس كتابه ، وحديث رسوله . أما فلسفة الإغريق وأدب الفرس والهنود فلم يكن قد وجد طريقة إلى اللغة العربية إذ ذاك وهكذا بقى الشعر الجاهلى وحده فى الميدان بلغته ومعانيه ، أو بعبارة أخرى بعناصره التى أشرنا إليها .

الفصل الثانى

ويبحث كما ذكرنا من قبل فى مظاهر جمود الشعر خلال العصر الأموى وإنما لم نفعل مثل ذلك بعصر صدر الإسلام ، لأن حركة الشعر قد توقفت فيه تقريبا .

ويشتمل هذا الفصل على ثلاث وسائل نتوسل بها إلى إبراز وجه الشبه بين الشعرين الأموى والجاهلى ، فى الأولى منها نورد نصا أمويا ونوازن بينه ،وبين أخيه الجاهلى ، وفى الثانية والثالثة نقيم البراهين على أن النقائض والغزل فى العصر الأموى كانا امتدادا لأشباهها فى الجاهلى . وإليك الآن النص الأموى ، وليكن قول جرير مادحا عبد الملك بن مروان :

أتصحو أم فؤادك غير صاح ... عشيةَ هَمَّ صحبك بالرواح (١)
يقول العاذلات علاك شيب ... أهذا الشيب يمنعنى مِراحى
يكلّفنى فؤادى من هواه ... ظعائنَ يجتز عن على رماح
ظعائن لم يدنَّ مع النصارى ... ولا يدرين ما سمك القُراح
وبعض الماء ماء رباب مزن ... وبعض الماء من سَبَخ ملاح
سيكفيك العواذلَ أرحبىٌّ ... هجان اللون كالفَرَد اللَّياح (٢)
يَعِزّ على الطريق بمنكبيه ... كما ابترك الخليع على القداح (٣)
تعزّت أم حزرةَ ثم قالت ... رأيت الواردين ذوى امتناح
ثقى بالله ليس له شريك ... ومن عند الخليفة بالنجاح
سأشكر إن رددت علىّ ريشى ... وأنبت القوادم فى جناحى
ألستم خير من ركب المطايا ... وأندى العالمين بطون راح

---

(١) ديوانه ص ٩٦ .

(٢) الأرحبى نسبة إلى أرحب من همدان — هجان اللون أبيض اللون الفرد اللياح . الثور الأبيض

(٣) يعز· يسرع ويشتد — الخليع : المقامر .

وقوم قد سموت لهم فدانوا   بدُهْم فى مُلَمِلَمِةٍ رَداحِ (٤)
أبحت حمى تهامة بعد نجد   وما شئٌ حميت بمستباحِ
لكم شم الجبال من الرواسى   ومعظم سيل مُعْتَلِجِ البطاحِ (٥)
دعوت الملحدين أبا خبيب   جماحاً قد شفيتَ من الجماحِ
فقد وجدوا الخليفة هِبْرِزِياً   ألفَّ العِيص ليس من النواحى (٦)
فما شجرات عصيك فى قريش   بعشّات الفروع ولا ضواحى (٧)

وأول ما يمكن أن نلاحظ عليها محافظتها على بناء القصيدة الجاهلية ، حيث أشار إلى انتقال الأحبة عن ديارهم ، وأثر ذلك فى نفسه وعقله ، ثم مال مع الصبا بالحديث عن حبه وهواه ، وتحدث عن رحلته إلى الخليفة معرّضا بتأميله وتأميل من خلفه فيه . وبعد هذه المقدمة التقليدية الدقيقة يأخذ فى غرض القصيدة الأصلى وهو المدح .

أما الطبع فيها فأقوى من أن يحتاج إلى إيضاح أو تبيان ، فالمتأمّل فى انسياب الأبيات وعذوبتها ، وأخذ بعضها بحجز بعض ، مع خلوها من التعقيد ومن المحسنات ومن التكلف ، لايشك فى أنها وليدة طبع خالص . وأما الموسيقية فتبدو فى خفة ألفاظها وتلاؤم بعضها مع بعض ، كما تبدو فى جمال البحر وعذوبة القافية . وكذلك يشيع فيها التصوير الذى يذكرنا بتصوير الجاهليين من حيث صلته بالبادية ونقله عنها ، ووقوفه عند المظهر الخارجى المحسوس ، مع قوة التشابه بين الأصل والصورة ، ترى ذلك فى تشبيهه لبعيره بالثور الوحشى ، وتشبيهه إكبابه على السير والجد فيه بأكباب اللاعب على قداحه . أليس جرير فى الصورة الأولى – وإن لم يشعر – يُصدر عن نفس العقلية التى أصدر عنها طرفة حين قال :

---

(٤) ململة : مجتمعة – رداح : ثقيلة لضخامة عددها .

(٥) معتلج البطاح : يفيض عليها فى قوة وغزارة

(٦) هيرزيا : خالصا من الشوائب – ألف العيص من دوحة ضخمة ، وأجمة متكاثفة (ليس من النواحى) أى انه من وسط الأجمة وليس من الأطراف .

(٧) العشة : الدقيقة الفروع – الضواحى : المكشوفة للشمس .

وبلاد زَعِـــل ظـــلمانهـــا كالمخاض الجُرْب فى اليوم الخِدَر

وفى الثانية يَصدر عن تلك التى يصدر عنها عنترة حين يقول :

وخلا الذباب بها فليس ببارح غَـرِدا كـفعل الشارب المترنم
هَـزِجـا يحك ذراعـه بذارعه قَدحَ المكبّ على الزناد الأجذم

وفى قصيدة جرير صورة ثالثة تلفت الأنظار وهى تشبيهه قريشا بأجمة يحتل بنو أمية وسطها وذلك حين يقول :

فـقـد وجدوا الخليفة هبرزيا ألف العيص ليس من النواحى
فما شجرات عيصك فى قريش بـعشـات الـفـروع ولا ضواحى

والمتأمل فى هذه الصور الثلاث يجدها منتزعة من البادية بما فيها من الثيران الوحشية والإبل والعيص وما إليها .

وبعد فهل تلاحظ معى هذه الروح وذلك الجو الجاهلى البدوى الذى يبدو فى قوله :

وقوم قد سموت لهم فدانوا بدهم فى ململمة رداح

ألا تراه يرجع بذاكرته وخياله إلى منظر ذلك البدوى المتقشف الذى يتسلق الجبال فى طلب صيد أو شبيه به ، ثم ماذا ترى فى ذكره نجدا وتهامة فى قوله :

أبحت حمى تهامة بعد نجد وما شىء حميت بمستباح

مع أنه يريد العراق والحجاز حيث يتحدث عن قتل عبد الله بن الزبير بعد مصعب أخيه ؟ ألست معى فى أنه يحن إلى نجد وتهامة لأنها أكثر دوراناً على ألسنة القدامى من العراق والحجاز . وفى تكراره للفظ الحمى واستباحته إشارة إلى ما كان يعتز به العرب من حماية حماهم والإغارة على من سواهم .

وأخيراً ينبغى أن نلاحظ أن الصفات التى خلعها جرير على عبد الملك هى نفس الصفات القديمة المرتبطة بحياة البادية من كرم وشجاعة وضخامة الأسرة وما إليها .

النقائض : إن نقائض جرير والفرزدق امتداد طبيعي للشعر القبلي فى العصر الجاهلى ، ولا تمثل تطورا فى الشعر الأموى .

ويرى بعض[8] النقاد أن نقائض جرير مع الفرزدق والأخطل تمثل تطوراً خطيرا فى الشعر العربى ، حيث يختلط الهجاء بالمدح ممتزجين بالتاريخ ، وحيث كانت تنشد فى مسارح أو شبه مسارح شعبية بقصد إلهاء الناس وإضحاكهم .

أما فيما يختص بالناحية المسرحية فى هذا الحديث أو تلك النقائض فكم كان يسرنا أن لو استطعنا قبولها كى ندفع عن الشعر العربى عيباً طالما أخذه الناس عليه ، وحتى نفاخر مع المفاخرين بأن المسرحية الشعرية عند جرير والفرزدق سبقت أختها عند شكسبير بعدة قرون . وأنا لنعجب حين يدعى الدكتور شوقى أن تلك النقائض لم يكن يقصد بها سوى إلهاء الناس وإضحاكهم مع أن فيها أقذع سباب عرفه الشعر العربى [9] ونحن لا نشك فى أن الدكتور قرأه . وأعتقد أنه كان ينم عن روح غير إسلامية وخصومة غير شريفة . وإذا أحببت أن تؤمن بما نقول فاقرأ ما كان من ذلك فى مأساة جِعْثِن مع بنى مِنْقَر وستجد إشارة إليها فى جميع نقائض جرير تقريباً مع القصد حيناً والإسراف مع الإقذاع أحياناً . وأما فيما يختص باختلاط المدح بالهجاء وامتزاج هذا وذاك بالتاريخ فقد سبقت منه أمثلة كثيرة فى العصر الجاهلى . فقد التقت الوفود فى مجلس النعمان بن المنذر وعمر بن هند من قبله ، بل وفى مجلس الرسول ﷺ وجرى بينها من الفاخرات مثلما كان يجرى بين جرير وصاحبه ، ولم تقم الدنيا لذلك ولم تقعد ولم يقل أحد أن الحَرِث بن حِلِّزة وعمرو بن كُلْثوم كانا بطلين من أبطال التمثيل ، ولعل الأخير كانَ أجدر من أى شاعر آخر بأن يكون بطل مسرحية حيث تناول سيف ابن هند من خلفه – على مايقال – وقتله به . ولعلك لا تزال فى شك ولو يسير مما نقول فإليك قصيدتين إحداهما جاهلية والأخرى أموية الأولى لعمرو بن كلثوم وفيها يقول مفاخراً بالسابقين من رجال قبيلته :

---

(٨) الإشارة هنا وفيما يلى إلى رأى الدكتور شوقى ضيف (التطور والتجديد ....) .

(٩) اقرأ رأى المؤلف بالتفصيل فى كتابه « جرير ونقائضه مع شعراء عصره »

وَرِثْنا مجد عَلقمة بن سيف   أباح لنا حصونَ المجد دينا
ورِثتُ مهلهلا والخيرَ منه   زهيراً نعم ذخر الذاخرينا
وعتّابا وكلثوماً جميعاً   بهم نلنا تراث الأكرمينا
وذا البُرَة الذى حُدِّثْتَ عنه   به نحمى ونحمى المجحرينا[10]
ومنا قبله الساعى كليب   فأى المجد إلا قد ولينا

والثانية لجرير وفيها يقول مخاطباً محمدَ بَن عُمَيْر بن عُطارد وكان قد رشا الأخطل كى ينصر الفرزدق عليه .

لما انهزمت كفى الثغورَ مشيَّع   منا غداة جبنتَ غيُر جبان[11]
شَبَث فخرتُ به عليك وَمعْقِل   وبما لك وبفارس العلهان
هلا طعنت الخيل يوم لَقيتها   طعنَ الفوارس من بنى عُقْفان
كذب الأخيطل إن قومى فيهم   تاج الملوك وراية النعمان
منهم عتيبة والمحُلّ وقَعنُب   والحنْتفَان ومنّهم الرِّدفان

ولاشك أنك ستدرك الشبه القوى بينهما من حيث التمدح بمن ظهر فى قبيلة كل منهم من أبطال والإسراف فى تعداد أسمائهم . أما إذا أردت أن ترى صورة من تعداد موقف الشجاعة هنا وهناك فاقرأ للحرث بن حِلّزة :

هل علمتم أيام يُنتهب النا   س غِواراً لكل حيّ عواء[12]
إذا رفعنا الجمال من سعف البحـ   رين سيراً حتى نهاها الحساء
ثم ملنا على تميم فأحرمـ   ـنا وفينا بنات قوم إماء
لا يقيم العزيز بالبلد السهـ   ـل ولا ينفع الذليلَ النجاء

ثم اقرأ لجرير :

أبنا عدلت بنى خَصَاف مجاشعا   وعدلت خلك بالأشد سنان[13]

(١٠) البرة بضم الموحدة: الحلقة ، والمجحرين المضطرين إلى الدخول فى الجحور لضعفهم

(١١) ديوانه ٥٧٠ – مشيع : موقد ، وغير جان صفة لمشيع

(١٢) المعلقات العشر.

(١٣) ديوانه ص ٥٧٠ ومابعدها والجزء الثانى من المنتخب ص ١١٠ وبعدها .

شهدت عشية رَخْرحان مجاشع بمجارف جحَف الخَزير بطان
وطئت سنابك خيل قيس منكم قتلى مصرعة على الأعطان
لله در يزيد يوم دعاكم والخيل مجلبة على حَلَان
لاقوا فوارس يطعنون ظهورهم نشط البزاة عواتق الخربان
إن رمت عبد بنى أسيدة عزنا فانقل مناكب يذبل وذقان

والبيت الأخير يذكرنا بقول ابن حلزة من نفس القصيدة السابقة :

وكان المنون تردى بنا أر عن جونا ينجاب عنه العماء
مكفهراً على الحوادث لاتر توه للدهر مؤيد صمّاء(١٤)

الغزل :—

فإذا تقدمنا إلى الغزل بقسميه وجدناه صورة غزل الجاهلية . فشعر عمر بن أبي ربيعة يكاد يختلط بشعر امرئ القيس . ولا عجب فى ذلك فقد تشابهت حياتهما شباباً وفراغاً وجدة فأخذ كل منهم يهذى بالمرأة وبنفسه . وإن من يتتبع شعر هذا وذاك لا يكاد يخطئ اتحاد العناصر الأساسيةَ لكلا الشعرين ضع إن شئت قول امرئ القيس :

سَمَوْت إليها بعد ما نام أهلها سُمُوّ حَبابِ الماء حالا على حال
فقالت سباك الله إنك فاضحى ألست ترى السُّمّار والناس أحوالى
فقلت يمينَ الله أبرحُ قاعداً ولو قطّعوا رأسى لديك وأوصالى
حلفت لها بالله حِلفة فاجر لناموا فما إن من حديث ولا صال
فما تنازعنا الحديث وأسمحتْ هصرتُ بغصن ذى شماريخ ميال
وصرنا إلى الحُسْنى ورقّ كلامنا ورُضْتُ فذلّت صبعةً أىَّ إذلال
فأصبحت معشوقاً وأصبح بعلها عليه القتام سيئ الظن والبال
يغطّ غطيط البكر شُدَّ خناقه ليقتلنى والمرء ليس بقتال

(١٤) وإذا قيل لنا : أن نقائض جرير وصحبه كانت تتحد غالباً فى الروى والبحر، قلنا وكذلك كانت أشعار قريش فى الرد على حسان وإخوانه ، ومع ذلك لم يقل أحد أنها تمثل تطوراً فى الشعر العربى . لاتحاد بحرها ورويها .

أيقتلني والمشرفي مضاجعي ومسنونة زرق كأنياب أغوال
ليقتلني أني شغفت فؤادها كما شغف المهنوءة الرجل الطالي

ضع هذا بجانب قول عمر :

فلما فقدت الصوت منهم وأُطفئت مصابيح شُبَّت بالعشاء وأنْوُر
وغاب قمير كنت أرجو غيابه وروَّح رعيان ونَوَّم سُمَّر
ونفَّضت عنى العين أقبلت مِشْية الـ ـحُبات وركنى خِيفة القوم أزْوَر
فحييتَ إذ فاجأتها فتولَّهت وكادت بمكنون التحية تجهر
وقالت وعضّت بالبنان فضحتنى وأنت امرؤ ميسور أمرك أعسر

ويمضى فى وصف ما كان بينهما حتى يسمعا القوم وقد استيقظوا فتضطرب وتسأله عما يمكن أن يفعلا فيرد بهذه الأبيات :—

فقلت أباديهم فإما أفوتهم وإما ينال السيف ثأراً فيثأر
فقالت : أتحقيقاً لما قال كاشح علينا وتصديقاً لما كان يؤثر

وانتهى الأمر بأن جاءت أختاها فأحطن به جميعاً وهيأن له سبيل الخلاص

والمتتبع للقصيدتين يرى الأخير يسير فى أعقاب الأول شبراً بشبر فكلاهما يدبّ إلى حبيبته ليلا كما تدب الذئاب وإن لم يفطنا إلى ذلك ، وكلاهما يتعرض للقتل ويتخطى الحراس ويحظى بما يريد . أليس فى هذا ما يكفى لبيان قوة الشبه بين أسلوبهما فى الغزل ومسلكهما فى الحياة ؟ قد يقال لنا كلا فإن عمر غيَّر منهج الغزل حين جعل نفسه محور عواطف المرأة وكان القدامى يفعلون عكس ذلك . ويكفى للرد على هذه الدعوى (١٥) أن تلفت النظر إلى البيتين السابع والعاشر من أبيات امرئ القيس لنعلم أن عمر حتى فى هذه كان تلميذاً وفياً لتعاليم أستاذه امرئ القيس .

ونزيد هنا كلمة قد لا ترضى بعض الناس ، وتلك أن عمر كان يحاكى امرأ القيس عامداً ويعارضه جاهداً ويحتال على نقل بعض ألفاظه وعباراته حتى يلفت النظر إلى تلك المحاكاة والمعارضة . وإلا فهل تظن أن قوله : « فاقبلت مشية

(١٥) راجع التطور والتجديد للدكتور شوقى ضيف .

الحباب » وقوله : « وقالت وعضت بالبنان فضحتنى وأشباهها » على كثرتها كانت مجرد مصادفة لم يفطن لها ولم يقصد إليها عمر؟ أكبر الظن أنه يغضب ويتألم لو علم أن القراء لايدركون الشبه القوى الواضح بينه وبين أستاذه رغم حرصه الشديد على إعلانه وإيضاحه ، فقد كانت إحدى أمانيه أن يرى الناس فيه صورة من أمير الشعراء ، ولا يضيره بعد ذلك أن يكون مقلداً أو مجددًا .

والغزل المسمى بالعذرى أو العفيف مفترى عليه أيضاً أو على الإسلام فيه ، ويشق علينا أن نرانا مضطرين إلى مخالفة رأى بعض أساتذتنا حوله (١٦) حيث ذهب إلى أن هذا النوع من الغزل كان نتيجة من نتائج « التقوى والزهد والتصوف والمثل الأعلى فى الحياة الخلقية ، وغير ذلك من الأمور التى جاء بها الإسلام » .

ولست أرى مبرراً لمثل هذه الدعوى ، فشعراء هذا الفن لم يكونوا زهادا ولا أنصاف زهاد ، لا فى حياتهم الخاصة ولا فى غزلهم وفوق هذا فالمرء لا يكون زاهداً فى أمور حتى يتمكن منه ثم ينصرف عنه ولم يكن الحال كذلك عند هؤلاء الشعراء . فقد تركوا من يحبون مرغمين ، فهذا الغزل نتيجة للحرمان لا للزهد .

ونرى أن كلا نوعى الغزل العذرى والحسى متفقان من حيث النشأة ، ففى كل منهما تتجه النفس البشرية إلى الاتصال بمن تحب من الجنس الآخر اتصالا تتحد دوافعه وأهدافه . ثم تختلف وسائله ونتائجه تبعا لاختلاف الشخصيات ، فيسلك أصحاب المذهب الحسى مسالك عملية يصحبها دائما النجاح فى الوصول إلى من يحبون ، بينما يتعثر أصحاب المذهب الآخر ، لأنهم فى الغالب ممن تغلب عليهم العواطف وتنقصهم الجرأة والمرونة والخبرة العملية وغير ذلك من الأمور التى تمكن المرء من بلوغ أهدافه ، وتحقيق مآربه فى الحياة ، فيقضون الحياة على أبواب معبد الحب حيارى ، لا يدرون ماذا يفعلون سوى ترتيل أناشيد الشوق والهيام ، وإراقة الدموع ممزوجة بالآلام ، مشيعة بالأنات والزفرات .

وهكذا نرى أن الفرق بين النوعين من حيث الوسائل والنتائج لا يعود إلى زهد أو

---

(١٦) الدكتور طه حسين(حديث الأربعاء) – ج ١ ص ١٨٥ .

ورع بقدر مايعود إلى اختلاف الشخصيات من عملية إلى عاطفية وجدانية .
ومما يؤكد براءة الإسلام من الغزل المسمى بالعفيف وجود أمثلة كثيرة منه فى العصر الجاهلى ، بحيث لايكاد المرء يرى فرقا بين هذا وذاك . ويباعد بين أصحاب هذا المذهب والزهد ، بل أدنى درجات التقوى ماعرف عن بعضهم من التعلق بنساء ذوات أزواج شرعيين وناهيك بمثل هذا العمل بعداً عن الدين والمروءة(١٧) .

وينبغى ألا ننسى أننا ننسى أو نتناسى فى نشوة مما يثيره الغزل العذرى فى أنفسنا من عواطف وانفعالات ما يختفى تحت هذا الغلاف الخارجى من ضعف واضطراب يؤكدان أن معظم أبطال هذا الفن لم يكونوا من ذوى الشخصيات القوية ، وإلا لما استرسلوا مع عواطفهم إلى هذا الحد المزرى . والشخصية المتزنة فيما نعتقد هى التى تزن الأمور بميزان العقل ، فإذا كانت فرص النجاح والظفر بمن تحب مواتية فيها وإلا بحثت عن مخرج سريع ، أما ترك نفسه نهبا للعواطف الجامحة وفريسة للاضطرابات النفسية المستمرة فمن علامات ضعف الشخصية . حقيقة أن الفن والأدب قد أثريا على حساب هؤلاء البائسين ثراء عريضا ولكن هذا لايعوقنا عن وضع الأمور فى نصابها .

وإن كل مايمكن أن نتتبعه من آثار الإسلام فى ذلك الفن لايخرج عن أمرين .

أولهما : إن الإسلام بما جاء به من قوانين صارمة فى تحديد فرص الاتصال بين الرجل والمرأة وتنظيم العلاقة بينهما تنظيما دقيقا قد أكثر من فرص الحرمان الذى يعد السبب الأول فى نشأة هذا النوع من الحب والغزل .

ثانيهما : ظهور بعض صور وأفكار جزئية منقولة عن الدين أو القرآن ربما دل ظهورها على تأثر الغزل بوصفه فنا شعريا بهما ، ولكنها لاتدل على تأثر عاطفة

---

(١٧) من ذلك قول كثير . –

يقولون ودع عنك ليلى ولاتهم   بقاطعة الأقران ذات حليل

الأمالى ح – ٢ – ص ٦٤ .

الحب نفسها بالدين ولا بالقرآن . ومن أمثلة ذلك تلك الصورة أو اللوحة البديعة التى عرضها كثير فى قصيدته .

ألا حييا ليلى أجد رحيلى وآذن أصحابى غداً بقفول

وفيها يصف قوافل الإبل متوجهة بالحجيج إلى مكة وقد سبق ذكرها(١٨)وقد حاول بعض الزملاء أن يتتبع أثر الإسلام فى الغزل العذرى فانتهى إلى رأى لايختلف كثيرا عن رأى الدكتور طه حسين ، وإن فصَّل أحدهما وأجمل الآخر.

وإنا لنرانا مضطرين إلى أن نستعرض ما ساقه الزميل من أدلة ذاكرين وجهة نظرنا فيها . وأول ما يلفت نظرنا من ذلك قوله · إن القرآن ضرب مثلا لعفَّة المؤمن فى قصة يوسف كمادعا إليها الرسول حين جعل أهل العفة من المحبين بين أولئك الذين يشملهم الرحمن بظله يوم لا ظل إلا ظله(١٩) .

ويضرب لنا مثلا على مدى تأثير أمثال هذه الآيات والأحاديث فى أهل ذلك العصر بما كان من عبد الرحمن القس حين قالت له سلامة : أنا أحبك . فقال : وأنا والله أحبك قالت : فما يمنعك ؟ فوالله إن الموضع لخال ؟ فأجاب سمعت الله تعالى يقول : « الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين » .

والذى نعتقده أن أثر الإسلام قد ظهر فى أهل النسك والورع من أمثال عبد الرحمن القس المذكور وعروة بين أذينة وأشباههم ولكن هؤلاء من سوء من الحظ لم يكونوا من كبار الشعراء ، ولم يخلدوا عواطفهم ، ولا تأثير الدين عليهم فى أشعار ، ولو فعلوا ذلك ، ولو قال قائلهم مثلما قال ابن فرج الجيّانى(٢٠) :

وطائعة الوصال عففت عنها وما الشيطان فيها بالمطاع
بدت فى الليل سافرة فبانت دياجى الليل سافرة القناع

(١٨) يمكن أن يضاف إلى ذلك فكرة الشهادة لمن قتل فى سبيل الله ، والقضاء والقدر

(١٩) ليلى والمجنون . للدكتور غنيمى هلال ص ١٢ .

(٢٠) نفح الطيب ج – ٢ – ص ١٤٣ .

وما من لحظة إلا وفيها إلى فتن القلوب لها دواعى
فلكّت النهى جمحات شوقى لأجرى فى العفاف على طباعى
وبت بها مبيت السقب يظما فيمنعه الكعام من الرضاع [٢١]

لقلنا إن الغزل فى تلك الفترة قد تأثر أو على الأقل يحتمل أن يكون قد تأثر بالإسلام فصار يدعو إلى إظماء النفس رغم سهولة المورد محافظة على الدين ، أما وإنهم لم يقولوا شيئاً من ذلك ، أما وزعيم تلك المدرسة يقول :

ألم تعلمى ياعذبة الريق أننى أظل إذا لم ألق وجهك صاديا [٢٢]

ويقول :

ألا ليت أيام الصفاء جديد ودهرا تولى يابثين يعود [٢٣]

فلا نستطيع أن ننسب إليه زاهداً ولا عفة إنه زهد العاجز وعفة اليائس ترى لو كان جميل محظوطاً مثل ابن أبى ربيعة تسعى النساء إليه أكان يفر منهن إلى قمة أحد الجبال ، ثم يرتل أناشيد العفة والزهادة ؟ ألا حدثنى بربك ماذا كان يستطيع أن يفعل جميل أكثر مما فعل لو أنه كان أشد كفراً بالله من فروعون وهامان . أكان يستطيع الحديث عن مقابلات وهمية ومغامرات خيالية ، وهو عاجز محروم لم يحظ بحبيبته يوما من الأيام كما حظى عمر بن أبى ربيعة ؟ إن كل ما بينه وبين ابن أبى ربيعة من فرق هو أن الحب عنده وقف عند مرحلة أولية رغم أنفه لسوء حظه وعجزه عن متابعة خطواته بتوفيق ، ولذا ظل يندب حظه ، ويتمنى أتفه أنواع الوصال من حبيبته ، أما الزهد وأما انتظار ثواب الله على هذا الجهاد الذى يتفضل به عليهم بعض أساتذتنا وزملائنا الكرام [٢٤] فلم يخطر لهم ببال ، فقد كانوا أعرف بأقدارهم ، وأعظم تواضعاً فيما بينهم وبين أنفسهم من أن يدعوا لها شيئاً من ذلك ولو عرف جميل أن بعض الباحثين يجعلون قوله :

---

(٢١) السقب ولد الناقة – الكعام مايشد به فمه .
(٢٢) الأدب العربى فى صدر الإسلام ص ٢٩٠
(٢٣) الأمالى ج – ٢ – ص ٢٩٩ .
(٢٤) ليلى والمجنون ص ١٢ .

يقولون جاهد ياجميل بغزوة وأىَّ جهاد بعدهن أريد(٢٥)
لكل حديث بينهن بشاشة وكل قتيل بينهن شهيد

دليلا على أنه كان يعتقد حقاً أنه سيموت شهيداً إذا سقط صريعاً تحت أقدام بثينة ، لتوارى حياء وخجلا من تلك السذاجة التى يرميه الناس بها لمجرد أنه شاعر يقول ما لا يعتقد كغيره من الشعراء . بل وربما تذكر شيئاً مخجلا بجانب ذلك وهو أن يذهب شباب المسلمين لجهاد عدوهم من الفرس والروم ، ويظل هو بجانب حبيبته يجاهدها حيناً ويجاهد نفسه أحيانا ثم يدّعى بعد ذلك أنه مسلم زاهد ، وأنه متأثر فى حبه وزهادته تلك بالإسلام . ويروى أصحاب هذا المذهب الأبيات التالية لكثير ويجعلها مظهراً من مظاهر التقديس الذى ظهر فى الغزل العذرى أبان العصر الأموى :

رهبان مكة والذين عهدتهم يبكون من خوف العذاب قعودا(٢٦)
لو يسمعون كما سمعت حديثها خروا لعزة ركعا وسجودا
والميت ينشر أن تمس عظامه مسا . ويخلد أن يراك خلودا

مع أن بعض هذه الأبيات يكاد يكون نقلا حرفيا عن قول النابغة فى المتجردة :

لو أنها عرضت لأشمط راهب يخشى ألا له صرورة متعبد
لرنا لبهجتها وحسن حديثها ولخاله رشدا وإن لم يرشد

أما الثالث فمأخوذ من قول المرقش الأكبر فى حبيبته :

أينما كنت أو حللت بأرض أو بلاد أحييت تلك البلادا(٢٧)

مما يدل على أن العذريين كغيرهم من أصحاب الغزل المكشوف كانوا ينسجون على منوال الجاهليين . ويحتذون مثلهم . وإذا كنا لم نتتبع تلك الشواهد والأدلة واحداً واحداً فما ذلك إلا لأن الأمر فى نظرنا أيسر من أن نأخذه بجد وجد .

---

(٢٥) نفسه ص ١٣ .
(٢٦) ليلى والمجنون ص ١٥ .
(٢٧) المفضليات ج ٢٠ – ص ٢٢١ .

على أننا نجد من بين شعر الجاهليين مقطوعات لا تقل فى نغمتها العفة الصابرة المحتسبة عن غزل العذريين. وإن شئت فاستمع لقول المرقِّش الأصغر :

وإنى لَأَسْتَحِيِىْ فطيمة جائعا خميصا وأستحيي فطيمة طاعما[28]
وإنى لأستحييك والخَرْق بيننا مخافة أن تلقَىْ أخا لى صارما
وإنى وإن كلَّت قَلُوصى لراجم بها وبنفس يافطيم المراجما
أفاطم إن الحب يعفو عن القلى ويجشم ذا العرض الكريم المجاشما
ألا ياسلمى بالكوكب الطلق فاطما وإن لم يكن صرف النوى متلائما
أفاطم لو أن النساء ببلدة وأنت بأخرى لاتبعتك هائما

إننا نظلم الجاهليين كثيراً ، ونعتقد أنهم كانوا جميعا طلاب متعة وأصحاب لهو ، مع أن شاعراً من شعرائهم ، بل صعلوكا من صعاليكهم ، قد ترك لنا صورة المرأة المثالية عنده فإذا بها تفوق فى الدلالة على عفته وعفتها ما رسمه لنا جميل زعيم مدرسة الغزل العفيف فى العصر الأموى حين قال :

ألم تعلمى يا أمَّ ذى الودع أننى أضاحك ذكراكم وأنت صَلُود

أما الشاعر الجاهلى فهو الشَّنْفَرَىَ ، وأما أبياته فتلك التى يقول فيها :

لقد أعجبتنى لاسقوطا قناعها إذا ما مشت ولا بذات تلفُّت[29]
تحلُّ بمنجاة من اللوم بيتها إذا ما بيوت بالمذمة حُلَّت
كأن لها فى الأرض نِسْيا تقصّه على أمِّها وإن تكلمك تَبلت
أميمة لا يُخزى نثاها حليلها إذا ذكر النسوان عفت وجلَّت
إذا هو أمسى آب قُرَّة عينه مآب السعيد لم يَسل أين ظلت
فدقّت وجلّت واسبكرت وأكملت فلو جُن إنسان من الحسن جُنَّت

وأخيراً نحب أن نعرف موقف الزهاد والمتصوفين من الأبيات التالية لجميل

---

(٢٨) مفضليات ح - ٢ - ص ٤٦ .
(٢٩) نفسه ح - ١ - ص ١٠٧ .

سبتنى بعينى جُؤْذَر وسط ربرب   وصدر كفاثور اللجين وجيد(٣٠)
تَزِيف كما زافت إلى سَلِفاتها   مباهيةً طيَّ الوشاح مَيْود
إذا جئتها يوماً من الدهر زائراً   تعرض منقوض اليدين صَدود
يصدّ ويغضى عن هواى ويجتنى   ذنوباً عليها إنه لعَنود
فأصرمها خوفاً كأنى مجانب   ويغفل عنا تارة فنعود

ضع البيت الثانى من هذه المقطوعة بجانب أبيات الشنفرى ، وانظر إلى ما فى هذه من فتنة وإغراء وعبث بجانب ما فى تلك من جد وعفة . وأخيراً ليت شعرى من هذا الذى كان يحرسها من شيخ الزهاد ، لعله زوجها الشرعى ، ولا ينبغى أن نعجب أو نأسى لما ناله من أذى ، فإن حظه على أية حال كان خيراً من حظ زوج عزة الذى يقول فيه شريكه أو منافسه فيها كثير :

يكلفها الخنزير شتمى وما بها   هوانى ولكن للمليك استذلت(٣١)

وأخيراً أرجو أن يتسع صدر القارئ الكريم لى إذا قلت :إننى لا أرى بل لا أرضى أن يكون بين مثل هذا الحب والإسلام صلة ما من قرب أو بعد . إنه مثل حب عمر ابن أبى ربيعة تماماً سوى أن أحدهما بلغ غايته والآخر تعثر دونها .

أما ذلك العفيف الذى يمكن أن نلمس أثر الإسلام فيه فهو حب الزهاد من امثال عبد الرحمن القس كما أسلفنا .

وأخيراً نحب أن ننّبه القارئ إلى أن واجبنا وأدلتنا على قرب الشعر الأموى من الجاهلى وبعده عن العباسى لم ينتهيا بعد . وكل ما أسلفناه إنما هو مجرد إزالة لما قد يعلق بالأذهان من قول القائلين بتطوّر الشعر العربى فى العهد الأموى .

وسنتخذ من هذه القضيّة موقفاً إيجابياً بنَّاء حين نتحدّث عن تحوّل الشعر العربى عن أصوله الأولى خلال العصر العباسى ذاكرين بعض النماذج التى تؤيّد نظريتنا من الشعر الجاهلى والأموى القديم ، والعباسى الحديث .

---

(٣٠) الأمالى ج – ٢ – ص ٢٩٩ .

(٣١) ذكر صاحب الأغانى فى سبب هذا البيت أن روح عزة ثار عليها حين عرف أنها استعانت به فى بعض أمورها فكلفها سبه(الأغانى ج – ٨ – ص ٣٧ .

الباب الثالث

مقـدمة

العصر العباسى

سمع ابن الأعرابى أبا تمام ينشد شيئا من شعره فقال: «إن كان هذا شعراً فكلام العرب باطل[1] » وهذه العبارة على مافيها من بساطة ومبالغة عذبة تصوّر رأى ذلك العصر فى شعر أبى تمام وكل من سلك مسلكه من الشعراء فشعره فيما نعتقد يمثل حركة انفصال عن القديم أو ثورة عليه ، بدأت فى أوائل العصر العباسى ثم مازالت تستشرى وتستفحل ، وتقوى وتعنف ، حتى كان لها فى أذهان الناس ومخيلاتهم ذلك الصدى العميق الذى تصوره العبارة السابقة .

وبدء حركة الانفصال عن القديم مع قيام دولة بنى العباس ليس مجرد مصادفة ، ورَبْطُنا بين الحديثين أو الحركتين ليس من قبيل التأريخ بالحوادث العامة بل كانت هذه ناشئة عن تلك ، ومرتبطة بها أوثق ارتباط ، ولكن الإنسان دائماً ينسى الأحداث الماضية التى ما تزال تتضاءل وتتلاشى على مر الأيام ، حتى يضعف إحساسه بخطورتها ، وحتى تبدو كأنها شىء لايستحق الذكر ، فمن منا يذكر شيئا عن الحروب الصليبية وأهوالها أو بعض أهوالها ومن منا يذكر الطوائف المختلفة التى ناهضت الخلافة الإسلامية فى جميع عصورها من خوارج ، وزَنْج وقرامطة ؟ بل ومن يذكر أو يتخيل أن الأمة العربية قد شملها أثناء القرن الثانى للهجرة – على أيام المهدى والرشيد والمأمون – من التحول السياسى والتطور الاجتماعى ، والتقدم الثقافى مالم تشهد له مثيلا فى عصر من العصور . وبوصفنا مؤرخين للأدب سيكون من واجبنا استعراض هذه الظواهر الثلاث مع الإشارة إلى صداها فى الشعر العربى .

أما التحول السياسى : فأهم مظاهره تغلغل النفوذ الفارسى فى شئون الحكم .

---

(١) الموازنة ص ٨ .

فقد قامت الدولة العباسية على أسنة الرماح الزاحفة من الشرق بقيادة أبى مسلم الخراسانى. فلم يكن هناك بد من مجاملة هذا الشريك الجديد ، فصار منهم قواد الجيوش وحكام الأقاليم والوزراء والحجاب . وما مقتل أبى مسلم على يد المنصور والبطش بالبرامكة فى عهد الرشيد إلا محاولة جريئة من ملوك العرب لوقف النفوذ الفارسى المتحفز للطغيان والسيطرة .

وقد كان لهذا النفوذ السياسى صداه فى الحياة الأدبية ، فقد أضعف العصبية لكل ماهو عربى من أشعار وآداب وتقاليد ، وسنرى بعد قليل أن ذلك قد كان ضربة قوية لبناء القصيدة العربية . كما ارتفعت أصوات الموالى بمفاخرة العرب فنشأ عن ذلك شعر الشعوبية .

وقد صحب هذا النفوذ السياسى نفوذ ثقافى اجتماعى ، استحث خطوات الشعر العربى نحو التطور والتحول . وقبل ذلك كان اتصال العرب بغيرهم من الدول محصورا فى دائرة ضيقة لاتتجاوز الناحية الحربية والإدارية ، وإزالة الصعوبات التى قد تعترض نشر الدين فى أبسط مظاهره وتعاليمه ، أما فى هذا العصر فقد صار التفاعل بين العرب والدول الطارئة على الإسلام قويا ولاسيما الدولة الفارسية التى أعطت العرب وأخذت منهم الكثير فى النواحى الدينية والأدبية (٢) .

وإذا كان تأثير الفرس قد انحصر فى الناحية الأدبية . فإن تأثير الروم كان أقوى وأعمق فقد أخذ العرب عن الروم علومهم المختلفة من منطق وفلسفة وماإليها . وقد طبعت هذه العلوم الدخيلة مناهج البحث فى العلوم الشرعية بل واللغوية بطابع جديد مالبث أن تسرب إلى الشعر فظهر واضحا فى إنتاج هذا العصر . أما من الناحية الاجتماعية فقد تغير وجه الحياة أمام العرب تغيرا كبيرا فاتخذوا القصور الشماء ، والرياض الفيحاء ، واستمتعوا بكل مانستمتع به ، أو بعبارة أدق يستمتع به المترفون فينا من ألوان الترف والنعيم وغزتهم الدول الشمالية بسيل جارف من الجوارى والغلمان ذوى الجمال البارع ، فكان منهم الخدم والمغنيات فى

---

(٢) نعنى بالناحية الدينية أخذ الفرس الإسلام عن العرب وإعطائهم مذهب مانى ومزدك .

القصور ، وسقاة الخمر فى الحانات ، وطوائف أخرى كثيرة فى أماكن مشابهة وقد لقى منهم المجتمع بلاء كبيرا ، فقد كانوا يفوقون العرب رقة وجمالا ، وحذقاً لفنون الإغراء . وكان تأثيرهم يتفاوت باختلاف الظروف ، فسلك أهل الدين والشرف فى الاتصال بهن مسلكا شرعيا عن طريق الشراء والمتعة أو الزواج ، أما المتحررون أو المتحلّلون من الشعراء ومن لّف لِفَّهم ، فقد أعلنوها حربا صريحة على المجتمع والتقاليد ، وراحوا يهذون فى أشعارهم بالغزل فى هؤلاء الغلمان غزلا لايقل عن تشبيب امرئ القيس بفاطمة أو المرقش بسلمى .

ويغفل المؤرخون عادة أمرين أو تيارين خطيرين التقيا معا وتعاونا سويا على خلق هذا النوع الشاذ من السلوك وأنواع أخرى بجانبه لاتقل عنه غرابة وإن تزيّت بأزياء مغرية ، وتسمّت بأسماء لامعة كتزاهد أبى العتاهية ، وتشاؤم ابن الرومى وثورة أبى العلاء . ونعنى بهذين التيارين :

أولا : خيبة آمال أهل العراق وهزائمهم المتوالية . فقد ضحّوا بما لم يضح به شعب فى سبيل نقل الأمر من يد قتلة الحسين إلى أهله وعشيرته . ولكنهم تبينوا أخيرًا أن مجهوداتهم ذهبت مع الريح ، وأن بنى العباس استبدوا بالأمر دون بنى على ، وهم بعد ذلك لايقلون عن سلفهم من بنى أمية جرأة على الله ، واستهانة بحفدة رسوله (٣) ﷺ .

ثانيا : تعاليم مانى ومزدك التى دخلت بغداد تحت ظلال رايات أبى مسلم ومن معه ، فصادفت بيئة صالحة ، وأمة سيئة الظن بنفسها وبولاة أمورها ، يائسة من مستقبلها ، شاكة أو كالشاكة فى دينها .

وكان أن انقسم الناس حيال هذين التيارين أو تحت تأثيرهما إلى طوائف مختلفة فمنهم من لبس سلاحه ، واستأنف جهاده ضد العباسيين كما كان يفعل مع سلفهم ، ومنهم من آثر العافية ، واستعمل التقية ، فأقام ساخطا متربصا ،

---

(٣) قام أهل العراق بثورات مختلفة هدفها نقل السلطان إلى بنى على . ولكن بنى العباس انضموا إلى صفوف الدعوة السرية واستطاعوا بمهارتهم وخداعهم أن يستولوا على السلطة دون أبناء عمومتهم . ولما حاول بنو على اغتصابها منهم قابلهم بنو العباس بقسوة وعنف أنستهم وأنست شيعتهم كل مارأوه من نكال أيام الأمويين .

وفريق ثالث غلب عليه الشقاء فقويت عنده عوامل الشك، فأقبل على الحياة يغترف من معينها غير مفرق بين حلال وحرام ، مستمتعا بحاضره مطرحا وراء ظهره ما عسى أن يأتى به المستقبل من ثواب أو عقاب . وإلى الفريق الثانى ينتسب الساخطون من الشعراء أمثال أبى العتاهية وابن الرومى وأبى العلاء . وشعر الأول كان يلقى من بقية الطائفة عطفا وتأييدا ظاهرا ومستورا . وإلى الفريق الأخير ينتسب بشار بن برد وحماد عجرد ومطيع بن إياس ووالبة بن الحباب والحسين بن الضحاك وورث أدبهم جميعا بما فيه من خير قليل وشر كثير أبو نواس .

ونكتفى بهذه المقدمة العامة فى إيضاح ماطرأ على الحياة خلال هذا العصر من تطور وتحول على أن نعود إليها مع شيء من التفصيل كلما عرضنا لفن من الفنون أو ظاهرة من الظواهر الأدبية التى تأثرت بذلك التغير والتطور .

الفصل الأول

بنـاء القصيـدة

آثرنا أن نبدأ بالحديث عن بناء القصيدة ، وإن لم يكن أخطر ما أصاب الشعر من تطور لأنه كان أسبق ظهوراً من غيره ، ولأن حامل لواء الدعوة إليه لم يصانع أو يداهن فى نشر مبادئه بل رفع عقيرته بها ما وسعه ذلك .

وقد عرفنا فيما سبق صورة القصيدة العربية فى العصر الجاهلى ، وعرفنا أنها تتكون من مقدمة وغرض ، وأن المقدمة تجمع عادة بين الحنين إلى الأحبة الراحلين والبكاء على ديارهم إلى آخر ما قلناه هناك . وقد ظل لهذا الوضع قداسته طوال العصر الأموى فلم يمار فيه أحد من الشعراء ، بل على العكس من ذلك كانوا يحاولون تأكيد ولائهم لسلفهم من الجاهليين بنقل بعض مطالعهم نقلا حرفيا . وما زال جرير يتحرّى حتى اختار لكبرى قصائده مطلعًا جاهليًّا فقال .

لمن الديار ببرقة الرَّوْحان   إذ لا نقيس زماننا بزمان

أخذه من قول عبيد بن الأبرص فى مطلع إحدى روائعه :

لمن الديار ببرقة الروحان   درست وغيرها صروف زمان

وأخذه الأخطل أيضاً فقال :

لمن الديار بحايل فوعال   درست وغيرها سنون خوال

وشبيه بهذا ما فعله الأخطل حين قال يمدح بشر بن مروان :

صحا القلب عن أروى وأقصر باطله
وعاد لـه من حب أروى أخابله

أخذه من قول زهير يمدح حصن بن حذيفة بن بدر الفزارى :

صحا القلب عن سلمى وأقصر باطله
وعُـرِّى أفـراس الصبا ورواحله[1]

والناس يخطئون إذ يظنون أن مثل هذا من الشعراء مجرد عبادة للقديم ، والحقيقة أن الشاعر يستغل إعجاب الناس بروائع الفن القديم التى بهرت عقولهم ولعبت بمشاعرهم وعواطفهم حينًا من الدهر ، فيجعل فى نتاجه شبهاً منها كى يضفى عليه شيئا من قداسة القديم وروعته . وهم يصيبون فى تقديرهم هذا فنحن نطير إعجابا بكل خطيب أو ممثل أو مغن يبدأ تمثيله أو غناءه بما يشعرنا أنه تقمّص شخصية بطل معروف من أبطال التمثيل أو نجم لامع من نجوم الغناء . ولهذا يخطئ النقاد حين يضعون هذا الاقتباس العلنى فى باب السرقات . دارت الأيام بعد ذلك دورتها وتحولت الخلافة إلى بنى العباس ، حاملة على جناحيها كل ما أشرنا إليه من تطورات ، وهناك فى حانة من حانات بغداد لعب الشيطان أو لعبت الخمر برأس طائفة من المتحررين الذين أشرنا إليهم سابقاً فأقبلوا على ما يقبل عليه أمثالهم فى كل عصر وبلد من استعراض الحياة الأدبية حولهم ، وجرّهم الحديث إلى الأطلال والدمن ، فناقشوها فى جو مطلق ، وبعقلية متحررة وانتهوا فيها إلى رأى اتخذ صورة شعرية فى قول أحد أفرادها :

لأَحسَنُ من بيد يحاربها القطا ومن جبلى طىّ ووصفكما سلْعا[2]
تلاحظ عينى عاشقين كلاهما له مقلة فى وجه صاحبه ترعى

---

(١) وربما تجاوز الشاعر هذا القدر اليسير من الاقتباس كما فعل الكميت حين قال .

قف بالديار وقوف زائر وتأن إنك غير صاغر
ماذا عليك من الوقوف بهامد الطللين داثر
درجت عليه الغاديات الرامحات من الأعاصر

بعد قول امرئ القيس بن عابس .

قف بالديار وقوف حابس وتأن إنك غير آيس
ماذا عليك من الوقوف بهامد الطللين دارس
لعبت بهن العاصفات الرائحات من الروامس

الوساطة ص ١٩١ .

(٢) الأغانى ج – ١٢ – ص ١٠٣

وسرعان ما تلقف أبو نواس هذه الهمسات فكون منها مذهبا جديداً أخذ يدعو له ويناضل عنه حتى نسب إليه وعرف به .

ويتلخص هذا المذهب فى استهجان المقدمات الجاهلية بكل ما تشتمل عليه من وقوف على ديار الأحبة ، أو تعرض للصحراء ، بل وتشبيب بالمرأة وحجته فى ذلك أن الحياة قد تغير وجهها ، حيث هجر العرب البادية ، واستقروا بالمدن ، وصار الشاعر يقيم على بعد خطوات من الممدوح ، فالعودة إلى البادية وأطلالها والصحراء ورمالها إذ ذاك ضرب من العبث المضحك ، أو الضحك المزرى . والمتتبع لشعر أبى نواس يرى مذهبا أحسن صاحبه تحديده والاحتجاج له . ولكى نوفّى هذا البحث حقه يجب أن ننظر إليه من النواحى التالية :

أولاً : سبب تحمس أبى نواس لهذا المذهب وبلائه فى سبيله ، بلاء انفرد به عن شعراء عصره بل وشعراء العربية جميعًا .

ثانيا : احتجاجه لمذهبه..

ثالثا : مدى تقيّده فى شعره برأيه ومذهبه .

رابعا : مدى تأثيره أو تأثير دعوته فى شعراء عصره ، ومن جاء بعدهم .

أما الأسباب التى دفعت بأبى نواس إلى تكوين هذا المذهب(٣) فينبغى أن نتلمسها فى شخصيته . وهى شخصية معقدة متعددة النواحى ضللتْ الباحثين ، حتى حاول بعضهم أن يطبق عليها علم النفس فأجهد نفسه وأجهد الدارسين معه(٤) ولكننا نفضلُ أن نفهمه فى ضوء أحاديثه وتصريحاته . ولعلنا لا نكون بمعزل عن الحقيقة إذا ربطنا بين هذه الثورة الفنية ونقمة الشاعر على العرب بعامة وعرب

---

(٣) نعنى بذلك تعصبه ضد ذكر الأطلال مع أن كثيرا من معاصريه كانوا يشاركونه هذا الرأى ، فلم يشغلوا أنفسهم أو الناس به مثلما فعل هو . بل لانكون مبالغين إذا قلنا أن الشك فى جدوى مثل هذا البكاء كان أقدم من أبى نواس وعصره ، من هذا قول الأعشى

ما بكاء الكبير بالأطلال ... وسؤالى وما يرد سؤالى

دمنة قفرة تعاورها الصيف بريحين من صبا وشمال

(٤) الأستاذ عباس العقاد .

الشمال بخاصة لأسباب سنشرحها فيما بعد(٥) . وقد رأى أبو نواس فى التغنى بتلك الأطلال تمجيداً وذكرا للعرب وباديتهم وآثارهم وتقاليدهم ، فأعلنها ثورة على الأمرين جميعاً . ومما يؤكد وجهة نظرنا هذه ربط الشاعر بينهما فى قوله :

دعِ الرسم الذى دثرا ... يقاسى الريح والمطرا(٦)
وكن رجلا أضاع العلـ ... ـم فى اللذات والخطرا(٧)
ألم تر مابنى كسرى ... وصـــابور لمن غبرا
منازه بين دجلة والـ ... ـفرات أحفّها الشجرا
بأرض باعد الرحمـ ... ـن عنها الطَّلْح والعُشَرا
ولم يجعل مصايدها ... يرا بيعا ولا وجرا
ولـــكن حور غزلان ... تراعى بالملا بقرا

ثم يتهكم بالمرأة البدوية ويفضل الغلمان عليها فيقول :

تعد الشِّيح والقَيْصو ... م والقَفْعاء(٨) والسَّمُرا
جَنِّى الآسِ والنِّسريـ ... ـن والسُّوسان إن زهرا
ويغنيها عن المرجا ... ن أن تتقلد البعرا
وتغدو فى برا جدها ... تصيد الذئب والنمرا
أمـــا والله لا أشرا ... حلفت به ولا بطرا
لو أن مرقشا حىّ ... تعشق قلبه ذكرا
كأن ثيابه أطلعـ ... ـن من أزراره قمرا
يزيدك وجهه حسنا ... إذا ما زدته نظرا

أما الحجج التى يقدمها شاعرنا بين يدى دعواه ، فقد مر بعضها فى الأبيات

---

(٥) كان أبو نواس متحيزاً لعرب الجنوب لأن ولاءه فيهم .
(٦) ديوانه ص ٠٦٤ .
(٧) لعل أبا نواس فى هذا البيت يشير إلى مافى دعوته من مخالفة لدراسته المستفيضة لأشعار العرب دراسة كانت تفيده كثيراً لو أنه أحسن استغلالها .
(٨) القَفْعاء : مسك البر (مخصص ج ١١ - ص ١٩)

السابقة حيث يسخر من تلك الأطلال التيأطال العرب النوح عليها مع أنها لا تعد شيئاً بجانب ما تركته الدول الأخرى من آثار ، ويضرب مثلا لذلك ببلاد فارس ومنازهها الجميلة ، وسهولها الخصبة ، مقارناً بينها وبين بادية العرب التى لا ترى فيهَا من النبات سوى الأعشاب الشوكية ، ولا من الحيوان سوى الوجر واليرابيع ، وغيرها من الحيونات والنباتات التى يصرّ شعراء العرب على التغنى بها ، وكان جديراً بهم أن يستحوا من ذكرها ، أو العودة بأذهانهم إلى ماضيها البغيض .

وكأنه لم يقنع بمهاجمة الأطلال وحدها بل هاجم الغزل أيضاً ولم يعدم قولا ، فقد وصف البدوية بالتخلف عن ركب المدنية ، مما يضعف ناحية الإغراء فيها ، وبرغم بعد ذلك أن الغلمان الوافدين إلى الجزيرة العربية من بلاد الترك والفرس أقدر على خلب العقول وتصيد الألباب منهن ، حتى أن مرقشاً لو تأخر به الزمن إلى العصر العباسى لما ترك هؤلاء الغلمان فى قلبه فضلا لسلمى ولا ليلى .

ويقول فى مطلع قصيدة أخرى يمدح بها العباس بن عبيد الله بن المنصور :

ديار نوار ما ديار نوارْ ... كسونك شجواهن منه عوار[٩]
يقولون فى الشيب الوقار لأهله ... وشيبى بحمد الله غير وقار
إذا كنت لا أنفك عن طاعة الهوى ... فإن الهوى يرمى الفتى ببوار
فها إن قلبى لا محالة مائل ... إلى رشأ يسعى بكأس عقار
كأن بقايا ما عفا من حَبابها ... تفاريق شيب فى سواه عذار

فهو يبدأ قصيدته متهكما من نوار وديارها ، متسائلا عن مدى ما لها من خطورة استحقت عليها كل ذلك الاهتمام ، ويلفت النظر إلى أنها حجارة صماء لا تعى ولا تعقل ، تثير فى أنفسنا أشد العواطف مرارة ، وفى الوقت نفسه لا تشاركنا فى حمل شىء منها .

ثم يعلن بعد ذلك اطراحه للوقار فى سبيل ملذاته ، كما أعلن فى القصيدة السابقة

---

(٩) ديوانه ص ٧٢ .

إضاعته للعلم فى سبيلها أيضاً . ومن فوق منارة عالية[10] ، يرسلها صرخة مدوية فى الآفاق ، فيخبرنا بأن آماله وأمانيه قد تبلورت فى أمرين وإن شئت فى أمر واحد ، غلام كأنه الظبى الغرير يسعى بكأس من الخمر ، وما دامت تلك هى أمانيه فى الحياة ، وشغله الشاغل ، فلماذا لا يكون من حقه أن يبدأ بها شعره ، وأن يسترضى بها شيطانه ، وإذا كان القدامى قد بدأوا بالأطلال أو غيرها ، فلأن ذلك كان يستهوى عقولهم ، أما هو فهواه وعواطفه تدور حول أمور أخرى .

ولعل الأبيات التالية من خير ما قاله أبو نواس فى الدفاع عن مذهبه .

مالى بدار خلت من أهلها شغل ... ولا شجانى لها شخص ولا طلل[11]
ولا رسوم ولا أبكى لمنزلة ... للأهل عنها وللجيران منتقل
ولا قطعت على حرف مذكرة ... فى مرفقيها إذا استعرضتها فتل
بيداء مقفرة يوماً فأنعتها ... ولا سرى بى فأحكيه بها جمل
ولا شتوت بها عاماً فأدركنى ... فيها المصيف فلبى عن ذاك مرتحل
ولا شددت بها من خيمة طنبا ... جارى بها الضب والحرباء والوَرَل[12]
فهاك من صفتى إن كنت مختبرا ... ومخبرا نفراً عنِّى إذا سألوا

وحجته هنا فى غاية البساطة والوضوح . إنه لا يعرف البادية ولا صلة بينه وبينها فلماذا إذن يبكى لها أو عليها ، ولم يركب إلى الممدوح ناقة ولا جملا فما حاجته إذن إلى وصفها ، أليس من الخير إذن أن يتحرى الصدق ويلتزم الواقع فيتحدث عما امتطاه حقيقة إلى ممدوحه ؟ إن هذا هو ما فعله حين قال فى مدح الفضل البرمكى ، مشيرا إلى الأحذية .

إليك أبا العباس من دون من مشى
عليها امتطينا الحضرمى الملسنا[13]

---

(١٠) يدل على ذلك استعماله « ها » التى للتنبيه .

(١١) ديوانه ص ٣٢٢ .

(١٢) الورل على وزن جمل دابة على خلقة الضب إلا أنه أضخم منه .

(١٣) ديوانه ص ٧٦ الحضرمى الملسنا. الرقيق من النعال .

قلائص لم تسقط جنينا من الوجى
ولم تدر ما قرع الفنيق ولا الهِنا[١٤]

نــزور عــليها مَــن حَـرامُ محرم
عـليه بـأن يـعدو بزائره الغنى

مدى تقيده برأيه هذا : —

قد يعجب المرء حين يرى بعض قصائد لأبى نواس مبدوءة بذكر الأطلال والدمن رغم هذه الحملة الشعرية التى أعلنها عليها . ولكن مهلاً فالأمر أدق من ذلك ، فلم يكن شاعرنا يخبط خبط عشواء ، ولكنه كان يتلون ويتصرف حسب الظروف والمناسبات ، فإذا مدح شخصاً يتهيبه كهرون الرشيد ، سلك مسلك القدامى طوعا أوكرها أو وقع قريبا منهم ، فهو يعلم أن هرون يكره منه الخروج على تقاليد العرب ، ولاسيما إذا كان ذلك عن كراهية أو احتقار لهم ، ويعلم أن سخط الخليفة ربما انتهى به إلى السجن[١٥] ولذا نراه يشتمل شملة الأعراب حين يمدحه فيقول :

حَيِّ الديار إذ الزمان زمان ... وإذ الشباك لنا حَرَى ومعَان[١٦]
يا حبـذا سفوان من متربَّع ... ولـربما جـمع الهوى سفوان
وإذا مررت على الديار مسلما ... فـلـغير دار أميـة الهجـران
إن نسبـنـا والمناسب ظـنـة ... حتى رُميتِ بنا وأنت حصان

وكأنما عز على أبى نواس أن يخالف مذهبه حتى فى أدقّ المواقف وأحرجها ، فإذا

---

(١٤) قلائص جمع قلوص وهى الشابة من الإبل — الوجى : الحفا — قرع الفنيق ضراب الفحل — الهنا : القطران يطلى به الأجرب من الإبل . وأصله الهناء فقصره

(١٥) ربما جاهر الشاعر بأنه إنما يعود إلى ذكر الأطلال أحياناً خوفاً من الخليفة وامتثالا لأمره كما فى قوله .
أعر شعرك الأطلال والمنزل القفرا ... فقد طالما أزرى به نعتك الخمرا
فسـمعا أمير المؤمنين وطاعة ... وإن كنت جشمتنى مركباً وعرا

(١٦) ديوانه ص ٥٨ . حرى ومعان علمان على مكانين

به يخز الأطلال والدمن وخزة خفية فى البيت الثالث .

وفى قصيدة أخرى يقول :

خلق الشباب وشِرّتى لم تخلق ورميت فى غرض الزمان بأفوق[17]
تقع السهام وراءه وكأنه إثر الخوالف طالب لم يلحق
وأرى قواى تكاءدتها رَيْثة فإذا بطشت بطشت رِخْوَ المرفق
ولقد غدوت بدستبان[18] معلم صخب الجلاجل فى الوظيف مسبق
حر صنعناه لتحسن كفه عمل الرفيقة واستلاب الأخرق

ويستمر فى الحديث عن صقره واستعانته به على صيد البط والأوز من بعض البرك القريبة من بغداد فيذكرنا بما يجرى فى عصرنا الحاضر أحياناً . وقد يخيل إلى المرء أن أبا نواس مبتدع هنا ، والحقيقة أنه يسير فى خطا زهير بن أبى سلمى فى قصيدته التى يمدح حصن بن حذيفة بن بدر الفزارى والتى يبدؤها بقوله :

صحا القلب عن سلمى وأقصر باطلة
وعُــرِّى أفـراس الصبـا ورواحلـه

وفيها يأخذ فى وصف الطبيعة ، ثم ينتقل إلى الصيد ومنه إلى المدح وكل ما هناك من فرق بين زهير وأبى نواس أن كل منهما ذكر نوعا من الرياضة والصيد يناسب عصره فالأول كان يصيد الغزلان وحمر الوحش ، أما الثانى فيتحدث عن رياضة هينة لا يعنى بها إلا أهل الترف والنعيم .

ومن هذا الباب قصيدة قالها فى الفضل بن يحيى البرمكى ، وكان معروفا بالصرامة والجد واحترام النفس ، ويبدؤها بقوله :

أربع البلى إن الخشوع لباد عليك وإنى لم أخنك ودادى[19]

(١٧) نفسه ص ٦٠ . وبشره بكسر المثلثة وتشديد الراء: الطيش

(١٨) دستبان: صقر.

(١٩) ديوانه ص ٧٣ .

فعذرة مني إليك بأن تُرى رهينةَ أرواح وصوب غوادى
ولا أدرأ الضراء عنك بحيلة فما أنا منها قائل لسعاد
وإن كنت مهجور الفنا فبما رمت يد الدهر عن قوس المنون فؤادى
وإن كنت قد بُدِّلت بؤسى بنعمة فقد بُدلت عينى قذى برقاد
سأرحل عن قُود المهارى شِمِلَّة مشخرة لا تُستحثّ بحاد
مع الريح ماقامت وإن هى أعصفت تهوس برأس كالعلاة وهاد[٢٠]

وقد تعجب إذا قلنا لك إن هذا المطلع من خير ما قيل فى الأطلال حتى ذلك العصر ؛ حيث كان القدامى يمرون عليها مر الكرام فى بيتين أو ثلاثة ويكتفون بقطرات من الدمع يريقونها على أرضها الصادية ، أما أبو نواس فيربط بين صنيع الزمان به وبالربع ربطا عجيبا وجميلا . وإنما عجبنا لأنه من رافع لواء الثورة على الأطلال . ويظهر أنه اعتصر ذهنه هنا ليثبت لمنافسيه أنه قادر على وصف الأطلال لو شاء ، أو كأنه يقول لهم إذا شئتم بكاء الأطلال فهكذا وإلا فلا .

أما إذا كان بينه وبين الممدوح ألفة تذهب بالتوقر والتكلف فإنه يسترسل على طبيعته ويقدم لمدحه بالخمر والغزل بالمذكر كما رأينا فى قصيدته التى أنشدها فى العباس بن عبد الله . وربما جاوز المذكر والغزل فيه إلى ماهو شر منه كما ترى فى إحدى مدائحه للفضل بن الربيع وفيها يقول:

ياربع شغلك إنى عنك فى شغل لاناقتى فيك لو تدرى ولاجملى[٢١]
علىّ عين وأذن من مذكّرة موصولة بهوى اللوطى والغزل
كلاهما نحوها سام بهمته على اختلافهما فى موضع العمل[٢٢]
يافضل غاية خلق الله كلهم إذا ضربنا بجود غاية المثل

أثر أبى نواس فى غيره من الشعراء —

---

(٢٠) هاس: مشى معتمدا على الأرض اعتمادا شديدا ، فلعله يعنى أنها حين تسرع تضغط الأرض نتيجة لحركة رأسها وعنقها

(٢١) ديوانه ص ٨٦.

(٢٢) يشير إلى أن الأول يهم بدبرها والثانى بفرجها.

لقد نجح أبو نواس فى أن يسلط الأضواء على قضية المطالع ، وجعلها موضوع دراسة ومناقشة وشكك الناس فى قداستها وبذلك فتح الطريق لكل ما أصابها بعد ذلك من تغير وتطور . ومع أن كثيرًا من الشعراء لم يتقيدوا بمذهبه حرفيا ، إلا أنهم رغم ذلك تأثروا به من قريب أو بعيد . وكان أسرع الشعراء استجابة له معاصره ومنافسه أبو العتاهية[٢٣] ، وقد ظهر ذلك فى قصيدة يمدح بها موسى الهادى وفيها يقول :

لهفى على الزمن القصير ... بين الخورنق والسدير[٢٤]
إذ نحن فى غرف الجنان ... نعوم فى بحر السرور
فى فتية ملكوا عنان ... الدهر أمثال الصقور
ما منهم إلا الجسور ... على الهوى غير الحصور
يتعاورون مدامة ... صهباء من حلب العصير
عذراء رباها شعاع ... الشمس فى حر الهجير

وإذا جاز لقائل أن يقول : إن تأثر أبى العتاهية كان بالجو العام المسيطر على العصر أكثر منه بشعر أبى نواس ، فان هناك شاعرا آخر من معاصريه[٢٥] تبدو المحاكاة فى شعره واضحة ، ونعنى به أبا الشمقمق فى قصيدته التى مدح فيها يزيد بن مزيد قائد الرشيد فقال:

رحل لم يكن بايزيد مطيةً ... فجعلتها لك فى السفّار مطيّة[٢٦]
تخدى أمام اليعملات وتغتلى ... فى السير تترك خلفها المهريّة
واذا ركبت بها طريقا عامرا ... تنساب تحتى كانسياب الحيّة
لولا الشراك لقد خشيت جماحها ... وزمامها ما إن يمسّ يديّه

---

(٢٣) يظهر أم أبا العتاهية خشى أن يبوء أبو نواس بفخر ذلك النوع من التجديد ، فأنشد القصيدة المشار إليها ، وهى كما ترى حافلة بالحديث عن الخمر ومجلسها وسقاتها .

(٢٤) الأغانى ج - ٣ - ص ١٥٦ .

(٢٥) معاصرى أبى نواس .

(٢٦) تاريخ بغداد ٤/ ٣٣٦

حيث نرجّح أنه قد تأثر فى ذلك بقصيدة أبى نواس النونية التى مدح فيها الفضل البرمكى ، وأشار فيها إلى الأحذية ، وقد مرت بك منذ قليل .

وقد كان لثورة أبى نواس الفضل فيما شاع بعد ذلك من اقتضاب المطالع ، فإن كان لابد لبعض الشعراء من الإلمام بالناقة والصحراء فى صدور قصائدهم احتراما للعرف الأدبى ، وإبقاء على التقاليد ، فأولى بهم أن يمروا بذلك مرّ الكرام ، كما فعل أبو العتاهية فى لاميته التى مدح بها عُمَر بن العلاء والتى يقول فيها :

إن المطايا تشتكيك لأنها   قطعت إليك سباسبا ورمالا
فإذا وردن بنا وردن مخفة   وإذا رجعن بنا رجعن ثقالا

وقد كان سرور ابن العلاء بهذا الاقتصاد شديدا ، حيث يروى (٢٧) أنه أعطاه سبعين ألف درهم أثارت حسد زملائه من الشعراء وبخاصة مروان بن أبى حفصة فجمعهم عمر وقال لهم : يامعشر الشعراء عجباً لكم ، ماأشد حسد بعضكم بعضاً ، إن أحدكم يأتينا ليمدحنا بقصيدة يشبب فيها بصديقته بخمسين بيتاً ، فما يبلغنا حتى تذهب لذاذة مدحه ورونق شعره ، أما أبو العتاهية فقد شبب بأبيات قليلة ثم قال : وذكر البيتين السابقين ، ويروى صاحب تاريخ بغداد (٢٨) أن مروان رؤى واقفاً بباب الجسر كئيبا أسفا ينكت بسوطه فى معرفة دابته فقيل له : ماالذى نراه بك ياأبا السِّمْط؟

قال : أخبركم بالعجب ، مدحت الأمير فوصفت له ناقتى من خطامها إلى خفيها ، ووصفت الفيافى من اليمامة إلى بابه أرضاً أرضاً ، ورملة رملة حتى إذا أشفيت منه على غنى الدهر جاء ابن بائعة النواخير – يعنى أبا العتاهية – فأنشده بيتين ضعضع بهما شعرى . وأشار إلى البيتين السابقين :

ويصعب على الباحث أن يضع المحاولات المختلفة التى قام بها الشعراء بعد دعوة أبى نواس لتطويع المطالع لظروف العصر وظروف الموضوع تحت عنوان أو اثنين

(٢٧) ابن خلكان جـ – ١ – ص٧٢ .
(٢٨) تاريخ بغداد / ٢٥٨

لكثرتها وافتنان الشعراء فيها . وبالرغم من ذلك يمكن مع شيء من التساهل تقسيمها إلى نوعين :

الأول منها حاول الشعراء فيه خدمة الغرض الأساسى من أول القصيدة مباشرة . وذلك بتكييف الجو العام للغزل تكييفاً خاصاً بحيث يلقى أضواء وظلالا مختلفة ويحدث ارتباطات متنوعة شعورية ولا شعورية ، تلتقى فتأتلف وتتعاون جميعا على إصابة الهدف الذى يرمى إليه الشاعر ، وأهم ما يتوسلون به إلى ذلك اختيار ضمائر الخطاب فى الغزل بحيث تصلح للمذكر والمؤنث ، ثم دسّ المعانى أو الشكاوى التى يريدون أيصالها إلى أذن الممدوح ، فتصل إليها بين التعريض والتلميح . وتقع من النفوس أجمل موقع وأعذبه . ومن أمثال ذلك قول أبى العتاهية فى مطلع مدحته لعمر بن العلاء (٢٩) .

ياصاح قد عظم البلاء وطالا وازددت بعدك صبوة وخبالا
حُملتُ ممن لا أنوِّه باسمه ثقلا كأن به علىّ جبالا
ماذا لقيت من الهوى وسقامه فيها تبارك ربنا وتعالى
يامن تفرد فى الجمال فلاترى عينى على أحد سواه جمالا
أكثرت فى شعرى عليك من الرُّقى وضربت فى شعرى لك الأمثالا
فأبيتَ إلا جفوة وتمنعا وأبيتُ إلا صبوة وضلالا

وقول البحترى يمدح المتوكل :

عذيرى فيك من لاحٍ إذا ما
شكوت الحب حرّقنى ملاما (٣٠)
فلا وأبيكَ ما ضيّعت عهدا
ولا أبيك ما قارفت ذاما
أُلام على هواك وليس عدلا
إذا أحببتُ مثلك أن ألاما

---

(٢٩) برانق فى أبى العتاهية ص ١٧٧ .

(٣٠) ديوانه ص ٢٢٤ .

لقد حرَّمتَ من وصلى حلالا
وقد حلَّلتَ من هجرى حراما

وقوله يمدح الفتح بن خاقان ويعاتبه :

عَنَت كبدى قسوة منك ما إن   تزال تجدد فيها ندوبا (٣١)

ومنه أيضاً قول أبى الطيب المتنبى ، يعاتب سيف الدولة ويمدحه :

واحر قلباه ممن قلبه شبم   ومن بجسمى وحالى عنده سقم (٣٢)
مالى أُكتِّم حبا قد برى جسدى   وَتَدعِى حبَ سيفِ الدولة الأمم
إن كان يجمعنا حب لغرته   فليت أنَّا بقدر الحب نقتسم

وقول ابن المعتز مفتتح مدحه للمعتضد ، وقد نفاه وحال بينه وبين مجالسه :

أتسمع ما قال الحمام السواجع   وصائح بين فى ذرا الأبك واقع
مُنعنا سلامَ القول وهو محلل   سوى لمحات أوتشير الأصابع
وإنى لمغلوب على الصبر إنه   كذلك جهل المرء للحب صارع

فظاهر هذه المطالع جميعها التشبيب بفتيات معروفات للشعراء . ولكننا مع ذلك واثقون من أن قول أبى العتاهية مثلا :

يا من تفرد فى الجمال فلا ترى
عينى على أحد سواه جمالا

لابد أن يسترعى انتباه ابن العلاء ، حتى ليكاد يظن أنه المخاطب به دون غيره من البشر ؛ لأن خلوه من ضمير المؤنث يجعله صالحا لأن يوجه له مباشرة أليس من الجمال ما هو خلقى يصلح للرجال وغير الرجال ؟

ومثل هذا يمكن أن يقال فى قول البحترى للمتوكل .

---

(٣١) ديوانه ص ١٥ . عناه الأمر يعنيه بفتح ياء المضارعة أهمّه .

(٣٢) ديوانه ج - ٣ ص ٣٦٢ .

ألام على هواك وليس عدلا إذا أحببت منك أن ألاما

وأما قوله للفتح بن خاقان :

عنت كبدى قسوة منك ماإن تــزال تجدد فيهـا تـدوبـا

وقول ابن المعتز للمعتضد :

منعنا سلام القول وهو محلل سوى لحات أوتشير الأصابع

وقول أبى الطيب لسيف الدولة :

وأحر قلباه ممن قلبه شبم ومن بجسمى وحالى عنده سقم

فلابد أن يلفت نظر الممدوحين إلى موقفهم من الشعراء عند بدء القصيدة مباشرة . ولمثل هذه المبادرة خطرها حيث تثير شكوى الشاعر بطريق غير مباشر ؛ فتخف على الأسماع وتسرع إلى القلوب .

ولعلنا الآن قد أدركنا الفرق بين غزل هذا العصر وغزل العصور السابقة من مثل قول كعب بن زهير :

بانت سعاد فقلبى اليوم متبول متيم إثرها لم يفد مكبول

فإنه على جودته محصور فى دائرة ضيقة هى دائرة الغزل بالمرأة . أما الأمثلة التى سقناها آنفا فهى كالقطعة الثمينة من الماس يحسن الصانع صقلها بحيث ترسل إشاعات مختلفة ، تخلب الأبصار ، وتبهر العقول .

ومما لا شك فيه أن الشعراء الأوائل لم يكونوا يلقون بالا إلى مثل تلك المعانى الجانبية والأشارات الخفية ، فقصيدة « بانت سعاد » السالفة الذكر متضمنة لأمور لم تتسرع التفات الشاعر ولا الرسول ، وإلا لكانت هجوما صريحا على الأخير كقوله (٣٣) .

(٣٣) ذهب الدكتور عبد الله الطيب فى محاضرته التى ألقاها مما نشستر ، والتى أشرنا إليها من قبل أن الشاعر كان يلوح هنا بغضب الرسول عليه ، فهو بذلك لايرى رأينا .

فيـــالها خلــة لـو أنها صـــدقت
بوعدها أو لو أن النصح مقبول[٣٤]

لكنها خلة قد سِيط من دمها
فـجـع وولـع وإخلاف وتـبـديـل

فما تدوم على حال تكون بها
كما تَـلَـوَّن فى أثوابها الـغـول

ولا تَـمَسَّك بالوعد الذى وعدت
إلا كما يمسك الماء الـغـرابـيـل

كـانت مـواعيد عرقوب لها مثلا
ومــا مـواعـيـدهـا إلا الأبـاطـيـل

وإنما بدءوا يفطنون لها فى عصور متأخرة بعد أن لفت الممدوحون أنظارهم إليها ، إذ يبدو أن الممدوح وهو المقصود والمخاطب بالقصيدة يكون من أدق الناس ملاحظة عند إنشادها . رووا أن ذا الرمة لما أنشد عبد الملك قوله :

ما بال عينك منها الماء ينسكب
كـأنه من كلى مفريّة سرب[٣٥]

وكان يعين الأخير علّة فهى تدمع أبداً ، قال : وما سؤالك عن هذا يا ابن الفاعلة ، وأمر به فأخرج من المجلس وأشباه ذلك كثير . ومنذ ذلك الحين بدأ الشعراء والنقاد يفطنون لمثل تلك الارتباطات الخفية ويتجنبون التورط فيما تورط فيه سلفهم من أخطاء . وكان مما قاله أبو هلال فى ذلك : « ينبغى للشاعر أن يحترز فى أشعاره ومفتتح أقواله مما يتطير منه ، ويستجفى من الكلام – ولاسيما فى القصائد التى تتضمن المدائح والتهانى . . . فإن الكلام إذا كان مؤسساً على هذا المثال تطير منه سامعه وإن كان يعلم أن الشاعر يخاطب نفسه دون الممدوح[٣٦] » .

(٣٤) سيرة ابن هشام ح – ٤ ص ١٥٤ .
(٣٥) الصناعتين ص ٤٣١
(٣٦) نفسه .

ولم يكتف الشعراء بهذه الناحية السلبية التى فطن إليها أبو هلال ، بل كانوا إيجابيين على النحو الذى أشرنا إليه .

أما المحاولة الثانية فقد قام بها أبو تمام ، وإن لم يشعر كثير من الناس بجهوده فى تلك السبيل . وبيان ذلك أن أبا تمام مداح يستغل كل وسيلة ممكنة ، وكل لفظ فى القصيدة لتحقيق الهدف الذى يسعى إليه من إطراء الممدوح والتأثير عليه . وطبيعى والحال هذه أن يحمّل المقدّمة نصيبها الموفور من خدمة تلك الغاية. ولذا لم يستطع أن يهبها للغزل التقليدى الذى دب إليه الفتور فى آخر أيامه ، وكانت وسائله إلى ذلك كثيرة ومتنوعة ، إلا أننا نحب أن نسجل هنا أجر تجربتين قام بهما فى هذا الصدد . فى الأولى منهما حاول أن ينحو بالمقدمة منحى كتاب القصص فى عصرنا الحاضر من حيث استعراض الماضى فى لمحات خاطفة قبل الدخول فى الموضوع (٣٧) ترى ذلك فى مثل قوله يمدح أبا سعيد محمد بن يوسف الثغرى (٣٨) :

أطلالهم سُلبت دُماها الهيفا ... واستبدلت وحشا بهن عكوفا
يامنزلا أعطى الحوادث حكمها ... لامُطْلَ فى عدة ولا تسويفا
أرسى بعرصتك الندى وتنفست ... نفسا بعقوتك الرياح ضعيفا (٣٩)
شغف الغمام بعرصتيك وربما ... رَوَّت رباك الهائم المشغوفا
ولئن ثوى بك مقليا أجرامه ... ضيف الخطوب لقد أصاب مضيفا
وهى الفجائع لم تزل نكباتها ... بألفن ربع المنزل المألوفا
خلفت بعقوتك السنون وطالما ... كانت بنات الدهر عنك خلوفا
أيام لا تسطو بأهلك نكبة ... إلا تراجع صرفها مصروفا
وإذا رمتك الحادثات بلحظة ... ردت ظباؤك طرفها مطروفا

إلى آخر ما قاله فى تلك المقدمة . ونحن لا نشك فى أن القارئ لها يدرك بسهولة

---

(٣٧) هذا التشابه يجعلنا نعتقد أن الفكر العربى فى تلك الفترة من الزمن كان قد تهيأ للقصص ولكنه تحت ظروف مختلفة وقف عند هذا القدر المتواضع فى الشعر ، كما وقف عند المقامة فى النثر.

(٣٨) ٢٠٤ ديوان .

(٣٩) العقوة: بفتح المهملة وسكون المثناة الفراغ المحيط بالدار .

الفرق بينها وبين قول امرىء القيس مثلا :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل   بسقْط اللوى بين الدَّخول فحول
فـتـوضـحَ فـالـمِـقـراةِ لم يَعْـفُ رسمهـا   لمَا نَسَجَتها من جنوب وشمأل
ترى بعر الارآم فى عَرَصاتها   وقيعانها كأنه حب فلفل

حيث قنع امرؤ القيس بتصوير الأثر الماثل بين يديه والوقوف عند حدوده ، بينما يحاول الطائى أن يربط بينه وبين الماضى ، مستثيرا هذا بذكر ذاك ، على أن مجهوداته كانت أبعد أثراً وأشد وضوحا فى ميدان آخر هو ميدان المطالع الطبيعية ، ونعنى بها تلك المطالع التى تتحدث عادة عن الطبيعة وعن الأمطار والسيول ، وما ينبت عليها من ورود وأزهار ونحوها ، وإحلال ذلك محل الدمن والأطلال والنساء والغزلان .

وقد ظهر ذلك النحو من المطالع فى العصر الجاهلى ومنه قصيدة زهير بن أبى سلمى التى أشرنا إليها سابقاً (٤٠) ولكنه كان قاصرا حيث لم يربط بين وصف الطبيعة والمدح (٤١) على عادة الجاهليين من الفصل الظاهرى بين المقدمة والموضوع ، اللهم إلا ما كان من ربط ضعيف فى مثل قول أوس بن حجر :

يامن لبرق أبيت الليل أرقبه   فى عارض كبياض الصبح لمّاح
دانٍ مسفٍ فويق الأرض هَيْدبه   يكاد يدفعه من قام بالراح

ثم وصله بالدعاء والمدح فقال :

سقى ديار بنى عوف وساكنها   ودار علقمة الخير بن صباح

وأما أبو تمام فشرع طريقة جديدة استمد عناصرها الأولى من زهير ومن بعده ،

---

(٤٠) نقصد قوله· صحا القلب عن سلمى وأقصر باطله • وعرى أفراس الصبا ورواحله ويظهر أن الجاهليين فعلوا ذلك تجنباً للملل وطلبا للتجديد فلم يكن مجرد مصادفة أن يظهر هذا النحو من التجديد عند إمامى الصنعة فى العصرين الجاهلى والعباسى بل كان عن قصد . ومغزاه فى نظرنا أن كلا منهما يبذل جهده فى الرقى بصناعة والافتنان فيها .

(٤١) وهذا متفق مع عادة الجاهليين من عدم الربط بين المقدمة والغرض الأصلى بأكثر من مثل قول زهير .

دع ذا وعد القول فى هرم   خير البـــداة وسيـــد الحضر

فتأويل هذا عندهم: دعك من أحاديث الدمن والأطلال وانتقل بنا إلى ماهو أهم من ذلك .

ولكن أبا تمام بعقليته الجبارة استطاع أن يحيل تلك العناصر الأولية إلى مثل تلك الصورة البارعة التى نراها فى قوله يمدح المعتصم .

رقّت حواشى الدهر فهى تُمَرْمِر وغدا الثرى فى حَلْيِه يتكسر[42]
بذلت مقدمة المصيف حميدة ويد الشتاء جديدة لا تكفر

وقد أخذ فى وصف الطبيعة حتى قال :

يا صاحبىّ تقصّيا نظريكما تريا وجوه الأرض كيف تُصوَّر
تريا نهاراً مشمساً قد شَابَهُ زهر الربى فكأنما هو مقمر
دنيا معاش للورى حتى إذا حل الربيع فأنما هى منظر
أضحت تصوغ بطونها لظهورها نَوْراً تكاد له القلوب تنور
من كل زاهرة تَرَقْرقَ بالندى فكأنها عين إليك تَحَدَّر
تبدو ويحجبها الجميم كأنها عذراء تبدو تارة وتَخَفّر[43]
حتى غدت وَهَداتها ونجادها فئتين فى حلل الربيع تبختر

وبعد عدة أبيات على هذا النسق يصل الحديث عن الطبيعة بالمديح فيقول :

خَلُق أَهَلّ من الربيع كأنه خلق الأمام وهدية المتنشر
فى الأرض من عدل الأمام وجوده ومن النبات الغض سُرج تزهر
تُنسى الرياض وما يُرَوِّض فعله أبداً على مر الليالى يُذْكَر

والدارس لمثل هذه القصيدة ينبغى أن يفطن إلى أمرين : أولهما إخراج الورود فى صورة العذارى ، وكأن أبا تمام وهو يبحث عن شىء جديد تشترك العواطف الإنسانية جميعها فى التعلق به ليحله محل المرأة طلبا للتجديد وفراراً من التكرار — لم يجد شيئاً أيسر منالا من الأزهار . ولذا نراه يمزج بين البدل والمبدل منه ليلفت الأنظار إلى أنه لم يسرف فى تجاهل تقاليد الشعر العربى حين وضع الطبيعة موضع المرأة ، وأسبغ عليها من عواطفه وأعجابه ما كان سواه من الشعراء يسبغه على المرأة وديارها .

(42) يقال مرمر جسم الجارية أى اهتز وترجرج .
(43) الجميم: نبت يطول حتى يصير مثل جمّة الشعر ، كذا فى اللسان .

وثانيهما الربط القوى البديع بين الحديث عن الطبيعة والموضوع الأصلى وهو أمر لم يسبق إليه[٤٤] مما يجعل المقدمة تبدو كأنها جزء من المدح ، أو المرحلة الأولى من مراحله .

وليست هذه القصيدة هى المحاولة الأولى لأبى تمام فى هذا الصدد بل له أكثر من محاولة مشابهة نذكر منها قصيدة أرسلها إلى إبراهيم والفضل كاتبى عبد الله بن طاهر يعتذر إليهما حين حبسه المطر عنهما وفيها يقول :

منع الزيارة والوصول سحائب ... شم الغوارب جأبة الأكتاف[٤٥]
ظلت بنى الحاج الملح وأنصفت ... عرض البسيطة أيما إنصاف[٤٦]

إلى أن قال :

إن الشتاء على شتامة وجهه ... لهو المفيد طلاقة المصطاف
وكأنما آثارها من مزنة ... بالميث[٤٧] والوهدات والأخياف
آثار أيدى آل مصعب التى ... بسطت بلا منّ ولا إخلاف

وربما جمع أبو تمام بين وصف الطبيعة والحديث عن الخمر فى مطالعه كما فعل فى تلك القصيدة التى مدح بها محمد بن حسان الضبى[٤٨] .

ومعرّس للغيث يخفق فوقه ... رايات كل دجنّة وطفاء
نُشرت حدائقه فصرن مطارفا ... لطرائف الأنواء والأنداء

---

(٤٤) لأستاذه مسلم بن الوليد محاولة كان فيها أقل نضجا من أبى تمام ، ونشير بذلك إلى قصيدة ربط فيها بين الخمر والمدح ربطا ضعيفا فقال:

إذا شئتما أن تسقيانى مدامة ... فلا تقتلاها كل ميت محرم
خلطنا دماً من كرمة بدمائنا ... فأثر فى الألوان منا الدم الدم
فمن لامنى فى اللهو أو لام فى الندى ... أبا حسن زيد الندى فهو ألوم

وظاهر أن مسلم وهو أحد أقطاب الصنعة فى العصر العباسى لم يقنع بما كان يفعله سلفه أبو نواس من التمهيد بذكر الخمر بل ربط بينها وبين المدح كى تبدو كأنها جزء منه .

(٤٥) ديوانه ص ٢٠٤ جأبه: عريضة .

(٤٦) الحاج. جمع حاجة .

(٤٧) الميث: الأرض اللينية ، والوهدات: الحصر ، والأخياف: سفوح الجبال أو نحوها فى الارتفاع .

(٤٨) شرح ديوانه للخطيب التبريزى تحقيق محمد عبده عزام ص ٢٢ .

فسقاه مسك الطل كافور الندى وانحل فيه خيط كل سماء
غنى الربيع بروضه فكأنما أهدى إليه الوشى من صنعاء
صبحته بسلافة صبحتها بسلافة الخلطاء والندماء(٤٩)

وكان أهل الأندلس أشد الناس وَلوعا بهذا النوع من المقدمات ، ولعل هذا راجع إلى جمال البيئة الأندلسية نسبيا واختلاطهم بالأجانب ثم ميلهم إلى اللهو والمتعة وعشقهم للطبيعة وحرصهم على الاستمتاع بها ، وقدرتهم على تذوقها ، فقد روى أن نهر أشبيلية على عهد العرب كانت تحف به جنان متصلة من الجانبين ، وكانت الزوارق تتهادى فوق سطحه ليلا ونهاراً بطلاب المتعة وفيهم المغنون والموسيقيون ويؤكد الشقندى صاحب هذا الخبر أنه زار مصر ورأى نيلها فكان فى هذا دون نهر أشبيلية(٥٠) وأول نصّ يصادفنا من الشعر الأندلسى فى هذا الباب قول أبى عمر يوسف بن هرون الرمادى من شعراء القرن الرابع الهجرى يمدح ابن القرشية :

تأمل بإثر الغَيْم من زهرة الندى
حياة عيون متن قبل التغيّم(٥١)
تعجبت من غوص الحيا فى حشا الثرى
فأفشى الذى فيه ولم يتكلم

ثم قال بعد عدة أبيات رابطا بين الطبيعة والمدح على طريقة أبى تمام :

وإن جئتما بالشمس والبدر والحيا
مفاخرة جاءت بأسنى وأكرم
بعبد العزيز ابن الخلائف والذى
جميع المعالى تنتمى حيث ينتمى

واستغل الجزيرى من شعراء القرن الرابع أيضا الطبيعة فى إطراء المنصور ومدحه أيما استغلال و من ذلك قوله:

(٤٩) السلافة الخالص من كل شىء – والمراد بالسلافة الأولى الخمر وبالثانية الممدوح .
(٥٠) راجع الشقندى فى الجزء الثانى من نفح الطيب ١٥٠ .
(٥١) الحلة السيراء ص ١٠٩

وعلى يمينك سوسنات أطلعت زهر الربيع فهن حسنا تشرق[٥٢]
فكأنما هى فى اختلاف رقومها رايات نصرك يوم بأسك تخفق
فى مجلس جمع السرور لأهله ملك إذا جمعت قناه يفرّق

ويقول فى قصيدة أخرى:

حيّتك ياقمر العلا والمجلس أزكى تحيتها عيون النرجس[٥٣]
زهر تريك بحسنها وبلونها زهر النجوم الجاريات الكنس
ملِّكْنَ أفئدةَ الندامى كلما دارت بمجلسهم مدار الأكؤس
ملكَ الهمام العامرىّ محمد للمكرمات وللنهى والأنفس

ويظهر أن تعلق المظفر بن أبى عامر بالأزهار ، أو بالمدح ، أو بكليهما قد زاد من اهتمام الشعراء بهذا الفن الجديد ، فقد روى[٥٤] صاحب البيان المغرب أن المظفر بن أبى عامر اقترح على شعرائه فى بعض أوقات الربيع من دولته قطعا نوارية فى المنثور وهو الخيرى وفى الزهر وغير ذلك من أنواع النوار . وكان شديد الاعجاب بذلك ، كثير الطلب لأنواعه فى مظانه ، وأحب أن يدخلها قيانه فى أغانيهن ، واكتتب كثير منه فى وقته لحسنه وغرابته فى معناه وكان من مستحسنه قول أبى العلاء صاعد بن الحسين البغدادى فى الآس:

من كان ودّه للآس متهما فإن عندى ودغير متهم[٥٥]
نعم الصديق فما يخشى تلوّنه على معاقبة الإصباح والظلم
إذا رآه أبو مروان ذكّره تهافت الركب فى القيعان والأكم

وقوله فى التُّرُنجانْ:

لم أدر قبل تُرُنْجان مررت به أن الزمرد قضبان وأوراق[٥٦]
من طيبه سرق الأُتْرُجّ نكهته ياقوم حتى من الأشجار سراق

(٥٢) نفح الطيب – ج – ١ – ص ٢٤٩ .
(٥٣) المرجع السابق .
(٥٤) ج ٣ ص ١٨ .
(٥٥) نفسه .
(٥٦) نفسه الذى ورد فى اللسان ترنج بحذف الألف والنون .

يشارك الخمر فى نفى الهموم إذا ماشمه مُؤْثَر بالهجر مشتاق
كأنما الحاجب الميمون علّمه فعل الجميل فطابت منه أعراق

والمتأمل فى هذه المقطوعات يراها تجرى على نسق شعر أبى تمام والرمادى والجزيرى من حيث إدماج الأزهار فى النسيج العام للقصيدة ، فتبدو وكأنها وشى يطرز به الشعراء مايخلعونه على سادتهم من حلل المدح والثناء . وفى عصر ملوك الطوائف الذى يمثل العصر الذهبى للأدب فى الأندلس ، أقبل الشعراء على هذا الفن إقبالا شديداً . ولدينا قصائد كثيرة بعضها وشيت مطالعه بوصف الطبيعة ، وبعض بالخمر ، والثالث بهما جميعاً . ومن أمثلة الأول قول أبى حفص بن الشهيد يمدح المعتصم بن صمادح من ملوك الطوائف :

سقى كل غيث صادق البرق وابل منابت نوار الربى والخمائل(٥٧)
فروَّى غصونا كالقدود تطلعت من أوراقها فى مثل خضر الغلائل
خليلىَّ عوجا بى على الربع دراساً تحيىَّ رياضا أحدقت بجداول
ملاعب كاسات ونزهة أعين ومسلى لمشتاق وذكرى لغافل
وأحسن من روض تحلىّ بنوره محيا ابن معن فى حُلِىِّ الفضائل
جواد كأن الأرض جمعاء راحة له وبحورَ الأرض خمس أنامل

وينبغى أن يلاحظ الدارس مافى البيت الثانى من مزج بين صور الطبيعة الإنسان ، يتفق مع ماذكرناه فى غير هذا المكان من أن الطبيعة حلت عندهم محل المرأة ، والإشارة إلى الربع الدارس فى البيت الثالث يؤكد هذا المعنى حيث أخذ يبكى ديار الأزهار كما كان العرب فيما سبق يبكون ديار الأحبة(٥٨) ومن الثانى قوله فى ابن صمادح أيضاً:

فشربتها كلف الفؤاد عميدا راحا وكانت مرة عنقودا(٥٩)
ختمت بطينتها وزمزم حولها قَس وغادر بابها مسدودا

---

(٥٧) الذخيرة القسم الأول المجلد الثانى ص ٩٦ .

(٥٨) وقد صرح الصنوبرى من شعراء الشام بأن الرياض صرفته عن الأطلال – الطبيعة للدكتور نوفل ص ٢١١) .

(٥٩) الذخيرة القسم الأول المجلد الثانى ص ١٩٩ .

وتُنوسيت فكأن صفَّ دنانها ... فى الحان أصحاب الرقيم وقودا
وكأنما الخمار كلبهم وقد ... ألقى ذراعيه وسد وصيدا
فإذا شممت فسكة مفتوقة ... وإذا لحظت فبارقا معقودا
وإذا طمعت فريق أشنب واضح ... شفَّ المشوقَ تجنّبا وصدوداً
حُذِيَتْ على خلق ابن معن فاغتدت ... أملا وكنزا للسرور عتيدا

ومن الثالث قصيدة لأبى عامر بن شُهَيْد أرسل بها إلى المؤتمن عبد العزيز ابن أبى عامر وفيها يقول عن المطر وأثره فى الرياض(٦٠) ويصل ذلك بالخمر ومجالسها :

أما الرياح بجو عاصم ... فحلبن أشطار الغمائم
سهر الحيا برياضها ... فأسالها والنور نائم
حتى اغتدت زهراتها ... كالغِيد باللُّج العوائم
من ثيبات لم تُبَل ... كشفت الخدود ولا المعاصم
وصغار أبكار شكت ... خجلا فعاذت بالكمائم
ورد كما خجلت خدو ... د العِين من لحظات هائم
بكر الحسان يردنها ... من كل واضحة الملاغم(٦١)
وضحكن عجبا فالتقت ... فيها المباسم بالمباسم
وكأننى فيهم لقيـ ... ـط قاد من أحياء دارم
وتكاوست فيها الأبا ... رق وهى فاهقة الحلاقم(٦٢)
فكأننا فيها العفارت ... والكؤوس من الرواجم
وأغن من سدن الملو ... ك سليل أقيال خضارم

---

(٦٠) أرسلها إليه ضمن رسالة طويلة يستحديه ضيعة . والمؤتمن من أحفاد المنصور مؤسس دولة بنى عامر بالأندلس فى النصف الثانى من القرن الهجرى الرابع . ولما زالت دولتهم فى أواخر ذلك القرن ظل موالى آبائه وأتباعهم متربصين حتى إذا سقطت الدولة الأموية فى صدر القرن الخامس الهجرى وانقسمت الأندلس إلى دويلات يحكمها أمراء يسمون بملوك الطوائف أمر هؤلاء الموالى المؤتمن المذكور عليهم فى بلنسية بشرق الأندلس وأقام لنفسه ملكا هناك الذخيرة القسم الأول المجلد الأول ص ١٦٩

(٦١) الملاغم بالغين المعجمة ماأحاط بالفم

(٦٢) تكاوست. تراكمت

يشكو الرِّعات تنعمّا ويضجمن حمل التمائم
لاتستحيه الراشفا ت ولاتباليه اللوائم
لازمت بباب محله والنجح من قنص الملازم
وبعيدة الأرجاء نا زحة على أيدى الرواسم
من فتنة قد أسبلت ظلماتها بيد المظالم
فكأننا عمى نسا ق على العمى فى ظل عاتم
حتى انتضى عبد العزيـ ـز عزيمة من صدر عازم
فبدت لنا سبل الهدى بنواجم غير الهواجم
ضرب الأعاجمَ سودها بالسد من بيض الأعاجم

وقد عز على أهل المجون ألا يستغلوا بضاعتهم فى التمهيد لمدائحهم ، مع أن المجون جدير بأن يبعث السرور والانتعاش فى نفس الممدوح ، فيزيد فى عطاء الشاعر ، ويبالغ فى إكرامه . وأبو الشمقمق من أسبق الشعراء إلى هذا النوع من المقدمات . وقد روى له ابن المعتز فى طبقاته قصيدة خفيفة الظل يمدح فيها هارون الرشيد ويقول فى أولها:

عاد الشمقمق فى الخسارة وصبا وحنَّ إلى زرارة[٦٣]

ويقول فى ثناياها:

إن العيال تركتهم بالمصرأ كلهم العصارة
و شرابهم بول الحما ر مزاجه بول الحمارة

وحينما استفحل المجون فى الشعر ، وكلف الناس به ، واشتد إقبال الرؤساء عليه ، وعظمت عطاياهم لأصحابه فى القرن الرابع للهجرة – حين ذاك طالت المقدمات الماجنة حتى كادت تطغى على الغرض الأول وهو المدح . ومن ذلك قصيدة أبى حامد الأنطاكى التى يقول فيها:

ولقد دخلت على الصديـ ـق فى البيت فى اليوم المطير[٦٤]
متبخترا متشمرا للصفع بالدلو الكبير

(٦٣) ص .   (٦٤) يتيمة الدهر ج ١ ص ٢٨٤ .

فـــأدرت حين تـــبـــادروا   دلـوى فـكـان عـمـى المديـر
يـا لـلـرجـال تصـافعـوا   فـالصـفـع مـفـتـاح السرور
لاتـــغـــفـــلوه فـــإنــه   يـسـتـل أحـقـاد الصـدور
هـو فى المجالس كـالـبـخـو   ر فلا تملوا من بخور
ولأذكــــرن إذا ذكــــر   ت أحـبتى وقت السـحـور
ولأحــــــزنن لأنهم   لما دنـا نضج الـقـدور
رحـلـوا وقـد خبزوا الـفـطـيـ   ـر فـفـاتهم أكـل الـفـطير
لا والـذى نـطـق الـنبى   ىُ بـفضـلـه يوم الـغـديـر
مـا للإمـام أبى عـلـىْ   ىٍ فى البريّـة من نـظير

وواضح أن الممدوح لم يحظ من القصيدة إلا بالبيتين الأخيرين وإن كان فى الحقيقة قد فاز بها جمعاء حيث استمتع بما فيها من فكاهة ومجون وإطالة المقدمات على هذا النحو تذكرنا بابن الساعاتى ،(٦٥) فقد كان يسرف فى الغزل إسرافا يجعل القارئ لمدائحه يتساءل عما إذا كان موضوعه الأصلى هو الغزل أم المدح .

المتنبى والمقدمات:

إن الوظيفة الطبيعية للمقدمات هى رفع الحال المعنوية وتقوية الانفعال عند المنشد والسامع ، ومن أجل هذا خاض القدامى فى ذكر البوادى وحيوانها ، ومن أجله أيضا ثار أبو نواس على البوادى ، وأحل الخمر وسقاتها محلها ، وقد عرفنا من قبل مدى ما فى ثورته من منطق، خلاصته أن شيطانه يهيج فى محاريب الحانات بنفس الدرجة التى يهيج بها شياطين أسلافه عند روية الدمن البالية ، والأطلال الدارسة .

ثم ننتقل إلى أبى الطيب لنقول ، أنه كان ذا شخصية متمردة ، لا تخضع لقانون ، ولا تحنى هامتها أمام نير العرف ، ولذا نراه يجهر بمهاجمة المقدمات الغزلية

(٦٥) من شعراء القرن السادس الهجرى .

لما فيها من نفاق لا تحتمله طبيعته ، وتكلّف لا تطمئن إليه نفسه ترى شاهدا على ذلك فى قوله مادحا سيف الدولة :

إذا كان مدح فالنسيب المقدم ... أكلّ فصيح قال شعرا متيم ؟
لحُبّ ابن عبد الله أولى فإنه ... به يبدأ الذكر الجميل ويُختم
أطعت الغوانى قبل مطمح ناظرى ... إلى منظر يصغرن فيه ويعظم

والآن وقد ثار على أكثر الموضوعات التى يقدم بها الشعراء لقصائدهم شيوعا ، وهو الغزل أين يتجه ؟

الجواب يسير ، فإذا كان القدامى قدّموا بأحب الموضوعات إلى أنفسهم ، وإذا كان أبو نواس قد تحول بتلك المقدمات إلى ما يعنيه من متع الحياة وملاهيها ، فلماذا لا يطلق هو أيضاً نفسه على سجيتها ، ويضع فى مقدمات قصائده أهم ما يشغل نفسه ويقضّ مضجعه من شئون هذه الحياة ؟ وأى خير فيه وفى شعره إن لم ينفّس بعض ما يجيش فى صدره من نقمة على الزمان ، وعتاب لذوى السلطان ، وتعال على الأقران ، واعتزاز بالنفس ، واعتداد بالمواهب ، وغير ذلك من دعاوى عريضة ، وشكاوى مرة ، تستخفى فتأخذ صورة الحكمة والمثل ، ثم ترمى النقاب جانبا ، فتكون هجوما عنيفا وثورة عارمة . وبين يدى قصيدتان تفسران صنيعه فى هذا الميدان تفسيرا دقيقا ، أولاهما بائيته فى مدح كافور الإخشيدى ، ويبدؤها بقوله :

مُنًىً كُنَّ لى أن البياض خِضاب
فيخفى بتبيض القرون شباب (٦٦)
ليالى عند البيض فوداى فتنة
وفخر وذاك الفخر عندى عاب
فكيف أذمّ اليوم ما كنت أشتهى
وأدعو بما أشكوه حين أُجاب ؟

---

(٦٦) ديوانه - ١ - ١٣٢

جلا اللون عن لون هدى كل مسلك
كما انجاب عن ضوء النهار ضباب
وفى الجسم نفس لا تنيب بشبيه
ولو أن ما فى الوجه منه حراب
لها ظُفُر إن كَلَّ ظُفْر أُعدّه
وناب إذا لم يبق فى الفم ناب
وإنى لنجم تهتدى بىَ صحبتى
إذا حال من دون النجوم سحاب
غنىّ عن الأوطان لا يستفزّنى
إلى بلد سافرت عنه إياب (٦٧)
وما العشق إلا غِرَّة وطماعة
يعرِّض قلب نفسَه فيصاب
وغير فؤادى للغوانى رميّة
وغير بنانى للزُّجاج رِكاب
تركنا لأطراف القنا كل شهوة
فليس لنا إلا بهن لِعاب

أما القصيدة الثانية فهى تلك التى مدح فيها مغيثا العجلى ، ويبدأها بقوله :

فؤاد ما تسلِّيه المُدام   وعمر مثلما تهب اللئام (٦٨)
ودهر ناسه ناس صغار   وإن كانت لهم جثث ضخام
وما أنا منهمُ بالعيش فيهم   ولكن معدن الذهاب الرَّغام
أرانب غير أنهمُ ملوك   مفتحة عيونهمُ نيام
وشبه الشىء منجذب إليه   وأشبهنا بدنيانا الطَّغام (٦٩)
ولولم يَعْلُ إلا ذو محل   تعالى الجيش وانحطّ القَتام

(٦٧) استفزه . استخفه واستدعاه .
(٦٨) ديوانه -٢ - ٣٣٨ .
(٦٩) الطغام بفتح الطاء المهملة أوغاد الناس وأراذلهم .

والآن ماذا يمكن أن يفهم الدارس من هاتين القصيدتين ، أو بعبارة أدق هذين المطلعين؟ الذى أراه هو أن الأبيات الأولى تمثل تطورا خطيرا فى عقلية الشاعر العربى وتفكيره – وإنما قلنا الشاعر العربى لأنك سترى بعد قليل أن معاصرى أبى الطيب ومَنْ جاءه بعد من الشعراء ما لبثوا أن نسجوا على منواله لتشابه ظروفهم وظروفه إلى حد كبير.

وفى الحق أن أبا الطيب رائدا فذًّا ولكن ما كان لسواه من الشعراء أن يحاكوه بنجاح واضح لو لم يكونوا فى قرارة أنفسهم مؤمنين بالكثير مما جاء به ، ولو لم تكن عقولهم وقلوبهم مهيأة للتجاوب معه ، وفى إيضاح ما أجملنا نقول :

إن الشاعر العربى فى القرن الرابع الهجرى ، بل والحياة العامة فى مجموعها قد وصلت درجة من النضج الفكرى درجة لم تصل إليها من قبل وقد يبدو هذا القول وكأنه من باب المبالغات الرخيصة، فقد درج الناس على جعل أيام الرشيد والمأمون العصرَ الذهبَى للشعب العربى ، ونحن لا نمارى فى ذلك ، ولا نجحـــد أن الأمة العربية كانت تعيش إذ ذاك أجمل أيامها ، سياسيا ، واقتصاديا ، وأدبيا وثقافيا واجتماعيا ، ولكننى ألفت الأنظار إلى عنصر هام وهو النضج ، ففي رأيى أن القرن الثانى للهجرة كان عصر الغزو العلمى إن صحّ ذلك التعبير ، أقبل فيـــه الشعب العربى بتحمّس شديد على تراث الإغريق والفرس ، ولكن هذه الثروة المكتسبة لم تؤت أكلها ولم تنضج تمام النضج إلا فى القرن الرابع وما بعده .

ولن أخوض فى ذكر الفلاسفة من أمثال الفارابى وابن سينا ، وإخوان الصفا ولا النقاد من أمثال الآمدى وعبد العزيز الجرجانى ، فإنى لمثل هذه المباحث مكان آخر ، ولكنى ألفت النظر فقط إلى أن أبا الطيب ومعاصريه من أمثال ابن نباتة السعدى ، ومَنْ جاء بعده من أمثال أبى العلاء وابن الخيَّاط والطغرائى وعشرات آخرين بجانبهم قد أتوا فى الميدان الفكرى النفسى الاجتماعى بروائع ترتفع فوق مستوى بشار بن برد وأبى نواس بقدر ما ارتفعا فوق جرير وأشباهه من القدامى .

والذى يهمنا من مظاهر ذلك النضج هنا هو أن الشاعر العربى متمثِّلا فى أبى

الطيب قد أخذ ينظر إلى أحاديث الغزل على أنها نوع من البراءة والسذاجة التى كانت تناسب أسلافهم من أهل الدعة والترف وخلو البال والتخفُّف من أعباء الحياة وأزماتها ، أما فى عصر المتنبى وصحبه فقد تعقّدت الحياة ، ومرّ الشعب العربى بمراحل كثيرة اختلفت فيها ظروفه رفعة وضعة ، وقوة وضعفا ، وعسرا ويسرا ، وأخيراً تبدّلت حاله من حاكم إلى محكوم ، وسيد إلى مسود ، ومزّقته الخلافات ، وأنهكته الثروات . ولابد أن تترك هذه الأمور جميعا صداها فى نفوس الناس ، ولا سيما من كان منهم مستعدا بفطرته ، أو مهيَّئا بما يحيط به من ظروف إلى إدامة التفكير فيما يجرى حوله من مآسى ومظالم ، وما يمثَّل على مسرح الحياة من مهازل ومناقضات .

وشاءت الظروف أن يعيش المتنبى المتمرّد الطموح الناقم الثائر فى هذه الفترة من الزمن ، وشاءت له أن يكون شاعرا ، وأن يكون المديح هو وسيلته الأولى للشهرة ، بل ولكسب لقمة العيش ، وكأنى به يسعى إلى إنشاد بعض الناس مدائحهم ، وهو مشغول عنهم تماما بما يعتلج فى نفسه ، ويجول فى صدره من المعانى التى أشرنا إليها سابقا ، ولذا يُغْلب الرجل على أمره ، وتستبدّ به عواطفه ونزعاته ، فتظفر تلك المعانى إلى لسانه ، وتأخذ مكان الصدارة من مدائحه وقد يكون ذلك بطريقة لاشعورية تماما ، وقد يكون مدركا تمام الإدراك لما يفعل ، وسواء كان هذا هو الشأن أو ذاك فإن النتيجة واحدة ، وهى أنه كان يتصرف تصرفا طبيعيا تماما ، وأنه لا يختلف عن القدامى حين قدّموا بالبوادى وبقايا ديار الأحبة ، وغيرها من أمور كانت هى كل ما يشغل بالهم حين يفرغون من زحمة الحياة ، بل ولا يختلف عن أبى نواس حين أصرّ على أن يكون له من قصائده نصيب الأسد ، وأن تحتل الخمر وسقاتها صدور تلك القصائد .

وبعد هذا التمهيد الضرورى رغم طوله نعود إلى أبيات أبى الطيب لنرى أنها تساير الفكرة التى بسطناها خطوة خطوة ، فهو لا يتباهى بسواد اللِّمة ووفرتها ، وغير ذلك من مظاهر الشباب التى تزكِّيه عند المرأة بل يفكر تفكيرا غريبا لم يسبق إليه . فقد تمنَّى أن يكون هناك خضاب أبيض حتى يقطع ما بينه وبين الجنس اللطيف من

أسباب ، وينتقل إلى عصر الشيخوخة ، حيث التجربة والحكمة والاتزان والوقار ، وكأنما أحسّ المتنبى بغرابة موقفه ، وسمع همسات النقاد ، وهم يتساءلون عن سر عزوفه عن الغزل ، وإعراضه عن المرأة ، فأخذ يدافع عن نفسه فى الأبيات الثلاثة الأخيرة ، مبينا أن الحب من هوايات الشباب الذين لم تعركهم الحياة ، ولم يعركوها .

أما هو فقد هجر جميع الشهوات بما فيها الخمر ووصال الغوانى ، واستبدت به شهوة واحدة هى شهوة النضال فى سبيل المجد بلسانه حينا وبرمحه حينا آخر .

وفى الأبيات الباقية من المقدمة يفصح بطريق لاشعورى عن الحبيب الذى استولى على مشاعره ، فأصبح فيه غزله ونشيده ، وفى محرابه صلاته تسبيحه ألا وهو نفسه التى يكيل لها الثناء كيلا ، وسواء كان مبالغا فى ذلك ، أو مقتصدا ، فإن شيئا واحدا لايسعنا أن نجحده ، وذلك أنه أجاد القول ، وأحسن الثناء . وحب أبى الطيب لنفسه يؤيده من شعره ، ألا تراه فى قصيدة أخرى يقول :

خليلك أنت لامن قلت خلّى   وإن كثُر التجمُّل والكلام

أما الأبيات التى قدّم بها لمدح مغيث العجلى فتمثل جانبا آخر من نفسه العديدة الزوايا والجوانب ، لعله أشد تلك الجوانب استيلاء عليه وعنفا به ، ونعنى به النقمة على الحياة والأحياء ، ولاسيما السادة والحكام . وأحد الأسباب الهامة فى نقمته عليهم هو ضآلة عطاياهم ، كما ترى بوضوح فى أول تلك الأبيات . ومن حق المرء أن يعجب كيف سكت الممدوح أمام شاعر يمطره والسامعين بهذه اللعنات ؟ وفى جوانب ذلك تقول : إن الظروف المحيطة بإنشاد تلك القصيدة هى التى تفسّر ذلك الموقف الغريب ، فربما كانت هناك مثلا خصومات ومنافسات بين الممدوح وبين بعض سادة عصره ، وقد انتهز الشاعر هذه الفرصة ليشفى صدره وصدر الممدوح فى نفس الوقت . ومهما يكن من أمر فإن ثورة أبى الطيب ، وضيقه بالناس لم يكن خافيا على أحد ، وبحسب الممدوح أن يكون بمنجى من شواظ تلك المعركة الدائرة بين الشاعر ومعاصريه ، ولايضيره بعد ذلك مَنْ يسقط فى ميدانها من الضحايا . والمعانى الواردة فى مدح مغيث منتقاه وناصعة نصوعا يباعد بينه وبين غبار تلك المعركة .

وقبل أن نفرغ من المتنبى نلفت النظر إلى أن ماورد فى مقدمات مدائحه من الفخر بنفسه والإعجاب بمواهبه تارة ، والحطّ من قدر خصومه ومنافسيه تارة أخرى – إنما هو امتداد طبيعى لمواقف كثيرة مشابهة ، وقصائد ومقطوعات مُسْتَقِلَّة وردت فى هذا الاتجاه ، ولايعنينا الآن كثيرا ، رغم تأثيرها الضخم على الشعر العربى فى الأجيال التالية لأبى الطيب ، حيث تلقف الشعراء القيثارة من يده ، وأخذوا يعزفون عليها مقطوعات وقصائد شجيّة ، تبدو ألحان المتنبى واضحة فيها ، كما ترى فى شعر أبى العلاء ، والطغرائى ، وابن سناء الملك وعشرات بجانبهم . ولكن الذى يعنينا الآن وعليه نقصر مجهودنا هو تسلّل تلك الموضوعات إلى مطالع القصائد ، مع أنها لم تُرَ فيها من قبل .

إعجاب الشعراء بمطالع أبى الطيب ومحاكاتهم لها :

ما كان لنا أن نضيع ما أضعنا من وقتنا ووقت القارئ لو أن ثورة أبى الطيب على المطالع وتجديده فيها قد وقف عند حدود شعره . أما وقد صارت مطالعه نموذجا يحتذى ، ومثلا أعلى تشرئب إليه أعناق الفحول من الشعّراء ، فقد صار من واجبنا أن نذكر عدة نماذج لما كان من مظاهر ذلك الإعجاب ، وما أدى من محاكاة . على أننا كما قلنا فى بحث آخر نظلم شعراءنا ، وتاريخنا الأدبى إذا عزونا صنيع الشعراء إلى مجرد الإعجاب والمحاكاة ، وأولى بنا أن نذكّر الدارس بما قلناه منذ قليل ، حين ذكرنا أن القرن الرابع الهجرى كان قد شهد نضوج الفكر العربى بدرجة لم يصل إليها من قبل ، وقد تضافرت فيه عوامل مختلفة على الشاعر العربى أيقظت فكره ، وألهبت مشاعره ، وخلقته خلقا جديدا ، ومن كان فى شك من ذلك فليقرأ الأبيات التالية ، وليخبرنى إذا شاء متى أحسّ الشاعر العربى بخطورة رسالته فى الحياة على هذا النحو الذى يعلن عنه ابن نباته السعدى ومتى ربط بين الشعر وبين اليقظة العقلية والروحية هذا الربط الوثيق الذى يبدو فى قوله :

وكم لليل عندك من نجوم جمعت النثر منها فى نظام *

---

* مختارات٢/ ٢١١ ، والأبيات فى مدح القاضى ابن معروف .

عتابا أو نسيبًا أو مديحا لخلّ أو حبيب أو همام
تفيد بها العقول نُهىً وصَحْواً وقد فعلت بها فِعْلَ المدام
لها فى حَلْبة الآداب رَكْض إلى حبّ القلوب بلا احتشام

والذى يهمنا بعد هذا التطواف هو أن الشاعر العربى بعد أبى الطيب قد أخذ يبثّ فى صدور مدائحه بعض ما يثقل رأسه من هموم الحياة أو ما يجيش فى صدره من آمال وأطماع ، ومن نماذج ذلك قول مهيار الديلمى فى صدر قصيدة يمدح بها الوزير زعيم الدين :

ليل السُّرى مثل نهار المُقام ما خِفْتَ أن تُظلم أو أن تُضام (٧٠)
ودون صدر البيت مُرْخَىً به عليك ستر الذلّ صدر الحسام
كم تترك الجُمَّة مُسْتَرْوياً بنطفة ليست تبلّ الأُوام ؟
نمت ونام الحظ فافتح له جفنك وانهض فإذا قمت قام
زاحمْ على باب العلا ضاغطا لابد أن تدخل بين الزحام
مَيِّزْ من الناس على ظهرها نفسك لا مَيْزة تحت احتشام

ومنه أيضاً قول ابن الخياط فى مطلع مدحه للقاضى فخر الدين بن عمار :

لأسلكنَّ صروف الهول مقتحما هولا يزهِّد فى الأيام من رغبا(٧١)
غضبانَ للمجد طلاَّبا بثأر عُلاً والليث أفتك مالاقى إذا غضبا
لا يمنعنّك من أمر مخافته ليس العلا لبئيس يكره العطبا

ولا ينبغى أن يفهم الدارس من قولنا فيما سبق أن هذه المقدمات أخذت تصوِّر ما يجيش فى صدر شعراء ذلك العصر من طموح وآمال ، وما يعتلج فيها من عتاب على الحياة والأحياء – لا ينبغى أن يفهم من ذلك أن الصلة قد انقطعت فيها بين المقدمة والموضوع تماما ، أو أن جوا من الفتور والملل كان يخيِّم اثناء انشادها بين الشاعر

(٧٠) ديوانه٣/ ٣١٨ والمعنى إذا عاش المرء فى بيئة يتوقع فيها الظلم والضيم فأولى به إذا كان كريما أن يرحل عنها ، ويبغى عند ذلك أن يستوى عنده نهار الودع المستقر ، وليل المهاجر المتقلب فى مناكب الأرض ، حزنها وسهلها .

(٧١) مختارات ٣/ ٥٤ .

والممدوح دائما ، فإن الأول يعرف رغبات الثانى ، وظروفه العامة جيدا ، ولعله فى تلك المقدمات كان يضرب عصفورين بحجر واحد كما يقولون ، فيرضى شيطانه أولا ، وغرور الممدوح أو ما أشبه ذلك من نزعات ثانيا ، ألا ترى مثلا أن أبيات مهيار تناسب وزيرا طموحا حاول اغتصاب السلطة من منافسيه ، والاستئثار بالجاه والنفوذ دونهم ؟ وليس ببعيد أن يكون هذا هو موقف زعيم الدين الذى قيلت فيه .

المقدمات فى الرثاء :

عرف للقارئ مما كتبناه هنا ، وفى الباب الأول من هذا البحث أن مقدمات القصائد تهدف إلى رفع الروح المعنوية عند المنشد والمستمع ، وتعرض أهم ما يشغل بال الشاعر عند إنشادها . فهى غزل عن بعض الناس ، ومغامرات فى عرض الصحراء عند آخرين ، وهى خمر وغلمان عند أبى نواس ، وطبيعة جميلة عند أبى تمام والأندلسيين ، وصراع ونضال عند أبى الطيب وتلاميذه . فأين مكان الرثاء من ذلك جميعه ؟ وهل دخل فيما دخلت فيه الأغراض الأخرى من مدح وفخر وهجاء، ووشح صدره بما وشّحت به صدورها ، أم كان له شأن آخر ؟ وجواب هذا السؤال يسيره ، وكان ينبغى ألا نشغل أنفسنا به ، لولا أن أخطاء ارتكبت فى هذا الصدد كما سنعرف بعد قليل ، فوجب علينا لذلك التعرض له .

والذى يقضى به المنطق والذوق السليم ، بل والنظرية الأدبية التى بنينا مطالع القصائد أنه ينبغى للشاعر ألا يقدّم للرثاء بمغامرات عاطفية ، أو نحوه وأولى به أن يمهّد لشعره إن شاء بجولات حزينة فى عبث الأيام بناء وغدر الليالى بآمالنا ، وهذا هو ما فعله أبو العلاء فى قصيدته المشهورة :

غير مجد فى مِلّتِى واعتقادى نَوْح باكٍ ولاترنُّم شادى[72]
وشبيه صوت النَّعِىِّ إذا قِيـ ـس بصوت البشير فى كل ناد[73]

---

(٧٢) شروح سقط الزند القسم الثالث ٩٧١ .

(٧٣) النعى على ورن عنى والمراد به هنا الناعى فهو إذن فعيل بمعنى فاعل ، ويكون أيضا مصدرا ، وبمعنى المنعى ، وهو فى الأخير فعيل بمعنى مفعول .

وما فعله ابن مناذر فى رثائه لصديقه عبد المجيد الثقفى إذ يقول : —

كل حيّ لاقى الحِمامَ فَمودى ما لحىٍّ مُؤَمِّلٍ من خلود (٧٤)
يقدح الدهر فى شماريخ رضوى ويحط الصخور من هَبُّود (٧٥)

وبالرغم من هذا المنطق السليم ، والنظرية المتكاملة فيما نرى — عثرتُ على قصيدتين من نتاج العصر العباسى الثانى مهّد الشعراء للرثاء فيهما بالغزل ، وبالحديث المرح عن الطبيعة ، ومن يدرى لعل بجانب ذلك قصائد أخرى لم تصل إلينا . أما الأولى فقد انشدها عبد الله بن المعتز فى رثاء الخليفة المعتضد ، ويبدأها بقوله :

صدّت وأغرت طيفها بمتيم إن الفراق لمغرم بالمغرم (٧٦)
وبدت فحسبك من وشاح ناطق كثرت وساوسه وحجل مُفْحَمِ
وكأنّ فاها بعد آخر رقدة متسمِّر بعقار دَنٍّ مُعْلَم

وأما الثانية فقد رثى بها على بن الجهم الخليفة المتوكل ، وقال فى أولها :

وساريةٍ ترتاد أرضا تجودها شغلت بها عينا قليلا هجودها (٧٧)
أتتنا بها الصَّبا وكأنها فتاة تزجّيها عجوز تقودها (٧٨)

وخروج ابن المعتز على التقاليد واضح لا يحتاج إلى تأمل ، وانحراف ابن الجهم ليس فى حاجة إلى تأمل طويل ، فإن استهانته بالمناسبة الخطيرة التى ألقيت فيها القصيدة ، ونعنى مقتل الخليفة على يد جنوده لأول مرة فى تاريخ الدولة الإسلامية — لا يبدو فقط فى البدء بالطبيعة وهى من الموضوعات المرحة ، بل فى تلك الصورة الخليعة التى شبه فيها السحابة بفتاة مغرَّر بها ، وتقودها إلى حضرته عجوز ، خبيرة فى دروب الفتنة والأغراء .

---

(٧٤) طبقات ابن المعتز .

(٧٥) يقدح يفتت ، يقال قدح المرض فى الأسنان إذا تأكلت ، شماريخ جمع شمروخ بضم فسكون ، أو شمراخ بكسر فسكون ، والمراد به هنا قمة الجبل ، وهبود بفتح الهاء ، يليها باء موحدة مشددة اسم جبل .

(٧٦) ديوانه ٤/ ١٦٧ .

(٧٧) ديوانه/ ٥٦ ، سارية سحابة ممطرة ليلا ، ترتاد . تتلمس وتبحث .

(٧٨) تزجيها . تدفعها وتسوقها .

فكيف نفسّر إذن صنيع الشاعرين ؟ لقد اقترح الأستاذ خليل مردم(٧٩) حلا لموقف ابن الجهم فزعم أنه كان يبكى أيام المتوكل السعيدة ، ويشبهها بسحابة ممطرة ، ملأت الأرض ثراء ورخاء ، وهذا رأى لا نتحسس له ، ولذا سوف نلتمس لموقف الشاعرين توجيها آخر ، ملخصه أن كلا منهما كان يبدى شماتة ، وراحة نفسية لموت صاحبه ، ولما كان غير قادرين على إعلان تلك الشماتة بصراحة تامة ، وفى قصيدة أو مقطوعة مستقلّة ، فقد سمحا لهذا القدر المتواضع بالظهور فى مقدمة الرثاء ، إن صحّ أن يسمّى ذلك رثاء ، والشماتة بموت الحاكم معروفة ، ومن ذلك مثلا الأبيات التى أنشدها أبو العتاهية عند موت المهدى ، والتى قال فيها مشيرا إلى نساء الهدى وجواريه :

رُحْنَ فى الوشى وأصبحـ ـن عليهن المسوح(٨٠)
كل نطّاح من الدهـ ـر له يوم نَطوح

وقوله أيضاً فى موت أحد الخلفاء ، ولعله المهدى

مات الخليفة أيها الثقلان فكأنما أفطرت فى رمضان(٨١)

ثم نعود إلى ابن المعتز وصاحبه فنقول : إن الأول كان ناقما على المعتضد لإلقائه إياه فى السجن فترة طويلة من الزمان ، وقصة ابن الجهم مع المتوكل شبيهة بذلك(٨٢) .

على أن فى قصيدة الأخير ما يدل على أنها لم تكن رثاء خالصا ، بل كان فيها إلى جانب ذلك نقمة على الخليفة وبطانته ، وحساب عسير له بعد مقتله ، وانتقاله إلى دار الحساب الحقيقى ، ترى ذلك فى قوله :

---

(٧٩) ديوان ابن الجهم / ٥٦ .

(٨٠) الأغانى / ٣ / ١٧٨ الوشى . الثياب الحريرية المزركشة . المسوح . جمع مسح بكسر الميم وسكون السين المهملة ، وهو ثوب من شعر يلبسه الرهبان والثاكلون .

(٨١) اقرأ أسطورة الزهد للمؤلف .

(٨٢) اقرأ تاريخ الشعر ٢ / ٢٤٨ ففيه مزيد من التفصيل حول ابن الجهم والمتوكل وحاشيته . وكيدها للشاعر ، وهجائه لها .

فياناصر الإسلام غرّك عصبة زنادقة قد كنت قبل أذودها
فلما نأت داري ومال بك الهوى إليها، ولم يسكن إليك رشيدها
أشاع وزير السوء عنك عجائبا يشيد بها فى كل أرض مشيدها

وفى قصيدة ابن الجهم ما يثبت أن الحديث عن السحب والأمطار فيها لم يكن عن رغبة صادقة فى تشبيه أيام المتوكل بها ، بل أن كل ما هناك هو استغلال الطبيعة فى التقديم للغرض الأصلى من القصيدة[٨٣] على نحو ماذكرنا من قبل .

ألا ترى انه انتقل من الحديث عن تلك السحابة السارية إلى التشهير بعدوه عبيد الله بن خاقان وزير المتوكل ، وبجنوده الذين لم يثبتوا فى المعركة ، رابطا بين هذا وذاك ربطا محكما فقال:

فمرّت تسوق الطرف سبقا كأنها جنود عبيد الله ولتّ بنودها[٨٤]
وخـلّت أمير المؤمنين مجدّلا شهيدا ومن خير الملوك شهيدها

(٨٣) اقرأ ص ٨٨ من هذا البحث.

(٨٤) فاعل مرت ضمير يعود على سارية المذكورة أول القصيدة.

الفصل الثاني

أغراض الشعر ومدى ما أصابها من تطور

أخذت أغراض الشعر نصيبها الموفور من تلك الثورة العامة التى أصابت الحياة والأدب فى ذلك العصر. فظهرت أغراض لم يعرف عنها الشعر شيئاً من قبل ولم ينظم شيء منه فيها كالغزل بالمذكر وكذلك الشعر المسمى بشعر الزهد وتوسع الشعراء فى أغراض لم يكونوا يخوضون فيها من قبل إلا قليلا كالخمر والمجون والطبيعة. وتضاءلت بعض الأغراض، وتقلص ظلها كالغزل العذرى لضعف دواعيه وإليك الآن عرض لكل من هذه الأغراض.

الغزل بالمذكر :

بدأ هذا النوع المنحرف من الغزل فى شعر أبى نواس خلال النصف الأخير من القرن الثانى للهجرة. ومنذ ذلك الحين والشعراء يخوضون فيه دون تحرج أو مبالاة ولن نشغل أنفسنا – كما فعل بعض مؤرخى الأدب – بالبحث عن مصدر تلك العدوى الاجتماعية، وهل نزحت إلى العرب من الفرس أو غير الفرس لأن معظم هذه الأراء من باب الرجم بالغيب.

ومهما يكن من أمر فالناحية الجنسية لا تفيدنا فى قليل ولا كثير، وكل ما يعنينا هو مجاهرة أبى نواس بها، وترديده لها فى شعره، مع أنه كان فى وسعه أن ينغمس فى حمأتها ما شاء له شيطانه وانحلاله، وأن يستر بعد ذلك عيوبه كما هى العادة بين المبتلين بهذا الأمر من الناس.

وهذا الشذوذ المزدوج يمكن تفسيره بأحد الأمور التالية أو بها جميعاً.

الأول : أن أبا نواس كان مجنيّا عليه، اعتدى عليه فى طفولته والبة بن الحباب[1] كما تروى بعض كتب الأدب أو غير والبة، فظل بعدها مكبوتاً شاعرا

(١) الأغانى – ج – ١٦ ص ١٤٣، ص ١٤٥ وأخبار أبى نواس لابن منظور ص ١٠ – ١٢

بالهوان والمذلة . ومثل هذا النوع من الشواذ يجد عزاء ولذة كبيرة فى الظهور بمظهر الفحول الذين يستبيحون حمى غيرهم من الضعفاء والمهازيل ، وكثيراً ما يتظاهرون بأنهم أصحاب اليد العليا فى هذه القضية الخاسرة من طرفيها ، ويسرفون فى تعداد أسماء ضحاياهم ومعشوقيهم من الغلمان ، حتى يغيّروا رأى الناس فيهم . وقد نجح أبو نواس من هذه الناحية نجاحاً كبيراً ، فقد نسى عنه كل شيء إلا أنه كان ماجناً خليعاً يهوى الغلمان ويطاردهم ويتغزل فيهم ، وأى شيء يتمناه غير ذلك ؟

والثانى : أنه كان يهوى الغلمان حقاً وينال منهم ، ومجاهرته إذن تكون مجرد تحدٍّ منه للمجتمع أو بعبارة أدق فرار من وخز الضمير . فالخارجون على المجتمع من الشواذ يشعرون بآلام شديدة ، ويتوجسون خيفة من كل نظرة أو ملاحظة يوجهها الناس إليهم ، فإذا كان لدى بعضهم الجرأة أو التوقح الكافى آثر أن يجهر بما يرتكبه ويدافع عن مشروعيته ، ويتحدى الناس به وبذلك يصبح مهاجِماً بعد أن كان مهاجَماً ، ويتخلص نهائياً من الهواجس وآلام التخفى والتستر .

وأمر ثالث يمكن ضمه إلى ما سبق فى تعليل تلك الظاهرة المنكرة ، ونعنى به تملق أبى نواس للأمين وتحببه إليه ، فقد كان الأمين متهما ، وقصصه مع كوثر وغير كوثر من غلمان القصر معروفة [٢] ويقال إن والدته زبيدة حين رأت كلفه بهم زودت قصره بالجوارى وقد ألبستهن زِىّ الغلمان ، عسى أن تصرفه عن هؤلاء إلى أولئك .

أليس من حقنا بعد هذا أن ندعى أن أبا نواس كان بغزله هذا يحاول أن يروج لمذهب الخليفة المنحرف ، وأن يهون عليه وعلى الناس من أمر ذلك الشذوذ ، معتذراً عنه بأن سحر هؤلاء الغلمان وفتنتهم أقوى من أن تقاوم . أليس هذا هو ما يمكن أن نفهمه من مثل قوله [٣] :

أمـــــــا والله لا أشرا حـــلـفت بــه ولا بـطـرا

---

(٢) الطبرى ج – ١٠ – ص ٢١٥ (المطبعة الحسينية) .

(٣) مثل هذا التوجيه لايمكن قبوله إلا فى ضوء ظاهرة تكاد تكون عامة وهى أن الشعر بجميع أقسامه تقريباً حتى مايسمى منه بشعر الزهد كما ستعرف بعد قليل كان مسخرًا لخدمة الحكام ، أو بعبارة أخرى كان يباع ويشترى بالمال .

لو أن مرقشا حى تعلّق قلبه ذكرا
كأن ثيابه أطلع ن من أزراره قمرا

أما عناصر ذلك الغزل فتختلف بعض الشىء عن الغزل بالمؤنث من حيث إن معظمه يدور حول إعجاب الشاعر وافتتانه بالغلمان مع وصف مواضع خاصة من أبدانهم وصفاً ينم عما وراءه من رغبات وضيعة . ويكاد الغزل بالمذكر يكون نهجاً وسطاً بين الغزلين الحسى والعذرى ، بمعنى أنه لا يعف عن ذكر الأوصاف الحسية ، ويدور حول العواطف دوران العذرى ، كما أنه لا يتورط فى ذكر المغامرات مفصلا فيها تفصيل الحسى الفاجر . وربما كان من الخير أن نذكر عدة نماذج تتحدث بنفسها عن خواص ذلك الغزل . قال فى غلام :

يا أيها الريم الذى صادنى بمقلة فى اللحظ حوراء (٤)
وحاجب كالنون قد نمقت فوق حِجاج الغين زجاء (٥)
ألا بريق منك معسولة تشفى مرارتى وأدوائى
إنى غدا من حبكم ميت كعروة من حب عفراء

ويقول فى آخر :

قضيب حين يقبل فى اعتدال فإن ولّى فسائره كثيب (٦)

وقال فى ثالث :

فديت بمن تم فيه الظرف والأدب
ومن يتيه إذا ما مسّه الطرب (٧)
وردفه فى قضيب فوقه قمر
من نور خديه ماء الحسن ينسكب

---

(٤) ديوانه ص ٤٠٣ .
(٥) الحجاج : بحاء مكسورة بعدها جيم جمع حجاج بفتح الحاء وهو العظم الذى ينبت عليه الحاجب
(٦) ديوانه ص ٤٠٨ .
(٧) ديوانه ص ٤١٠ .

كم ساعة منك خطّتها ملائكة
أزهو على الناس بالذنب الذى كتبوا

ويظهر أن أهم ما كان يفتنه من الغلمان اهتزاز أعوادهم ونضارتها كما هو ظاهر من الأمثلة السابقة ومن قوله أيضاً فى غلام :

تفرد بالجمال وقال هذا من الدنيا ولذتها نصيبى[8]
براه الله حين برى هلال وخفّف عنه منقطع القضيب
فيهتز الهلال على قضيب ويهتز القضيب على كثيب

وإن دل مثل هذا على شيء فإنما يدل على تمكن الشر من نفسه واستيلاء الشيطان على معظمه .

شعر الزهد أو التزاهد :

كان أبو العلاء المعرى يقول كلما هم بإنشاد شيء لأبى العتاهية .« قال الداهية أبو العتاهية » ونحن لا يسعنا بعد الدراسة الطويلة لشعره إلا أن نسلم برأى أبى العلاء فيه فقد استطاع أن يضلل الباحثين والنقاد ما يقرب من اثنى عشر قرنا . ولا يزال شعره فى مدارسنا الثانوية بل وجامعاتنا يدرس على أنه منبعث عن زهد أو ما يشبه الزهد مع أنه أبعد الأشياء عن ذلك . حقيقة يتحدث أبو العتاهية عن الموت وما يؤدى إليه من خراب القصور ، وتفرق الخدم والجنود ، ويتحدث عن تفاهة الدنيا ، ويدعو إلى الزهد فيها ، وفى ملذاتها وشهواتها ، وربما تحدث عن الجنة والنار ، وعن القناعة والرضا بالقليل والجود والكرم ، وربما نهى عن الحرص والبخل والشره ، ولكنه رغم ذلك ليس من الزهاد فى قليل ولا كثير ، فحياته الخاصة وتشبثه الشديد بالمال إلى آخر لحظة من حياته تشككنا فى كل ما قاله ؛ فأى إنسان إذن كان هذا الداهية ، وفيم نظمت كل تلك الأشعار ؟

إن المنابع التى تفجر منها ذلك الشعر ، والدوافع التى أعانت عليه يمكن ردها إلى أصول ثلاثة :

---

(٨) ديوانه ص ٤١٢ .

اولها: حقد مركّز على أولى الجاه والسلطان وجميع الطبقات الممتازة فى المجتمع لترفعها عليه بسبب اتضاعه الشديد عنها حيث كان لوالدين تافهين وماالموت فى نظره إلا الطريق الوحيد لإزالة مابين الناس من فوارق وإلغاء ماللسادة من امتيازات وخير مايمثل ذلك قوله:

نصيبك مما صرت تجمع دائبا ... فثوبان من قِبْطِية وحنوط[9]
كأنك قد جُهِّزتَ تُهدى إلى البلى ... لنفسك فى أيدى الرجال أطيط
وصرت إلى دار هى الدار لا التى ... أقمت بها حيّا وأنت نشيط
محل به الأقدام ويحك تستوى ... وصيد كرام سادة ونبيط

وكأنك بتحقير الدنيا، والتهوين من شأنها، وسرعة زوال نعيمها، يريد أن يلفت نظر المتغطرسين من ذوى الجاه إلى أن ماأوتوا من متاع الدنيا ليس بذى خطر عظيم، ومع ذلك فهو سريع الزوال، وشيك الفناء، كما ترى فى قوله:

لدوا للموت وابنوا للخراب ... فكلكم يصير إلى تباب[10]
لمن نبنى ونحن إلى تراب ... نصير كما خلقنا من تراب
ألا ياموت لم أر منك بدا ... أتيت وماتحيف وماتحابى

ثانيها: اتفاقية سرية بين الشاعر من جهة والفضل بن الربيع مع زبيدة زوج الرشيد من جهة أخرى[11] وغاية هذه الاتفاقية أن يطلق العنان لعواطف السخط والكراهية التى يحملها بين جنبيه لذوى الجاه والسلطان، ومن بينهم الرشيد نفسه[12] وتلك النقمة التى تعتلج فى صدره على زينة الدنيا وملاهيها، حتى يقيم الدنيا ويقعدها ضد مجالس الأنس والطرب التى تجمع الرشيد بالجوارى منافسات

---

(٩) ديوانه ص ١٤١.

(١٠) ديوانه ص ٢٣.

(١١) يؤيد هذا أبيات أرسلها الشاعر إلى الفضل بن الربيع عد غضب الرشيد عليه وفيها يقول مذكرا الفضل بتلك الاتفاقية:

أجفوتنى فيمن جفانى ... وجعلت شأنك غير شأنى
ولطالما أمنتنى ... مما أرى كل الأمان
حتى إذا جار الزما ... ن على صرت مع الزمان

الاغانى ج - ٣ - ص ١٣٦.

(١٢) كان سبب ذلك تلكؤ الرشيد فى إتمام ماوعد به من ترويج عتبة له.

زبيدة فى قلب الخليفة من جهة ، وبجعفر البرمكى عدو الفضل بن الربيع ونديم هارون على الشراب من جهة أخرى ، وهذا هو سر ثورته على المتع والشهوات ومجالس الغناء واللهو ، تلك الثورة التى أوحت إليه بمثل قوله:

أيا من باطية ودنٍّ وعود فى يَدَىْ غاوٍ مغنٍّ(١٣)
إذا لم تنه نفسك عن هواها وتحسن صَوْنَها فإليك عنّى
فإن اللهو والملهى جنون ولست من الجنون وليس منّى
وأى قبيح أقبح من لبيب يُرَى متطربا فى مثل سنى

وهذه الاتفاقية أيضا هى سر القصائد والمقطوعات التى كانت تُلْقَى للرشيد فتبكيه ، وتصدع قلبه . ومن أمثلة ذلك ماحكاه الأصمعى من أنه دخل على الرشيد فوجده يبكى وبين يديه قصيدة من شعر أبى العتاهية منها قوله:

هل أنت معتبر بمن خَرِبَتْ منه غداة قضى دساكره(١٤)
وبمن خلت منه أسرته وبمن خلت منه منابره
وبمن أذلّ الدهر مصرعه فتبرأت منه عشائره

لقد كانت زبيدة تريد أن تجعل من الرشيد رجلا عابداً ، زاهداً فى كل شىء من الدنيا سواها ، وأبو العتاهية وشعره وسيلتها إلى ذلك ويظهر أن ماكانت زبيدة تلقى به من مال إلى أبى العتاهية قد أغرى ابنه بأن ينسج على منواله ، فأرهص لذلك بلبس الصوف والاعتكاف فى بيته استعدادا للظهور على المسرح(١٥) ولكن والده الخبير بما تحتاج إليه تلك المهنة من مهارة ولباقة قد نصحه بالاستمرار فى تجارته ، فقد كان بزازا .

ومن عجب أن مؤرخى الأدب يعتقدون أن أبا نواس قد قال ماقاله فى الزهد

---

(١٣) ديوانه ص ٢٥٤ .

(١٤) ديوانه ١٢٣ .

(١٥) زهر الآداب ج – ٢ – ص ٢٢٥ وانظر إلى هذه المحاورة بين أبى العتاهية وولده كما يرويها الحصرى:
« دخل أبو عتاهية على ابنه وقد تصوف . فقال: ألم أكن قد نهيتك عن هذا ؟ فقال وماعليك أن أتعود الخير. فقال . يابنى يحتاج المتصوف إلى رقة حال وحلاوة شمائل ولطافة معنى ، وأنت ثقيل الظل ، مظلم الهواء ، راكد النسيم جامد العينين فأقبل على سوقك فأنها أعود عليك: وكان بزازا » .
ونحن لانرى ضرورة إلى كل هذه الشمائل الحلوة لو كان التصوف خالصاً لوجه الله تعالى .

مخلصاً وعللوا ذلك بأن النفوس مهما كانت شريرة يعتريها أحياناً ميل نحو التوبة ، وندم على المعصية . والحق أن أبا نواس لم يؤمن بشيء من ذلك ولم يفكرّ فيه وأكبر الظن أنه أراد أن يشارك أبا العتاهية فى مال زبيدة كما تدل عليه القصة التالية[١٦] التى يرويها ابن منظور عن أبى مخلد الطائى وفيها يقول «قال لى أبو العتاهية إن أبا نواس لايخالفك ، وقد أحببت أن تسأله ألا يقول فى الزهد شيئاً ، فإنى قد تركت له المديح والهجاء والخمر والرقيق ، ومافيه الشعراء ، وللزهد شوقى . فبعثت إلى أبى نواس ، فجاء إلى وأخذنا فى شأننا ، ثم قلت له : إن أبا اسحق من قد عرفت فى جلاله وتقدّمه . وقد أحب ألا تقول فى الزهد شيئاً . فوجم عند ذلك وقال : ياأبا مخلد قطعت علىّ ما كنت أحب أن أبلغه من هذا . ولاأخالف أبا إسحق فيما رغب إليه» .

وعبارة الراوى واضحة فى أن هناك نوعا من الاحتكار فرضه أبو العتاهية على شعر الزهد ولابد أن يكون وراء هذا الاحتكار مصالح مادية فلو كان خالصاً لله واليوم الآخر ، لما ضاره أن يشركه فيه أهل السموات والأرض لأن خزائن الله تعالى لاتنفد ، وفى المدح بعد ذلك مرتزق واسع لأبى نواس يغنيه عن هذا الباب الذى افتتحه أبو العتاهية ، والطريق الذى مهده لنفسه .

وثالثها : شعور سكن إليه الشاعر ، وفكرة استراح إليها . رتلك أن ينصب من نفسه واعظاً ، ينطق باسم الدين ، ويتحدث بلسان الرسول ، فيقابل بتصفيق العامة واحترامهم ، ومثل ذلك ينسيه أو يقلل على الأقل مما يعانيه من آلام الشعور بالضعة والتفاهة وإلى هذا الدافع يمكن أن يرد كثير من شعره الذى يدور حول الجنة والنار والزهد فى الدنيا وفى المال حين يلقى فى عبارة هادئة شبيهة بعبارة الوعاظ والمرشدين ومن ذلك قوله :

من سالم الناس سلم ... من شاتم الناس شتم[١٧]
من ظلم الناس أسى ... من رحم الناس رحم
من طلب الفضل إلى ... غير ذوى الفضل حرم

(١٦) أخبار أبى نواس لابن منظور ص ٧ . (١٧) ديوان ص ٢٤٢ .

وقوله:

ياعجبا للناس لو فكّروا وحاسبوا أنفسهم أبصروا[18]
وعبروا الدنيا إلى غيرها فإنما الدنيا لهم معبر
الخير ماليس يخفى هو م المعروف والشر هو المنكر
لافخر إلا فخر أهل التقى غداً إذا ضمهم المحشر

وقبل أن نختم حديثنا عن أبى العتاهية هنا نحب أن نلفت النظر إلى أنه كان من أشد الناس تأثراً بالقرآن ومحاكاة له ، ولاغرابة فى هذا مادامت أهدافه الظاهرية على الأقل تتفق مع أهداف القرآن . بل حاول أيضاً أن يكون أسلوبه وعباراته شبيهين بأسلوب القرآن ماوجد إلى ذلك سبيلا فقد روى أنه قال يوما«قرأت أمس سورة النبأ ، ثم قلت قصيدة خيرا منها[19] ولايزعجنا مافى مثل هذه العبارة من صفاقة ، وكل الذى يشغل أذهاننا الآن هو أنها تدل على أنه كان يحاكى القرآن عن قصد . ولعله كان يشير إذ ذاك إلى قصيدته التى يقول فى أولها :

أذلّ الحرص والطمع الرقابا وقد يعفو الكريم إذا استرابا

وإنما ذهبنا إلى ذلك لأن رويها يذكرنا بسورة النبأ .

ومانظن إلا أنه كان يحاول أن يحاكى سورة الناس حين قال:

خذ الناس أو دع إنما الناس بالناس ولابد فى الدنيا من الناس للناس

وكأنه بذلك يحاول أن يثبت قدرته على تكرار كلمة الناس خمس مرات فى بيت واحد ، كما كررت مثل هذا العدد فى سورة قصيرة . هذا عدا اقتباسه الكثير من القرآن .

ولعل جرأة أبى العتاهية على قوله السابق تعود إلى ماكان من شيوع روح التمرد الدينى بين أمثاله من الأدباء ، مع زوال تلك الرهبة التى كانت تحيط

---

(١٨) ديوان ص ١٠١

(١٩) الأغانى ح - ٣ - ص ١٣٧ .

بالقرآن على أثر المباحث التى أثارها علماء الكلام حوله ؛ حين بحثوه من ناحية الحدوث والقدم وتساءلوا عن إعجازه ، وعما إذا كان يرجع إلى أسلوبه ، أم إلى صرف الله الناس عن أن يأتوا بمثله .

الخمر والمجون:

يظهر أن أبا نواس كان يعانى آلاما مرة تنطق بها الأبيات التالية:—

ومايعرف الليل الطويل وغمه   من الناس إلا من تنجّم أوأنا[٢٠]
خليوّن من أوجاعنا يعذلوننا   يقولون: لم تهوون؟ قلنا: لذنبنا
يقومون فى الأقوام يحكمون فعلنا   سفاهة أحلام وسخرية بنا
فلو شاء ربى لابتلاهم بما به ابـ   ـتلانا فكانوا لاعلينا ولالنا

فإن فيها شكوى صارخة مكبوتة غلبت أبا نواس الماجن ، المغالط لنفسه وللناس حين يخدعها ويخدعهم عن حقيقة أمرها ؛ فظهرت هنا فى مطلع إحدى مدائحه بالغزل . وهذه الآلام والعواطف المكبوتة الشعورى منها واللاشعورى ، هى التى كانت تدفع بالشاعر إلى الخمر يعب منها ويغرق فى لجتها أوصابه وأسقامه ، أما منشأ هذه الآلام فربما كان من الصعب التعرف عليه ، سوى إن شذوذه الجنسى لابد وأن يكون له صلة بتلك الآلام .

والقارئ لأشعار أبى نواس فى الخمر يوقن بأن تعاطيها كان يهيئ الجو الملائم لظروفه الشخصية تمام الملاءمة ، فأنه فضلا عن السلوى والنسيان والنشوة التى يشعر بها شاربها ، تجمعه بسقاتها من الغلمان ، وهناك يتقلب فى أعطاف الرذيلة مااتسع له الوقت والمال والأبيات التالية تمثل بعض أهدافه من الذهاب إلى الحانات:

وأحور ذمى طرقت فناءه   بفتيان صدق ماترى منهم نكرا[٢١]
فأطلق عن أبوابه غير هائب   وأطلع من أزراره قمرا بدرا

---

(٢٠) ديوان ص ٧٥ .
(٢١) ديوان ص ٢٨٦ .

ومر أمام القوم يسحب ذيله يجاذب منه الردف فى مشيه الخصرا
فقلت له ماالاسم حُيِّيتَ قال لى: دعانى أبى سابا ولقبنى شمرا
فكدنا جميعا من حلاوة لفظه نُجن ولم نسطع لمنطقه صبرا
وجاء بها والليل ملق سدولَه مدلّا بأن وافى محيطا بها خبرا
فما زال يسقينا ويشرب دائبا إلى أن تغنى حين مالت به سكرا
فياحسنه لحنا بدا من لسانه ويا حسنه لحظا ويا حسنه ثغرا
فقمنا إليه حين نام وأرعدت فرائصه تجرى بميدانه ضمرا
فلما رأى أن ليس عن ذاك مخلص ووافقه لين أجاد لنا العصرا

ويظهر أن أبا نواس كان من أنصار المتعة الحسية فإنا نراه حتّى فى مدحه يعلن عن تلك الظاهرة عنده دون أن يشعر ؛ كما فى قوله يمدح الرشيد .

ملك تطيب طباعه ومزاجه عذب المذاق على فم المتذوق

وقد عرفنا فيما سبق أن الخمر احتلت عند أبى نواس كثيراً من مطالع مدائحه ومع ذلك فقد وقف عليها قصائد ومقطوعات رائعة من شعره . ولانجد تعليلا لمثل ذلك الهذيان سوى ماأشار إليه حين قال :

ألا فاسقنى خمراً وقل لى هى الخمر ولاتسقنى سراً إذا أمكن الجهر(٢٢)

ونعنى بذلك أن شدة تعلقه بها تجعله حريصا على أن يعيش معها دائماً إن لم يكن شاربا كارعا فلاهجا بذكرها مسبحاً بحمدها .

والخمر كل شيء فى حياة أبى نواس ولايزحمها فى ذلك سوى الغلمان فإذا حج فليس إلى كعبة المسلمين حجه ولاحولها طوافه ولكن إلى حانتها يسعى ، وأمام معبدها يصلى ر

حَجّ مــثلى زيــارة الخمار واقتنائى العَقارَ شرب العُقاد(٢٣)

والقارئ لأشعاره فيها يعجب لكثرة ماأورده فيها من معان وماألحقه بها من أوصاف فقد أسرف فى وصف سقاتها وأدواتها ولونها ومايعلوها من حباب وأثرها

(٢٢) ديوان ص ٢٧٣ .
(٢٣) ديوان ص ٣٥٥ .

فى الشارب إلى غير ذلك من أمور لايصعب الوقوف عليها ، ولذا نرى ألا نضيع الوقت فى الحديث عنها بالتفصيل ، ولكن شيئاً واحداً يجب أن نلفت الأنظار إليه وذلك عرضه لها فى صورة العروس فى كثير من الأحيان وجعل ذهابه لشربها كذهاب الخطيب إلى خطيبته وذلك حين يقول:

لما أتيت الدهقان أخطبها ... من بين أصهارها وأحماها[٢٤]
قال من الخاطبون قلت له ... فتيان صدق فقال أكفاها
حتّى إذا حطها وأنزلها ... وفك عنها الختام فدّاها

أيمكن أن يقال فى تفسير ذلك أنه حرم الزواج الرسمى بتقاليده وأفراحه المعروفة ، ولذا يجد فى الحديث عن الخطبة وفض الختام تعويضا عما فاته؟ إن دراسة حياته بالتفصيل قد تجيب على هذا السؤال.

وإذا كان أبو نواس إماماً فى الخمر والغزل بالمذكر إمامة تجعل الحديث عنه حديثا عنهما ، فإنه قد تخلف فى المجون تخلفاً شديداً ، رغم ادعائه أو طموحه إلى السبق فيه . ولعل السبب فى ذلك أنه كان يمزج مجونه بالغزل المنحرف ، وذلك وإن خف على أسماع بعض الناس ، فإنه ثقيل بغيض إلى الطبائع السليمة . وإن شئت فاسمع إليه يتماجن متحدثاً عن غلام.

وغزال زان بالقا ... مة ردفا بربريا[٢٥]
قاده إبليس طوعا بعد ... ما كان عصيا
فسقيناه على الور ... د شراباً ذهبياً
فكشفنا على بياض الرد ... ف ثوبا قصبيا
فوجدنا خلفه دِعصا ... من الثلج نقيا
فركبناه بلا سر ... ج ركوبا مرزويا
وحمدنا السير لما ... أن وجدناه وطيا

هل رأيت كلاماً أسمج من هذا؟ إن كل مايمكن أن يعتذر به عن مثل هذا

---

(٢٤) ص ٢٤١.
(٢٥) ص ٣٥٤.

المجون أنه لم يقل للجمهور ولكن لطائفة خاصة ، هى طائفة الرقعاء من أمثال أبى نواس .

أما المجون الذى يضحك ولايؤذى فيمكن أن نلتمسه عند شعراء الأجيال اللاحقة من أمثال أبى الحسن محمد بن عبد الله بن سكرة الهاشمى ، وأبى عبد الله الحسن بن أحمد بن حجاج بالعراق وأبى الرقعمق أحمد بن محمد الأنطاكى بالشام . وأبى عبد الله محمد بن مسعود بالأندلس[٢٦] وترجع خفّته على القلوب والأسماع إلى بعده عن الموضوعات المخجلة التى ظهرت عند أبى نواس ، ويهدف أصحابه إلى إضحاك أنفسهم والناس حتى لو كان ذلك على حساب وقارهم وسمعتهم .

والأطعمة والأشربة من أهم الموضوعات التى خاض فيها أهل المجون[٢٧] ولانجد تعليلا لذلك إلا مانعتقده من أن المجون نوع من الشذوذ ، يلجأ إليه مرضى الأعصاب وأشباههم من كل منغّص فى حياته للتنفيس عن أعصابهم المتعبة ونفوسهم المحزونة . ولما كان الطعام عند بعض الناس وسيلة سهلة وقريبة لتخدير الأعصاب وتهدئة النفس ، فقد أكثروا من الخوض فيه .

أما السبب فى كثرة أهله وارتفاع أصواتهم إذ ذاك فيرجع إلى عوامل شخصية كتلك التى أشرنا إليها ، وعوامل اجتماعية وسياسية ؛ أهمها ميل المجتمع العربى المغلوب على أمره إلى اللهو والمرح شأن المجتمعات المتحضرة المنحلة ، الجادة فى البحث عن سعادتها أو راحتها النفسية والروحية بأى ثمن وبأية وسيلة .

وإذا كان هذا الميل إلى اللهو والمرح قد ترك صداه عند الرومان فى المصارعة ونحوها من ألوان العبث ووجد اليوم متنفسا فيما شاع بيننا من تمثيل هزلى ، فإنه أثناء تلك العصور قد وجد فى الشعر العربى أيسر أداة لتحقيق أهدافه . وأكبر الظن أن كثيراً من أشعار المجـون كانت تنظم وتنشد بقصد إضحاك الرؤساء

---

(٢٦) اقرأ للثعالبى فى يتيمة الدهر للثلاثة الأول ، ولابن بسام فى الذخيرة للرابع .

(٢٧) ويليها الحديث عن الصفع والضرط ونحوه من الأمور المضحكة . فإذا ماتعرضوا لذكر الفواحش بدا من حديثهم قصد الدعابة الذى يخف من سماجتها كما ترى فى هجاء الواسانى لابن أبى أسامة . وقد ذكرناه فى الفصل الخاص بالهجاء .

والأفراد ونيل جوائزهم[٢٨] وقد روى لنا التاريخ أسماء بعض الخلفاء الذين اتخذوا المضحكين من الشعراء لتسليتهم وأحاديث أبي دلامة مع خلفاء بني العباس مشهورة ، ولهم مع أمثاله أمثالها ، فليرجع إليها من شاء فى كتب الأدب والتاريخ . وفى مروج الذهب طرف صالح منها .

وربما انتهز بعض السادة مع الوزراء وأشباههم إحدى الفرص المواتية ليجعلوا من الشعر مادة فكاهة وتسلية . ومن ذلك ماأخبرنا به الثعالبى[٢٩] من أن الصاحب بن عباد أوعز إلى الندماء المقيمين فى حضرته أن يعزوا أبا عيسى بن المنجم حين نفق برذون له كان الصاحب قد حمله عليه . وقد لبى هذه الدعوة الكريمة عدد غير قليل من الشعراء . وإليك عدة أبيات مما جادت به قريحة أبي القاسم بن أبي العلاء فى تلك المناسبة ، والتهكم والمجون فيه غير خفى وفيه يقول :

بكته جلال[٣٠] الخزو وانتحبت له ... مخالى حرير رُخْنَ منه عطولا
أقام عليه آل أعوج[٣١] ... وأعلى له آل الوجيه عويلا
ففى كل اصطبل أنين وزفرة ... تردّد فيه بكرة وأصيلا
ولو وفَّت الجرد الجياد حقوقه ... لما رجعت حتّى الممات صهيلا
ولو أنصفته الخيل ماذقن بعده ... شعيراً ولاتبناً ومتن غليلا

ومازال هذا الفن يستشرى ويستفحل ويزداد إعجاب الناس به ورضا الرؤساء عنه بل وإثابتهم عليه حتى رأيناه يحتل مطالع القصائد عند المداحين من أهل المجون وقد ذكرنا نموذجا لذلك عند الحديث عن بناء القصيدة .

وينبغى ألا ننسى أن اضطراب الدولة ، واستبداد الأجانب من ترك وفرس وأشباههم بشئونها ، مع تطامن الحق وانكماشه ، واستعلاء الباطل واختياله قد

(٢٨) يؤيد ذلك مارواه الثعالبى من أن ابن حجاج إمام أهل المجون فى عصره كان مكرما من أهل الجاه والسلطان «وكان طول عمره يتحكم على وزراء الوقت ورؤساء العصر تحكم الصبى على أهله» يتيمة الدهر ج – ٣ – ص ٢٦ .

(٢٩) يتيمة الدهر – ج – ٣ – ص ١٩٤

(٣٠) الجلال . أكسية الدواب .

(٣١) أعوج فرس لبنى هلال ينسب إليه جياد الخيل والوجيه من الخيل · الذى تخرج يداه معا

ملأ صدور بعض الناس أسى ، ودفع آخرين إلى السخرية من أنفسهم ومن الزمن بتلك الحيلة البريئة المأمونة العواقب . وإليك بعض أمثلة لما قيل فى تلك الفترة من مجون ونبدأ بأبيات قالها ابن حجاج وقد رأى كلاب عز الدولة بختيار تطعم لحوم الجداء :

رأيت كلاب مولانا وقوفاً ... ورابضة على ظهر الطريق
فمن ورد له ذنب طويل ... يعقِّفه ومهلوب خلوقى[٣٢]
تغذّى بالجدا فوددت أنى ... وحق الله خركوش سلوقى
فيا مولاى رافقنى بكلب ... لآكل كل يوم مع رفيقى
أرى القصاب قد أضحى عدوى ... لشؤم البخت والملح صديقى
جفانى اللحم وهو شقيق روحى ... فمن يعدى على ذاك الشقيق

أما أبو الرقق فيقول قصيدة يعجب فيها بنفسه وبأنه كان قواداً حاذقا :

فأطيب العيش ماكان عندى ... أيام كلفسق قلّدونى[٣٣]
وكنت طبا به بصيرا ... وأقود الناس فى سكون
والناس يسعون نحو دارى ... من كل أرض ويقصدونى

ومن أشعار ابن مسعود فى هذا الباب :

جنبونا سجية العشاق ... ودعونا من الهوى والتلاقى[٣٤]
وأقلوا من البكاء على الرسـ ... ـم ولاتأسفوا غداة الفراق
مابشخص الحبيب يفرح ذو العقـ ... ـل ولا بالخدود والأحداق
إنما الملك ثردة من بقايا ... من دجاج مسمّنات عتاق
وإذا قيل لى بمن أنت صب ... وعلام انسكاب دمع المآقى
قلت: بالسكباج والجمليا ... تورخص الشواء معا بالرقاق
وجشيش السميذ أعذب عندى ... من رضاب الحبيب عند العناق

(٣٢) ورد : يميل إلى الحمرة ، يقصفه : يطويه على هيئة دائرة ، مهلوب : مقطوع الذنب : خلوقى بفتح أوله يميل لونه إلى الصفرة .

(٣٣) يتيمة الدهر للثعالبى ج – ٣ – ص ٥٠ .

(٣٤) نفسه ج – ١ – ص ٢٨٦ .

درس هذا الموضوع باسهاب فى الجزء الثالث من تاريخ الشعر .

الطبيعة :

عرف الجاهليون الطبيعة وأحبوها وأكثروا من القول فيها فوصفوا القفار والجبال ، كما وصفوا السيول والأمطار وما ينبت عليها من أعشاب ونحوها وكان أكثرهم وصفاً لها امرؤ القيس الذى وهب نفسه ووقف ملكته على متع الشباب المختلفة من غزل وخمر وصيد وخيل وتجوال بين أعطاف الطبيعة وتغنّى بكل ذلك فى شعره ، ولم يحطم قيثارته إلا الموت ، وإن تغيرت نغماتها بعد مقتل أبيه فصار فيها حزن مختلط بالجد . ولا تكاد تخلو قصائده الكبرى من ذكر الصيد والخيل والطبيعة ، وأبياتها فى ختام معلقته من أجمل ما عرف فى الشعر الجاهلى خاصًّا بوصف الطبيعة وقد اقتدى به أئمة مدرسة الصنعة فى العصر الجاهلى من أمثال زهير وأوس بن حجر . ولكن الطبيعة أخذت تتطور فى العصر العباسى فى نفس الاتجاه الذى تطورت إليه الحياة العامة والآداب .

فارتدت ثيابا إنسانية لم يكن لها بها عهد فى العهدين الأموى والجاهلى وقد رأينا صورة من ذلك فى شعر أبى تمام وابن شُهيد حيث شبهوها بالنساء ثيبات وأبكارا . ولكن أهل الأندلس كانوا أكثر نجاحا وتوفيقاً فى ذلك من شعراء الشرق . ومأثور أشعارهم فى ذلك الباب أرق وأبرع ، ويظهر أن شعورهم بالطبيعة وامتزاجهم بها كان أقوى وأعمق . وإليك أبياتا يتحدث فيها جعفر المصحفى حديثاً لا تدرى أهو عن سفر جلة كما يخبرنا هو ، أم امرأة كما تحدثنا الأبيات نفسها وطريقة نسجها .

ومصفرة تختال فى ثوب نرجس ... وتعبق عن مسيك زكىٍّ التنفس(٣٥)
لها ريح محبوب وقسوةقلبه ... ولون محب حُلَّةَ السقم مكتسى
فصفرتها من صفرتى مستعارة ... وأنفاسها من طيب أنفاس مؤنسى
فلما استتمت فى القضيب شبابها ... وحاكت لها الأنواء أبراد سندس
مددت يدى باللطف أبغى اقتطافها ... لأجعلها ريحانتى وسط مجلسى
وكان لها ثوب من الزغب أغبر ... يرفّ على جسم من التبر أملس

---

(٣٥) الشعر الأندلسى (غرسيه عوس)ص ٩٠ الحلة ص ١٤٤ .

فلما تعرّت فى يدى من لباسها ولم تبق إلا فى غلاله نرجس
ذكرت بها من لا أبوح بذكره فأذبلها فى الكفِّ حرَّ تنفسى

وإليك أبياتاً أخرى للطليق المروانى تبين مدى ما كان من امتزاج بين أنفسهم وبين الطبيعة من جهة ، وتشابه بينها وبين المرأة من جهة أخرى(٣٦) .

ودّعت من أهوى أصيلا ليتنى
ذقت الحمام ولا أذوق نواه
فوجدت حتى الشمس تشكو وجده
والورق تندب شجوها بهواه
وعلى الأصائل رقة من بعده
فكأنها تلقى الذى ألقاه
وغدا النسيم مبلغاً ما بيننا
فلذاك رقّ هو وطاب شذاه
ما الروض قد مزجت به أنداؤه
سحراً بأطيب من شذى ذكراه
الزهر مبسمه ونكهته الصبا
والورد أخضله الندى خداه
فلذاك أُولع بالرياض لأنها
أبداً تذكرنى بمن أهواه

وهذا الشبه الذى تصوَّروه بين الطبيعة والمرأة وتلك العواطف المتبادلة بينهم وبين الطبيعة هو الذى مهد لظهور الطبيعة فى المطالع كما ذكرنا فى غير هذا المكان .

وليس هنا من تعليل لاختلاف مذهب القدامى عن المحدثين من حيث وقوف الأوائل عند حدود الصورة الظاهرية للطبيعة ، والربط بينها وبين العواطف الإنسانية عند الأواخر سوى ما قدمناه من ميل الجاهليين إلى التصوير(٣٧) :

---

(٣٦) نيكل ص ٣٧ .

(٣٧) كان القدامى يعيشون على هامش الحياة . ولايكادون يتغلغلون ببصائرهم وراء ماتقع عليه أبصارهم من تلك القشرة السطحية للعالم الذى يعيشون فيه .

ونضيف إليه اليوم خضوع الطبيعة فى بوتقة العقلية الحديثة لما خضعت له معظم مظاهر الحياة نتيجة للعلم والحضارة ، الذى يميل إلى تعمق الأشياء ، والربط بين بعضها وبعض ، وتعليل ما لم يكن يحتاج منها إلى تعليل عند القدامى إلى غير ذلك من آثار تقدم العلوم والفنون . فقد رأى الأوائل ثمار الفواكه التى كانوا يعيشون عليها تسقط دائماً إلى الأرض وحدها ، ولكن أحداً منهم لم يفكر يوماً من الأيام فى سبب سقوطها نحو الأرض ، حتى وقف منها أحد أقطاب العلم الحديث موقف الناقد البصير ، وربط بينها وبين جاذبية الأرض . ومثل ذلك يمكن أن يقال فى الأدب والشعر فقد مر شعراء العصرين الجاهلى والأموى آلاف المرات على الأزهار مصفرها ومحمرها دون أن يلاحظوا فى ذلك شيئاً سوى جمال منظرها وتضوع شذاها ، حتى إذا جاء العصر العباسى بعلمه وثقافته وفلسفته . نضج العقل الإنسانى ، وأصبح يربط بين مظاهر الطبيعة المختلفة ، فيرى شبها بين صفرة الوجه من أثر الشوق ، والصفرة الطبيعية فى الورود والأزهار ، ويحس فى النسيم رقة واعتلال فيخيَّل إليه ، أو بعبارة أدق يخَيِّل إلى الناس أنه يعانى من الشوق إلى الحبيب مثل ما يعانيه ، فأصيب بما أصيب به الشاعر من رقته وضعف كما رأينا عند الطليق المروانى ، أو يتوجع للشاعر فلقى من البلاء ما لقيه كما ترى فى قول ابن زيدون :

إنى ذكرتك بالزهراء مشتاقا والجو طلق ووجه الأرض قد راقا (٣٨)
وللنسيم اعتلال فى أصائله كأنما رق لى فاعتل إشفاقا

هذا وينبغى أن نشير إلى ما كان من اتساع هذا الفن اتساعا كبيراً لم يقف عندما أشرنا إليه من احتلال صدور القصائد ، بل قوى سلطانه على النفوس حتى غلب على بعض الشعراء كابن خفاجة بالأندلس والصنوبرى بالشام . أما الأول فلا يكاد يرى له شعر فى غير الطبيعة ولسنا ندرى من ظروفه الآن ما يعين على معرفة الأسباب التى انتهت به إلى ذلك سوى أمرين اثنين أما أولها . فنشأته فى جزيرة شقر على الساحل الشرقى للأندلس وهى تتمتع بما يتمتع به حوض البحر الأبيض المتوسط من سماء مشرقة ، وجو دفىء . هذا إلى إحاطة البحر بها ، وكثرة رياضها وزرعها .

(٣٨) ديوان شرح كيلانى ص ٢٥٧ .

أما السبب الثانى فاضطراب الحال السياسية ، وتزعزع ملك المسلمين بالأندلس ، واضطراب الدولة كاضطراب حال الأسرة تدفع أفرادها للبحث عن هواية من الهوايات يشغلون بها أنفسهم . وينسون بها آلامهم فيتجه بعضهم إلى الرياضة البدنية ، وينصرف بعض آخر إلى المقاهى ، أو دور الخيالة أو الخمر أو ما إلى ذلك ، وهذا هو السبب فيما تدّعيه من أن الحال السياسية المضطربة كثيرا ما تكون مسئولة عن الاتجاهات الأدبية المختلفة من مجون وخمريات حينا ، ووصف للطبيعة أحياناً لأن فى كل منها انصرافا عن الحياة العامة وهربا من التفكير فيها أو الاتصال بها .

شعر الخصومات : لعل هذه أقرب تسمية إلى ذلك النوع من الشعر الذى ظهر أول ما ظهر أثناء العصر الجاهلى فى معلقة الحرث بن حِلِّزة ؛ فهو ليس فخراً لأن الفخر لا يهتم إلا بمواقف المفاخر وأمجاد قبيلته . أما معلقة ابن حلزة ففيها شىء كثير من المنطق والجدل وإقامة الحجة على سلامة موقف أحد الخصمين ، وعدوان الطرف الآخر كما ذكرنا سابقا . وكان هذا النوع من الخصومات فى العصر الجاهلى بين بعض القبائل وبعض فلما جاء الإسلام اتسع هذا النوع من الشعر ، واصطبغ بصبغة سياسية دينية ، حيث صار بين الرسول وصحبه من جهة ، وقريش ومن معها من جهة أخرى . وخمدت فى الوقت نفسه الخصومات بين القبائل ولو إلى حين . حتى إذا جاء العصر الأموى عادت الخصومات بين القبائل إلى أشد مما كانت عليه ، كما ترى فى شعر جرير وخصومه ، ونهض إلى جانبها نوع من الخصومات يمكن أن نسميها الخصومات السياسية أو الحزبية فظهر الحزب الزبيرى والأموى والهاشمى. وكان لكل منها شعراؤه دعاته ولم يعمّر الأول طويلا فاضطر شاعره الرسمى عبيد الله بن قيس الرقيات أن يدخل فيما دخل فيه الناس وأن يهادن بنى أمية رضى أم سخط .

وفى عهد بنى العباسى اتسعت الخصومة القبلية فبعد أن كانت تنشب بين القبلية وجارتها أو منافستها كما حدث فى العهد الأموى ، صارت تشمل عرب الشمال جميعا ، وعرب الجنوب ، حيث وقف هؤلاء ضد أولئك فى خصومة

كلامية حمل أبو نواس لواءها ، وما أكثر ما حمل من ألوية فى ذلك العصر ومن أمثلة ذلك قصيدته المشهورة التى يقول فيها مفتخراً بعرب الجنوب:

فافخر بقحطان غير مكتئب ... فحاتم الجود من مناقبها[٣٩]
ولاترى فارسا كفارسها ... إذا زالت الهام عن مناكبها
عمرو وقيس والأشتران وزيـ ... ـد الخيل أسد لدى ملاعبها
بل مل إلى الصّيد من أشاعثها ... والسادة الغر من مهالبها
هل يغسلن عن نسائهم ... ما أفرغ الأزد فى كعائبها؟

ويأخذ بعد ذلك فى هجاء القبائل العدنانية واحدة بعد الأخرى ، متعرّضا لتميم وقيس عيلان وأسد وبكر وتغلب والنمر وقاسط ، متفضّلا على كل منها بمذمّة أومنقصة ؛ ليكون ذلك بإزاء مانسبه إلى قحطان من مفاخر وأمجاد ، وليس بعجيب أن يطيل الرشيد حبسه فيها ، حيث ينتسب الخليفة نفسه إلى قبائل الشمال .

ولسنا نعتقد أن مجرد ولائه لليمن ، أو إغداق اليمنيين عليه ، كان كافيا لهذه الثورة العارمة ، وأقرب من هذا لحقائق الأشياء أن يقال: إن الرّجل كان حانقا على الجنس العربى ، لكونه مجهول النسب ، تافه الحسب فيهم ، وهم قوم يسرفون فى تقدير أنفسهم ، ويتطاولون على الناس بأحسابهم وأنسابهم . وهذا هو سر ماكان منه من ميل إلى الفرس وهجرم على العرب كما يبدو من قوله:

ولفارس الأحرار أنفَسُ أنْفُسٍ ... وفخارهم فى عشرة معدوم[٤٠]
نادمتهم أرتاض فى آدابهم ... فالفرس عدوى سكرهم محسوم
وإذا أنادم عصبة عربية ... بدرت إلى ذكر الفخار تميم
وعَدَتْ إلى قيسٍ وعَدَّت قوسها ... سبيت تميم وجمعهم مهزوم
وبنو الأعاجم لا أحاذر منهم ... شرا فمنطق شربهم مذموم[٤١]

---

(٣٩) ديوانه ص ١٥٦ .

(٤٠) ديوانه ص ٣٣٢ .

(٤١) يعنى أنهم لايحمدون الثرثرة على الشراب .

لايبذخون على النديم إذا انتشوا   ولهم إذا العرب اعتدت تسليم[٤٢]

وأبيات أبي نواس هذه تذكرنا بنوع آخر من الخصومات ونعنى به ذلك الذى نشب بين العرب والموالى الداخلين فى الإسلام من فرس وغيرهم وسمى بالشعوبية ، فقد أنف هؤلاء الموالى من تعالى العرب عليهم . وبدأ شعراؤهم فى العصر الأموى يردون على ذلك التعالى ، مفتخرين بأحسابهم وماكان لدولهم من ماض مجيد . ومن هؤلاء فى عهد بنى أمية إسماعيل بن يسار ويزيد بن ضبة ، وقد كان من تعصب الأول للفرس أن مدحهم فأسرف فى المدح أمام هشام بن عبد الملك فى قصيدة لم يذكر فيها شيئالهشام ، مما أغضب الأخير ؛ حتى أمر بأن يُغَطّ فى الماء ، ففعل به ذلك حتى كادت تخرج روحه ، ومما قاله فى ذلك اليوم المشئوم :

إنى وجدّك ماعودى بذى خَوَر   عند الحفاظ ولاحوضى بمهدوم[٤٣]
أصلى كريم ومجدى لايقاس به   ولى لسان كحد السيف مسموم
من مثل كسرى وسابور الجنود معا   والهرمـــزان لفـخر أو لتعظيم
أسد الكتائب يوم الروع إن زحفوا   وهم أذلوا ملوك الترك والروم

وأما فى العصر العباسى فقد قويت شوكة الفرس وشعرائهم ؛ لمكانتهم الرفيعة فى الدولة ، واشتراكهم فى السياسة العليا لها . وكان من آثار ذلك أن جهر شعراؤهم بمهاجمة العرب والتهكم بهم ، وكانوا قديما لايطمعون فى أكثر من الإشارة إلى مجدهم السابق ، ويلقون على ذلك نكالا شديداً . وكان من أشد الشعراء تعصباً للفرس بشار بن برد ، والمتوكلى من قدماء المتوكل العباسى ، ومما قاله الأول فى هذا الصدد لبعض الأعراب ، وقد فخر عليه :

أحين كُسيت بعد العُرْى خزّا   ونادمت الكرام على العُقار[٤٤]
تـفـاخـر يابن راعيـة وراع   بنى الأحرار حسبك من خسار
وكنت إذا ظمئت إلى قراح   شركت الكلب فى ولغ الإطار

(٤٢) بذخ كفرح . تكبر.
(٤٣) الأغانى - ح - ٤ - ص ١٢٤ .
(٤٤) نفسه - ح - ٣ - ص ٣٣ .

ومما قال الأخير:

فـقـل لـبنى هـاشم أجـمعين هلموا إلى الخلع قبل الندم(٤٥)
مـلـكـنـاكـم عـنوة بـالرما ح طعنا، وضربا بسيف حذم
وأولاكـم الملك آبـاؤنـا فما إن وفيتم بشكر النعم
فعودوا إلى أرضكم بالحجاز لأكل الضباب ورعى الغنم
فـأنى سـأعلوا سرير الملوك بحد الحسام وحرف القلم

ولعل القارئ لهذه الأبيات، يرى البون الشاسع بينها وبين ما كان يقال فى العصر الأموى من أشعار فى هذا الصدد.

أما الشعر السياسى أو الحزبى، فقد ظل قويا وإن اختلف عن سلفه فى العصر الأموى من عدة وجوه

أولا: ضعفت فيه نزعة التحمس والتطرف التى كنا نراها عند الكميت وابن قيس الرقيات.

ثانيا: قل عدد الأطراف المعنية بتلك الخصومات فى هذا العصر، حيث انتهى الحزب الأموى بانتهاء دولته، كما حدث للحزب الزبيرى من قبل. ولم يبق فى الميدان إلا العباسيون ومعارضوهم من العلويين وكان لكل حزب دعاته من الشعراء. وعبد الله بن المعتز العباسى كان من أكثر الناس دفاعا عن أسرته وهجوما على العلويين، ولا يضعف من قدر ذلك الشعر إلا ما كان من اختلاطه بالشكوى والفخر. الأمر الذى جعله يبدو وكأنه أثر من آثار النزاع الشخصى بينه وبين أبناء عمومته ومع أن أنصار بنى العباس من الشعراء فيما عداه كانوا طلاب أموال فإن بعضهم ربما احتج لسادته فأحسن الاحتجاج وبلغ من ذلك مايريدون كما ترى فى مثل قول مروان بن أبى حفصة يخاطب العلويين:

خَلّوا الطريق لمعشر عاداتهم حَطْمُ المناكبِ يوم كلِّ زحام(٤٦)
وارضَوْا بما قسم الإله لكم به ودَعُوا وراثةَ كل أصيد حامى

---

(٤٥) الولغ بفتح فسكون أن يتناول الكلب الماء بلسانه، والإطار: خشبة المنحل وغيرها مما يحيط بسواه فلعله يشير إلى جدران الأوانى حين يلعقها الكلب تاريخ الشعر السياسى ١٩٦.

(٤٦) ضحى الإسلام - ج - ٣ - ص ٣١٢.

أنّى يكون وليس ذاك بكائن   لبنى البنات وراثة الأعمام

وإذا كانت هذه الأبيات تمثل الواقع المرير الذى وجد العلويون أنفسهم أمامه ، وتذكرهم بثوراتهم الفاشلة ضد الأمويين والعباسيين . وأخيراً تكاد تفحمهم بما تشير إليه من قوانين الميراث ؛ فإن الأبيات التالية للسيد الحميرى تمثّل العواطف التى كانت تجيش فى صدور العامة لحفدة الرسول من أبناء على وفاطمة . وهى عواطف لها تأثيرها العميق على النفوس .

إذا أنا لم أحفظ وصاة محمد
ولا عهده يوم الغدير المؤكدا (٤٧)
فأنى كمن يشرى الضلالة بالهدى
تنصّر من بعد الهوى وتهوّدا
ومالى وتَيْم أو عَدِىّ وإنما
أولو نعمتى فى الله من آل أحمدا
تتم صلاتى بالصلاة عليهم
وليست صلاتى بعد أن أتشهدا
بكاملة إن لم أصل عليهمو
وأدع لهم ربّا كريما ممجدا
بذلت لهم ودى ونصحى ونصرتى
مدى الدهر ما سميت ياصاح أحمدا
وإن امرأ يَلْحى على صون ودهم
أحق وأولى منهم أن يفندا
فإن شئت فاخترعا جل الغم ظلة
وإلا فأمسك كى تصان وتحمدا

ولعل القارئ يلاحظ أن الشاعر يكاد يشمل العباسيين أيضا بمدحه وولائه حيث إنهم من أسرة الرسول التى يتغنى بحبها ومحامدها . وفى الحقيقة إن حملة السيد

(٤٧) تاريخ الأدب العربى فى العصر العباسى ص ٣٥١ .

الحميرى لم تكن موجهة ضد العباسيين بقدر ما كانت موجهة ضد الخلفاء الراشدين الثلاثة السابقين لعلى ؛ لحيلولتهم دون توليه الخلافة .

ولكن الشاعر الذى يشبه الكميت تماما من حيث الحملة على الأسرة الحاكمة هو دعبل الخزاعى الذى هاجم خلفاء بنى العباس بقدر ما أشاد بذكر بنى على وتوجع لهم ، ومن ذلك قوله فى المأمون :

أيسومنى المأمون خطة عاجز ... أو ما رأى بالأمس رأس محمد[48]
إن من القوم الذين سيوفهم ... قتلت أخاك وشرفتك بمقعد[49]
شادوا بذكرك بعد طول خموله ... واستنقذوك من الحضيض الأوهد

وترى له إلى جانب ذلك شعراً عاطفيا رقيقا فى بنى على مثل قوله :

قفا نسأل الدار التى خَفَّ أهلها ... متى عهدها بالصوم والصلوات[50]
وأين الألى شَطَّت بهم غربة النوى ... أفانينَ فى الآفاق مفترقات
همُ أهل ميراث النبى إذا اعتزَوا ... وهم خير قادات وخير حماة
وما الناس إلا حاسد ومكذب ... ومضطغن ذو أحِنة وترات
ملامَكَ فى أهل النبى فإنهم ... أحبَّاى ما عاشوا وأهل ثقاتى
فيارب زدنى من يقينى بصيرةً ... وزد حبهم يارب فى حسناتى

(٤٨) معجم الأدباء – ح – ١١ – ص ١٠٠ .
(٤٩) كان رزيق الجد الأكبر لطاهر بن الحسين من موالى خزاعة التى ينتسب إليها دعبل ، وطاهر كما هو معروف هو الذى تولى قتل الأمين ووضع المأمون مكانه على عرش بغداد .
(٥٠) نفسه ص ١٠٣ .

ألم تـر أنى من ثلاثين حـجـة
أروح وأغـدو دائم الحسرات
أرى فيئهم فى غيرهم متقسّما
وأيـديهم من فيئهم صـفـرات
فآل رسول الله نُحْفٌ جسومهم
وآل زيـاد حُـفَّـل القصرات[٥١]
بـنـات زياد فى القصور مصونة
وآل رسول فى الـفـلوات

وينبغى أن تذكر وأنت تتحدث عن شعر الخصومات نوعاً جديداً كل الجدة ، لعله أشد تصويراً لما أصاب الحياة السياسية والاجتماعية من تطور خلال العهد العباسى من أى شىء آخر. ونعنى به تلك الحرب الخفية التى كانت تدور بين أبى العتاهية وأبان بن عبد الحميد فى ميدان الشعر ، والتى كانت امتداداً طبيعياً للنضال السياسى المستتر المكشوف الذى يدور بين الفضل بن الربيع والبرامكة . ولم تتحول إلى صدام بين الشاعرين لأن كلا منهما كان مأجورا لا يهتم إلا بالناحية المادية لتلك الحرب ، ولأن سادته كانوا حريصين على أن يظل ذلك النضال الأدبى محصوراً فى دائرة ضيقة ، وتفصيل هذا أن الحياة السياسية فى العصر العباسى قد تطورت تطورا خطيرا حين اتخذ خلفاء بنى العباس الوزراء والحجاب ، على غير ما كان يفعل الأمويون الذين يعتمدون على أنفسهم فى إدارة شئون الدولة . وقد دعا ذلك فى العهد العباسى إلى التنافس بين الرؤوس الكبيرة التى حول الخليفة . وكيد بعضها لبعض على نحو ما نرى من الأحزاب السياسية فى العصر الحديث . وكان أول مظهر من مظاهر ذلك الاحتكاك ما ثار بين الربيع بن يونس وأبى عبيد الله معاوية بن يسار وزير المهدى من خلاف استغل فيه الربيع موهبته النادرة فى الدس والإيقاع حتى تمكن من طرد ابن يسار نهائيا من دولة المهدى ، بعد أن أقنع الخليفة بأن ولده

(٥١) القصرات: جمع قصرة بفتحتين وهي أصل العنق وقصرة حافلة أى غليظة.

زنديق يستحق أن يلحق بالزنادقة أمثال صالح بن عبد القدوس وبشار بن برد[٥٢] .

ولكن الربيع لم يمت حتى أورث ابنه الفضل هذه الخبرة الواسعة فى الدس والكيد . وما كاد الرشيد يتولى مقاليد الحكم رسميا ، ويضعها فى يد يحيى البرمكى وأولاده عمليا ، حتى غلت مراحل الحقد فى صدر ابن الربيع ، ألم يكن والده أكبر رأس فى دولة المهدى بعد المهدى ، فكيف يرضى هو بالتأخر والانزواء ، لقد أخذ يرسم الخطط ويعدّ العدّة للإيقاع بالبرامكة فأنشا حزباً عربيا أعضاؤه من بين كبار العباسين ، ترعاه زبيدة ، ويدير هو دفته ، هدفه مقاومة ذلك النفوذ الفارسى الذى رفع البرامكة لواءه ، ونصب عليهم الجواسيس فى دورهم ، وشدد الرقابة عليهم فى كل مكان[٥٣] .

والذى يهمنا من كل ذلك أن ابن الربيع أخذ يحارب مجالس اللهو التى تجمع الرشيد دائما بجعفر البرمكى فتحدث بينهما نوعا من الانسجام يصعب معه على ابن الربيع التفرقة بينهما كما أشرنا إلى ذلك من قبل . وهنا يأتى دور أبى العتاهية الذى كان عليه بعد أن امتنع عن إمداد المغنين والمغنيات بشعر الحب كى يصوغوه ألحانا وأغاريد يحيون بها مجالس الرشيد مع نديمه جعفر ، كان عليه بعد ذلك أن يمطره بوابل من شعر الزهد يجرى دمعه على لحيته مدرارا ، وينغّص عليه ملذات الحياة . ولم يستطع البرامكة أن يكتموا غيظهم فقد روى أن الرشيد قال يوما لأبى العتاهية صف مجلسنا هذا وما فيه من نعيم فأنشأ يقول والفضل بن يحيى جالس :

عش ما بدالك آمنا فى ظل شاهقة القصور[٥٤]
يُسعى عليك بما اشتهيت م لدى الرواح أو البكور
فإذا النفوس تقعقعت فى ظل حشرجة الصدور

---

(٥٢) الجهشيارى (الوزراء والكتاب)ص ١٥٢ ومابعدها .

(٥٣) إن السبب المباشر فى قتل جعفر البرمكى وهو إطلاق سراح الثائر العلوى يحى بن عبد الله ما كان ليطلع عليه الرشيد لولا أن أحد الخدم الذى يعملون فى بيت البرامكة لحساب الفضل بن الربيع قد أنهى الخبر إليه .

(٥٤) ديوانه (بيروت)ص ٩٢

فهناك تعلم موقناً ما كنت إلا فى غرور

وماكاد يفرغ من إنشاده حتى أخذ الرشيد فى البكاء . وقد انتهز الفضل هذه الفرصة السانحة ليشفى صدره مما به من غل فقال للشاعر :

«بعث إليك أمير المؤمنين لتسره فحزنته» فقال الرشيد : «دعه فإنه رآنا فى عمى فكره أن يزيدنا منه»

وأخيراً لم يجد البرامكة بدًّا من محاربة الفضل بن الربيع وشاعره بنفس السلاح الذى شهراه فى وجوههم . وحمل أبان بن عبد الحميد تلك الأمانة وكان من آثار ذلك نظمه لكتاب كليلة ودمنة . فقد ذكر الرواة أن يحيى بن خالد كلف أبانا نظمه وتعجّله فى ذلك تعجّلا – حتى إذا مافرغ منه أعطاه عشرة آلاف دينار وأعطاه الفضل خمسة«ولايدرى إلا الله تعالى كم أعطاه جعفر – وأقبلوا جميعا على الكتاب يحفظونه منظوما[٥٥].

ولم يذكر لنا الرواة سر تلك العجلة ، ولااهتمام البرامكة بحفظه . ومعرفة موضوع الكتاب تهدينا إلى السر فى استغلال البرامكة له ، إن أهم أغراض هذا الكتاب قد تركّز فى القصة الأولى من قصصه التى ترمى إلى تحذير الأصدقاء من دس الدساسين وكيد المفسدين . ثم تدور باقى قصصه حول سياسة الملك بأسلوب رمزى يجرى على ألسنة الحيوان . وأكبر الظن أنه ألف أول ماألف ليكون نصائح مهذبة وغير مكشوفة قدمها أحد المقربين من ملوك الهند إليه حينما توجّس خيفة من كائد أو حاسد ، ولذا بدئ الكتاب بالغرض المباشر من تأليفه ثم زيد فيه بعض النصائح والوصايا الضرورية لكل من يتصدى لولاية أمور الناس . وإليك بعنوان«الأسد والثور»وتبدأ هكذا[٥٦] قال دبشليم الملك لبيديا الفليسوف: أضرب لى مثلا للمتحابين يقطع بينهما الكذوب المحتال حتى يحملها على العداوة والبغضاء . والقصة الثانية بعنوان«الحمامة المطوقة» وتتحدث عن الصداقة[٥٧]

(٥٥) الأوراق للصولى ص ٢ .

(٥٦) ص ٥١ من كتاب كليلة ودمنة المطبعة الأميرية سنة ١٩٠٣

(٥٧) ص ٩٥ .

والثالثة بعنوان«اليوم والغربان» وتتحدث عن الأعداء ووجوب الحذر منهم(٥٨) والخامسة بعنوان«الناسك وابن عرس»وتنهى عن العجلة وتأمر بالروية(٥٩) والسادسة بعنوان«الجرذ والسنور»وتتحدث عن رجل كثر أعداؤه وأحدقوا به من كل جانب .

ولعل البرامكة وقد أعجبوا بموضوع الكتاب ، أحبوا أن يسلكوا مع الرشيد ماسلكه الهنود مع ملكهم من قبل ، وينبهوه إلى الأخطار التى يمكن أن يجر إليها إيقاع الفضل بن الربيع بينه وبينهم ، راجين بمثل ذلك أن يمتنع الرشيد عن الاستماع إلى وشايته وإفساده . وهذا هو السبب فى حفظهم لذلك الكتاب منظوما ، فالنظم أيسر على القارئ والسمع ، وأخف على الآذان ، وأسرع إلى القلوب .

ومن يدرى لعل كتب الأدب لم تتسع إلا القليل من أخبار تلك المناورات السياسية . ولعل الأمر لم يقتصر على إنشاد البرامكة بعض تلك الأبيات بحضرة الرشيد ، بل إن كان العتاهية لم يكن هو الوحيد الذى يرتّل آيات الزهد«وأناشيد» الموت بين يدى هارون ، بل كان بجانبه آخرون(٦٠) .

وإليك فقرة من نظم أبان فى قصة الأسد والثور نستعين بها على إيضاح فكرتنا وفيها يقول :

قال له السبع لقد سمعت ... وكل ماتقوله فهمت(٦١)
لكننى لست أظن ماتظن ... بالثور من غش بلى ظنى حسن
قال له دمنة : مِن ثَمّ أُتِى ... وهذه من حاله هى التى
رفعته حتى تعدى طوره ... وكان هذا لك منه شكره

(٥٨) ص ١٠٧ .

(٥٩) ص ١٣٧ ولعل البرامكة كانوا يودون أن يتروى الرشيد فى النكال بهم .

(٦٠) لم يهتم المؤرخون بتلك التيارات الخفية التى كانت تجرى وراء الأستار ، فلم يروا فيا قامت به ربيدة من حشد نحو مائتين من حواريها فى قصر الخلافة بقصد تلاوة القرآن – ردّا على ماصنعه الرشيد حين استكثر من الجوارى المغنيات فى القصر .

(٦١) الأوراق للصولى ص ٤٩ .

وتلك أخلاق اللئيم الفاجر ... الكافر المعرور غير الشاكر
ماإن يزال ناصحا نفاعا ... حتى يرى من حاله ارتفاعا(٦٢)
فعندها يسمو إلى مافوقها ... إلى التى لايستطيع أوقها

وأظن أن نواحى الجدة فى هذا النوع من الشعر السياسى بيّنة فالشعراء هنا لاتعنيهم القضايا التى يخدمونها كثيراً ، ولايعرضون أنفسهم لغضب الحكام من أجلها كما يفعل ابن قيس الرقيات حين يدافع عن آل الزبير ، أو الكميت وهو يناضل عن بنى على ، بل يخدمون الأحزاب السياسية على نحو مايفعل الصحفيون اليوم . وكل ماهنالك من فرق هو أن سلطان الخليفة الاستبدادى فى ذلك العهد الغابر لم يكن يسمح بقيام أحزاب رسمية ، أو مهاترات سياسية مكشوفة ، فنشطت تلك الأحزاب نشاطاً خفياً ملتوياً على أسلوب ذلك العصر فى كل مايتصل بالسياسة أو حرية الرأى .

والمتتبع لشعر ذلك العصر يستطيع أن يرى فيه لوناً آخر يتصل بالسياسة من قرب ، ويتولى فيه الشعراء الدفاع عن حقوق الشعب دفاعاً متزناً ، فلايأخذ صورة الثورة أو الهجوم المكشوف الذى تراه عند شعراء الشيعة ، بل يبدو فى صورة التوجيه والرجاء الخالص لوجه الله والشعب . ونرى نموذجاً لذلك فى قول أبى العتاهية :—

من مبلغ عنى الإما ... م نصائحا متوالية(٦٣)
إنىّ أرى الأسعار أسعـ ... ار الرعية غالية
وأرى المكاسب مَنْزرة ... وأرى الضرورة غاشية
وأرى غموم الدهر را ... ئحة تمر وغادية

---

(٦٢) الأرق: الثقل والشؤم.
(ننصح للقارئ بالرجوع إلى الجزء الثالث من تاريخ الشعر فقد بحثت فيه هذه القضية بإسهاب .
(٦٣) ديوانه ص ٣٠٤ (بيروت) ليس عجيبا أن نرى هذا النوع من الشعر لأبى العتاهية فقد كان يلذ له أن يرى حامى الدهماء ضد الخاصة والحكام إرضاء لحاجات فى نفسه أهمها مركب النقص والحقد الذى أشرنا إليه فى غير هذا المكان . وهذا القدر المختار جزء من قصيدة فيما يسمى بالزهد تبدأ بقوله:
أين القرون الماضية ... تركوا المنازل خالية

وأرى اليتامى والأرا مل فى البيوت الخالية
من بين راج لم يزل يسمو إليك وراجية
يشكون مجهدة بأصـ وات ضعاف عالية
يرجون رفدك كى يروا مما لقوه العافية
من يرتجى للناس غير ك للعيون الباكية
من للبطون الجائعا ت وللجسوم العارية
ياابن الخلائف لافقد ت ولاعدمت العافية
إن الأصول الطيبا ت لها فروع زاكية
ألقيت أخباراً إليـ ـك الرعية شافية

وربما رمى هذا القفاز الناعم جانبا وهاجم الطبقات العليا هجوماً عنيفا ثقيلا على نحو مانرى اليوم بين أنصار الاشتراكية والشيوعية فيقول فى ثنايا شعره المسمى بشعر الزهد:

ويـاجامع الـدنيـا لغير بلاغه ستتركها فانظر لمن أنت جامع (٦٤)
فلو أن ذوى الأبصار يرعون كلها يرون لما جفت لعين مدامع
فما يعرف العطشانَ من طال ريّه ومايعرف الشبعانُ من هو جائع
وصارت بطون المرملات خميصة وأيتامهم منهم طريد وجائع
وإن بطون المكثرات كأنما تنقنق فى أجوافهن الضفادع

ومع أن حقد أبى العتاهية على السادة والحكام بل والخلفاء كان مستورا (٦٥) أو كالمستور فإنه لم يسلم من التصريح به أحيانا كما فى قوله.

إن الملوك بلاء حيثما حلوا فلا يكن فى أكنافهم ظل (٦٦)
ماذا ترجى بقوم إن هم غضبوا جاروا عليك وإن أرضيتهم ملوا
وإن نصحت لهم ظنوك تخدعهم واستثقلوك كما يستثقل الظل

(٦٤) ديوانه (بيروت) ص ١٥٠
(٦٥) لقد ظلت أعراض أبى العتاهية من شعره المسمى بشعر الزهد خافية حتى كشف عنها جهد متواضع لكاتب هذه السطور فى رسالة الدكتوراة، جامعة لندن.
(٦٦) أبو العتاهية للأستاذ أحمد برانق (لجنة البيان العربى) ص ١٧٤.

فاستغن بالله عن أبوابهم كرماً إن الوقوف على أبوابهم ذل

أو قوله :

ما اختلف الليل والنهار ولا
دارت نجوم السماء فى الفلك[٦٧]
إلا لنقل السلطان عن ملك
قد انقضى ملكه إلى ملك

ويظهر أن ملك الروم الذى كان معجباً بهذين البيتين أو بخطة الشاعر العامة . قد أحب أن يستدعيه إلى بلاده ويستعين به على الدعاية ضد الرشيد ، على نحو ما يحدث اليوم أثناء الحروب ولكن الشاعر أجحم .

ولم يكن أبو العتاهية وحده فى الميدان بل كان بجانبه كثير من الوعاظ الذين لا يتورعون عن التدخل فى السياسة بطريق مباشر أو غير مباشر كابن السماك وفضيل بن عياض[٦٨] وربما كان عبد الله بن عبد العزيز العمرى أعظم جرأة من هذين فقد قال للرشيد يوما : « إن المرء يبذر فى ماله الخاص فيحجر عليه . فما بالك بمن يبذر فى أموال المسلمين ! »[٦٩] وعندما سمع هارون يوما أن عبد الله فى طريقه من الحجاز إلى بغداد جمع من لديه من رجال أسرته وطلب إليهم أن يصدوه عن بغداد ويحولوا بينه وبين الرشيد وكان فيما قاله لهم : « لقد احتملته أثناء الحج ، أيريد اليوم أن يحضر إلى بغداد وفيها جندى وأوليائى فيفسدهم على » .

والغزل بنوعيه قد تأثر أيضاً بما شمل الحياة الاجتماعية من تطور يكاد يكون فوضى وفساداً فى بعض نواحيه ، فظهر فى الحسى منه دعارة وتهتك أنستنا خلاعة أمرئ القيس وعمر بن أبى ربيعة . وإليك نموذجاً من شعر بشار بن برد :

حسبى وحسب الذى كلفت به متى ومنه الحديث والنظر[٧٠]

(٦٧) مرآة الجنان – ح – ١ – ص ٤١٥ .
(٦٨) المرجع السابق ص ٣٦٧ .
(٦٩) الطبرى ح – ١٠ – ص ١٢٠ .
(٧٠) حديث الأربعاء – ح – ٢ – ص ٢٠٥ .

أو قبلة فى خلال ذاك وما بأس إذا . . . .
أو عضة فى ذراعها ولها فوق ذراعى من عضها أثر
أو لمسة دون مرطها بيدى والباب قد حال دونه الستر
والساق براقة مخلخلها أو مص ريق وقد علا البهر

ولا عجب والحال هذه أن يختنق الغزل العفيف أو غزل الحرمان كما سميناه . فإذا استعصت الحرائر فالجوارى فى كل مكان يزاحمن الرجال بالمناكب وهن على جمال يتضاءل فى جانبه جمال الحرائر من العرب . ولذا لا نكاد نرى له ممثلا فى هذا العصر سوى العباس بن الأحنف .

وهكذا لم يبق أمامنا من أغراض الشعر القديمة سوى الهجاء والمدح والفخر . وليس بعجيب أن نجمع بينها ؛ فالثانى نقيض الأول ولا يختلف عن الثالث إلا فى الموضوع ، وقد تغيرت هذه الأغراض أيضاً تبعاً لتغير العصر ، فظهر فى الهجاء عنصر التهكم وقديماً كان الشعراء يميلون إلى الجد فى هجائهم فيعمدون إلى انتقاص المهجو ببيان تخلفه فى ميادين الشجاعة والكرم فى عبارة رصينة فإن غَلَوْا فى هجائهم خرجوا إلى السباب المحض كما ترى فى قول الأعشى يهجو جهنام أحد بنى عيدان :

أتانى ما يقول لى ابن بظرى أقيس يابن ثعلبة الصباح[71]
لعبدان ابن عاهرة وخلط رجوف الأصل مدخول النواحى

أو فى قول زهير بن أبى سلمى يهجو الحرث بن ورقاء وقومه من بنى أسد حين أسروا يساراً وحبسوه عندهم .

تَعَلَّمْ أن شر الناس حى ينادى فى شعارهم يسار[72]
ولولا عسبه لرددتموه وشر منيحة عسب معار[73]
إذا جمحت نساؤكم إليه أشظ كأنه مَسَدٌ مغار

---

(71) فى الجزء الثانى من تاريخ الشعر إيضاح لهذه القصيدة .
(72) ديوان ص ٤٨ .
(73) عسبه : ضرابه .

وربما رأينا عند بعضهم شيئا من التهكم ولكن روح البداوة وصبغتها العامة عليه كما ترى فى قول طرفة بن العبد يهجو عمرو بن هند :

فليت لنا مكان الملك عمرو رغوثا حول قبتنا تخور[٧٤]
من الزمرات أسبل قادماها وضرتها مركنة درور[٧٥]
يشاركنا لنا رخلان فيها وتعلوها الكباش فما تنور[٧٧]

وقد ظل الشعراء فى العهد الأموى ينسجون على منوال أهل الجاهلية كما ترى فى نقائض جرير مع الفرزدق فقد استغل الأول سوء حظ جِعْثِن أخت الفرزدق واعتداء بنى مِنْقَر عليها فأخذ يكرر ذلك فى نقائضه تكراراً سمجًا ونأسف لعدم استطاعتنا تسجيل شيء منه هنا ، ولكن القارئ يستطيع أن يرى صورة فى قصيدته المشهورة التى يقول فى أولها :

أقلّى اللوم عاذل والعتابا وقولى إن أصبت لقد أصابا[٧٧]

والحق أن نقائضه جميعاً لا تخلو من هذه النغمة البغيضة[٧٨] أما الفرزدق فقد ترفع عن ذكر العورات ، وإن أكثر من مخاطبة جرير بمثل قوله :

أنا البدر يعشى طرف عينيك فالتمس
بكفيك يا ابن الكلب هل أنت نائله[٧٩]

استهانة به وبأبيه . وما من شك فى أن الذوق العام كان يمقت هذا النوع من البذاء ويميل إلى التعفف عن نهش الأعراض وتتبع العورات ويرى أن التلويح خير من التصريح والمزاح أعذب من الجد إن كان لابد من الكر والفرّ . ودليل ذلك أن

(٧٤) ديوانه ص ٦ الرغوث الشاه المرضع – تخور: تصوت . وأصل الخوار للبقر.
(٧٥) الزمرات: قليلات الصوف وخصها لأنها أغزر ألبانا – أسبل: طال . قادماها: ثدياها – مركنة ضخمة – درور: كثيرة اللبن .
(٧٦) الرخل على وزن ذئب ونمر الأنثى من ولد الضأن ، تنور. بناء فنون: تنفر .
(٧٧) ديوانه ص ٦٩ .
(٧٨) جرير ونقائضه للمؤلف .
(٧٩) نقائض جرير المرزدق – ح – ٢ – ص ٦٠٦ .

النقاد وقد تعصبوا لجرير لم يجدوا له فى الهجاء خيراً من قوله للراعى (٨٠)

فغض الطرف إنك من نمير فلا كعبا بلغت ولا كلابا

وقد ترجم الجرجانى الذوق العام بقوله : « فأما الهجو فأبلغه ما جرى مجرى الهزل والتهافت ، وما اعترض بين التصريح والتعريض. وما قربت معانيه وسهل حفظه ، وأسرع علوقه بالقلب ، ولصوقه بالنفس فأما القذف والإفحاش فسباب محض ، وليس للشاعر فيه إلا إقامة الوزن وتصحيح النظم » (٨١) .

والآن وقد أشرنا إلى ما كان من شأن الهجاء فى الماضى ورأى المحدثين من النقاد فيه ومحاولتهم تنظيمه وتهذيبه نعود إلى ما كان من أمره عند المحدثين فنذكر أنه قد جَدَّ فيه أشياء واختفت أخرى . ظهر التهكم ممتزجا بالهجاء ، واختفى الحديث عن الأحساب والأنساب ومواقف الشجاعة والكرم ونحوها (٨٢) .

فقد عدنا لا نرى فى هجاء هذا العصر مثل قول الحطيئة فى الزِّبْرِقان :

دع المكارم لا ترحل لبُغْيَتها واقعد فأنك أنت الطاعم الكاسى

وإنما رأينا الشعراء يسلكون مسلكا قريبا من ذلك الذى رويناه عن الجرجانى منذ قليل . حيث يعمد بعضهم إلى التهكم من بعض سالكين أيسر الطرق وأعظمها غناء فى خدمة أغراضهم ، وأعونها على النيل من أعدائهم ، غير متورعين عن قذف المهجو بأشنع التهم (٨٣) وإن خففا من حدة ذلك بعرضه فى قالب المزاح الذى يختلط فيه الجد بالهزل ومن أمثلة ذلك قول أبى نواس لأبان بن الحميد اللاحقى ناقضا ثناءه على نفسه :

لم يكن فيك من صفاتك شى غير خَلْق مُجَحْدَر دَحْداح (٨٤)

---

(٨٠) طبقات الشعراء ص ١٣١ .

(٨١) الوساطة ص ٢٣ .

(٨٢) ذكرنا فى موقف آخر أن الحديث عن الأسر والقبائل مدحاً وهجواً قل بسبب ضعف الروابط التى من هذا النوع ، نتيجة لشيوع الحضارة ، ونمو الشخصية الفردية .

(٨٣) طهر فى هذا العصر وفى ثنايا الهجاء اتهام بعض الناس لبعض بالتخنث أو ماهو شر منه ، نظراً لانتشار هده المفاسد الخلقية إذ ذاك

(٨٤) ديوان أبى نواس ص ١٧ - والأوراق للصولى .

لحية ثَطَّة ووجه قبيح وانثناء عن النهى والصلاح
فيك ما يحمل الملوك على الخَرْ م ق ويُزْرِى بالسيد الجحْجَاح
فيك تيه وفيك ُعجب شديد وطماح يفوق كل طماح
بارد الطرف مظلم الكذب ذو خَرْ ق معيد الحديث نَزْر المزاح

وقول أبي نواس لأبان أيسر حملا حين يقاس بقول أبي العتاهية لعبد الله بن معن بن زائدة :

ألا قل لابن معن ا م لذى فى الود قد حالا(٨٥)
لقد بُلِّغْتُ ما قالا فما باليت ما قالا
ولو كان من الأسد لما صال ولا هالا
فصغ ما كنت حلَّيت به سيفك خَلْخالا
وما تصنع بالسيف إذا لم تك قتالا
ولو مد إلى أذنيـ ـه كفيه لما نالا

وقد جلده عبد الله انتقاما منه على تطاوله عليه وإساءته إليه فقال فيه قصيدة أخرى أشد صراحة وأعظم إيلاما وفيها يقول:

قال ابن معن وجلا نفسه على من الجلوة ياأهلى(٨٦)
أنا فتاة الحى من وائل فى الشرف الشامخ والنبل
ويلى ويا لهفى على أمرد يلصق منىّ القرط بالحجل
صافحته يوما على خلوة فقال دع كفى وخذ رجلى
اخت بنى شيبان مرت بنا ممشوطة كورا على بغل
قد نقّطت فى وجهها نقطة مخافة العين من الكحل
أتجلد الناس وأنت أمرؤ تجلد فى الدبر وفى القبل

ووالبة بن الحباب كان فريسة أخرى لأبى العتاهية . وقد تعجب حين تعرف أن والبة هذا على تحلله من الأخلاق ، وخروجه على التقاليد قد اضطر تحت

---

(٨٥) الأغانى ج – ٣ – ص ١٣٢ .
(٨٦) نفسه ص ١٣١ .

ضربات أبى العتاهية المتوالية أن يفر من وجهه ، ويترك له بغداد على سعتها[٨٧]
وكان مما قاله فيه:

صَرِّح بما قد قلته واجهر لابن الحباب وقل ولاتحصر[٨٨]
مالى رأيت أباك أسود غر بيت القذال كأنه زرزر
وكأن وجهك حمرة رئة وكأن رأسك طائر أصفر
وابنُ الحباب صليبة زعموا ومن المحال صليبة أشقر
مابال من آباؤه عرب الأ لوان يُحْسب من بنى قيصر
أتَرَوْن أهل البدو قد مُسخوا شُقْرا أما هذا من المنكر

وهكذا استغل أبو العتاهية التباين الشديد بين لون والبة وأبيه الحباب واتخذ دليلا على أنه ليس منه ، بل من سفاح .

ولعل موقف أبى العتاهية من والبة يفسر لنا طرفا من أسرار تطور الهجاء فى ذلك العصر. ألا ترى الأول لو قال فى الأخير ماقاله الحطيئة فى الزبرقان بن بدر:

دع المكارم لاترحل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسى

أو مثل قول الآخر وقد عّده قدامة من خبيث الهجاء[٨٩]

إن يغدورا أو يفجروا أو يبخلوا لا يحفلوا
يغدوا عليك مرجليـ ـم ن كأنهم لم يفعلوا

مانال منه شيئاً ، وهل ينكر والبة لايجرى وراء شيء فى الحياة سوى شهوة الفرج والبطن . وهل ينكر هو والمتحررون من أمثاله أنهم ساخرون من العرف خارجون على التقاليد ، لايحفلون بأحد ولايستحيون أحدا . إن والبة وأضرابه لايفهمون إلا تلك اللغة التى خاطبهم بها أبو العتاهية فآذاهم ، ولايفرقون إلا من تلك السياط التى سلقهم بها فأوجعهم . ومامن شك فى أن هذا الاتجاه كان أثرا

---

(٨٧) الأغانى — ح — ١٦ — ص ١٤٤ .
(٨٨) نفسه .
(٨٩) نقد الشعر ص ٣٠ .

من آثار الترف الذى شمل الحياة العامة ، وميل الجمهور إلى اللهو والمرح على نحو ماذكرنا سابقا فى الفصل الخاص بالمجون .

وقد استغل الشعراء هذه النزعة العامة لإضحاك الناس من خصومهم ، وقد بلغوا من ذلك ماأرادوا ، فقد كان عبد الله بن معن يقول ، مالبست سيفى قط فرأيت إنسانا يلمحنى إلا ظننت أنه يحفظ قول أبى العتاهية فىّ فلذلك يتأملنى فأخجل[٩٠] يعنى قوله :

فصـغ مـاكـنـت حـلـيـت بـه سـيـفـك خـلـخـالا
ومـاتـصـنـع بـالسـيـف إذا لم تـك قـتّـالا

وكان هارون الرشيد كلما رأى عبد الله بن معن تمثل قول أبى العتاهية :

أخت بنى سيبان مرّت بنا ممشوطة كورا على بغل[٩١]

ولكن ليس معنى هذا أن السباب المقذع المكشوف قد اختفى من الشعر تماما إذا مازال هناك بقية منه نراها فى مثل قول أبى الطيب المتنبى يهجو ابن كيغلغ :

يحمى ابن كيغلغ الطريق وعرسه مابين رجليها الطريق الأعظم[٩٢]
يمشى بـأربـعـة على أعـقـابـه تحت العلوج ومن وراء يلجم
وإذا أشـار محدثا فكأنه قرد يقهقه أو عجوز تلطم
يقلى مفارقة الأكـف قـذالـه حتى يـكـاد على يـد يـتـعـمـم

وأشد منه صراحة وإقذاعا ، وأعظم منه هجوما على الذوق وتحديا له هجاء بشار بن برد لضحاياه وإن شئت نموذجا لذلك فاقرأ قصيدته فى هجاء يحيى بن صالح بن على بن عبد الله بن عباس والتى يقول فى أولها :

لاتبغ شر امرئ شرا من الداء واقدح بحلم ولاتقدح بشحناء[٩٣]

وإليك بيتين آخرين للشاعر نفسه فى هجاء المهدى أمير المؤمنين وزوجته

---

(٩٠) الأغانى – ج ٣ – ص ١٣٤ .
(٩١) نفسه ص ١٣١ .
(٩٢) ديوانه شرح العكبرى ح – ٤ – ص ١٢٦ .
(٩٣) ديوانه ص ١٢٢ .

الخيزران وولى عهده الهادى . فإنهما على سخفهما أقل هجنة من شعره فى يحيى صالح . وفيهما يقول:

خليفة يزنى بعماته يلعب بالدَّبُّوق والصولجان(٩٤)
أبدلنا الله به غيره ودسّ موسى فى حِرِ الخيزران

وينبغى أن نلاحظ أن شخصية الشاعر ذات أثر قوى فى الصبغة الغالبة على هجائه ؛ فهجاء الأشراف خلاف هجاء السوقة . وأهل الدعارة والفجور غير أصحاب الدين أو العفة . ويحاول بعض الشعراء أن يتهكم من خصمه فيبلغ من ذلك مايريد ، بينما يتعثّر الآخرون دون تلك الغاية ؛ ألا ترى أن أبا العتاهية قد نجح فيما أخفق فيه أبو الطيب المتنبى وذلك لغلبة الجد على الأخير واختلاط الأول بالمخنثين من أهل بغداد وتعلمه كيادهم ودهائهم .

وإذا أردت أن تعرف فرق مابين السوقة والخاصة فاقرأ هجاء امرئ القيس لسبيع بن عوف أحد بنى طهية:

أبلغ سبيعا إن عرضت رسالة إنى كهمك إن عشوت أحام(٩٥)
فاقصر إليك من الوعيد فأننى مما ألاقى لاأشد حزامى

ثم يستمر فى هجائه متئدًا هادئاً حتى يختمه بقوله .

خالى ابن كبشة قد علمت مكانه وأبو يزيد ورهطه أعمامى
وإذا أذيت ببلدة ودّعتها ولاأقيم بغير دار مقام(٩٦)

وحينما نضع بجانبه هجاء بشار أو أبى العتاهية يتضح ماأشرنا إليه من اختلاف الهجاء باختلاف الشخصيات: والسبب فى ذلك أن كل إناء بما فيه ينضح . وأن أهل المروءة يتقون العبث بأعراض الناس محافظة على أعراضهم . ومن ذلك مايرويه ابن قتيبة (٩٧) من أن قائلا قال للعجاج:

---

(٩٤) وفيات الأعيان – ح – ١ – ص ٨٩ .

(٩٥) ديوانه شرح السندوبى ص ١٧٨

(٩٦) أذى على وزن بقى ، والمصدر أذى: معناه تأذى . ولايصح أن يكون مبنيا للمجهول ، إذاكان يجب أن يقال فيه أوذيت .

(٩٧) الشعر والشعراء ص ٢٦ .

إنك لاتحسن الهجاء . فقال: إن لنا أحلاما تمنعنا من أن نظلم وأحسابا تمنعنا من أن نُظلم وهل رأيت بانياً لايحسن أن يهدم .

أما أهل السفه فليس لهم من الأحساب والأنساب مايغارون عليه أو يعملون على صيانته . فلا يضيرهم بعد ذلك أن يهاجموا الناس أو يتعرضوا لهجو مهم .

وقد استغل المُجَّان من شعراء القرنين الرابع والخامس الهجرى المجون فى الهجاء أوسع استغلال وأسوأ والقارئ فى يتيمة الدهر للثعالبى يرى من ذلك مايندى الجبين ومنه هجاء أبى القاسم الحسين بن الحسين الواسانى لابن أبى أسامة ، وفيه يقول:

يا ساكنى حلب العوا ... صم جادها صوب الغمامة (٩٨)
أنا فى مدينتكم غريـ ... ـب لست من أهل الإقامة

ثم يقول بعد قليل .

وإذا بأسود كالفنيـ ... ـق يقل شيئا كالدعامة
وإذا بشيخ تحته ... حسن الوسامة والقسامة (٩٩)
والشيخ يعصر تحته ... قد بلَّ من عرق حزامه

إلى آخر ما قاله فيها .

وفى المدح تغيرت المثل العليا تبعا لتغيير الحياة الاجتماعية ، والمعايير الخلقية ، فبعد أن كانت الشجاعة والكرم وحماية الجار هى أهم ما يدور على ألسنة المادحين صرنا نرى أوصافا أخرى ترسم لنا شخصية مثالية غير تلك التى رسمها العصر الجاهلى لنفسه على ألسنة شعرائه ، شخصية تتحلى برقةالحاشية وعذوبة الروح والظرف وغير ذلك من الصفات التى يطلبها مجتمع متحضر راق يعيش فى ظلال بنى العباس (١٠٠) ونستطيع أن نتبين ملامح تلك الشخصية فى قول أبى نواس يمدح الرشيد :

---

(٩٨) اليتيمة ح - ١ - ص ٢٩٥ .
(٩٩) الشيخ فى هذا البيت والذى يليه ابن أبى أسامة
(١٠٠) إن المجتمعات كلما ارتفعت قل حديثها عن الشجاعة والكرم لعدم حاجتها إليها حيث تتكفل الحكومات بإطعام المحتاج وحماية الضعيف .

ملك تطيب طباعه ومزاجه حلو المذاق على فم المتذوق

أو فى قول أبى تمام يمدح أبا سعيد الثغرى :

لك هضبة الحلم التى لو وازنت أجأ إذن ثقلت وكان خفيفا
وحلاوة الشيم التى لو ما زجت خلق الزمان الفدم عاد ظريفا(١٠١)

أو قوله فيه :

قطب الخشونة باللبان معاقبا فغدا جليلا فى القلوب لطيفا
هزته معضلة الأمور وهزها وأخيف فى ذات الإله وخيفا
يقظان أحصدت التجارب عقده شزرا وثقف حزمه تثقيفا
واستل من آرائه الشُّعَلُ التى لو أنهن طُبِعْنَ كُنَّ سيوفا

ولعل ملامح تلك الشخصية الحديثة تبدو وأوضح ما تكون فى تلك القصيدة التى أرسل بها أبان اللاحقى إلى الفضل بن يحيى يزكى بها نفسه عنده وفيها يقول أبان :

أنا من بُغيه الأمير وكنز من كنوز الأمير ذو أرباح(١٠٢)
كاتب حاسب خطيب أديب ناصح راجح على النصاح
وظريف الحديث من كل فن وبصير بترهــــات الملاح
شاعر مفلق أخف من الريـ شة مما يكون تحت الجناح
أيمن الناس طائراً يوم صيد لغدو دُعيت أو لرواح
أبصر الناس بالجوراح والخيل وبـــالخرد الحسان الملاح
كل ذا قد جمعت والحمد لله على أننى ظريف المزاح
لست بالناسك المشمر ثوبيه م ولا الماجن الخليع الوقاح

وكأنما كان ينبغى للشخصية الحديثة أن تجمع بين عذوبة الخُلق وجمال الخلق ولذا يحرص أبان على الإشارة إلى الأخيرة حين انتهى من الأولى فيقول :

---

(١٠١) وطيره قوله :

رقيق حواشى الحلم لو أن حلمه بكفيك ما ماريت فى أنه برد

(١٠٢) الأوراق للصولى ص ٤ ، ٥ .

لست بالضخم ياأميرى ولا الفدم ولا بالمجحدر الدحداح
لحية جعدة ووجه صبيح واتقاد كشعلة المصباح(١٠٣)

وإذا شئت أن تعرف مدى ما كان بين القدامى والمحدثين فضع قول الأعشى فى قيس بن معدى كرب :

وإذا تكون كتيبة ملمومة خرساء يخشى الدارعون نزالها
كنت المقدم غير لابس جُنَّةٍ بالسيف تضرب معلما أبطالها

بجانب قول أبى نواس فى الرشيد :

يغشى الهجير بغرة مَهْدية لو شاء صان أديمها الإكنان
لكنه فى الله مبتذل لها إن التقى مُسَدَّد ومعان

أرأيت عظم الفرق بين الحياتين والعقليتين . أما الأول فيحمد لصاحبه تعرضه للموت دون جنة ، وأما الثانى فيستكثر على ممدوحه التعرض للشمس دون وقاية .

أما الفخر فقد ظل على ما كان عليه فى شعر ذوى الأحساب من أمثال الشريف الرضى الذى يقول مفتخراً بأسرته وعشريته :

أنا من علمت قديمه وحديثه علم اليقين وإن جهلت فسائل
قومى الملوك وخيم نفسى خيمها أفْلج بمثل أواخرى وأوائلى

ولكن ظهر إلى جانب ذلك روح جديدة أهم ما تمتاز به أنها فردية يفخر فيها الشاعر بنفسه لا بقبيلته ، لأن الروابط القبلية ضعفت ، فأصبح كل فرد يشعر باستقلاله الذاتى فى ظل الدولة وحمايتها وصار فخر الشعراء بآدابهم ونباهة شأنهم أكثر من فخرهم بالشجاعة وحماية الجار وغيرها من المثل العليا عند أهل الجاهلية كما ترى فى قول أبى الطيب :

أنا الذى نظر الأعمى إلى أدبى وأسمعت كلماتى من به صمم
أنام ملء جفونى عن شواردها ويسهر الخلق جرّاها ويختصم

---

(١٠٣) وازن أيضا بين هذا البيت وقول طرفه .

أنا الرجل الضرب الذى تعرفونه خشاش كرأس الحية المتوقد

وكثرت فيها المبالغات الدالة على الغرور كما ترى فى قول أبى العلاء :

بأى لسانٍ ذامنى متجاهل عَلَى وخَفْقُ الريح فىَّ ثناء
ومن هو حتى يُحمل النطقُ عن فمى إليه ويمشى بيننا السفراء

وأخيراً نحب أن نلفت الأنظار إلى أن تحول الفخر والمدح على النحو الذى ذكرناه ، هو الذى يمكن أن يسمى تطوراً ، حيث تغيرت فيه المثل العليا تغيرا كبيرا أما ما ظهر فى شعر الأمويين من تمدح بالدفاع عن الإسلام والمسلمين ، بدلا من الدفاع عن القبيلة كما هو الشأن فى الشعر الجاهلى ، فلا يمثل تحولا خطيرا فى الشعر ، حيث إن الموقف فى الحالين لا يعدو الإشارة إلى بلادبلاء القائد أو الرئيس فى الدفاع عن المجتمع الذى يعيش فيه والتقاليد التى تحكم ذلك المجتمع [١٠٥]

(١٠٥) نحن بذلك نخالف الدكتور شوقى ضيف – اقرأ له التطور والتجديد .

جولات الشعراء فى جوانب النفس البشرية

تعمدنا أن نختم مظاهر التجديد والتطور فى أغراض الشعر العربى بالحديث عن النواحى النفسية لخطورتها واتصالها الوثيق بتطور الفكر العربى والحياة العربية . فالنفس البشرية لم تكن من الموضوعات التى أطال القدماء الخوض فيها أو التعرض لها كما يبدو فى أشعارهم . أما فى العصر العباسى عصر التطور والتجديد فأن النفس البشرية ونزعاتها المختلفة صارت تحظى بالكثير من ملاحظة الشاعر ، ملاحظة لاتلبث أن تترجم إلى أبيات ومقطوعات شعرية . ويأتى المتنبى وأبو العلاء وأبو العتاهية فى مقدمة الشعراء العباسيين من هذه الناحية . وإن اختلفت دوافعهم إلى ذلك ، كل بحسب مزاجه وظروفه الخاصة .

فالأول كان ناقما على الناس لأنه يحب نفسه ، ولذا كان يصور نفسه دائما بصورة المحسود المغبون ، والناس من حوله حسدة ظالمون ، أقزام يقحمون أنفسهم فى مواكب العمالقة . ومعظم فلسفته تدور حول هذه المعانى .

أما الثانى فكان عاتبا على الناس ؛ لأنه يحبهم ، عاتبا على الرعاة لأنهم يسيئون إلى الرعية ، وعلى الرعية لأنها تحسن إلى نفسها . وحاول إصلاح هؤلاء وأولئك ولكنه تعجل النتائج فيئس. ونادى بما ينادى به اليائسون ، نادى بالانتحار ، انتحار الإنسانية جمعاء عن طريق الامتناع من التزاوج والتوالد ، وأخذ يردد الأناشيد فى فضل الموت على الحياة .

أما الثالث فلم يكن يعانى آلام انتفاخ الشخصية كالمتنبى ، بل على العكس كانى يعانى تلك الآلام التى يعانيها المرء حينما يحس بتفاهته ، ولذا حقد على طائفة خاصة من المجتمع ، وهى التى كانت تفوقه حسبا ونسبا وسلطانا . ولم يكن الموت الذى أكثر من ذكره سبيلا إلى القضاء على العالم ووضع حد لما به من شرور ، كما هو رأى أبى العلا ، بل سبيلا إلى القضاء على الامتيازات التى يتمتع بها السادة

والتسوية بينهم وبين أفراد الطبقات الدنيا من أمثاله[١٠٦] . وهذا هو السبب فى أن قوله .

والنـــاس فى غـــفلاتهـــم ورحـــا المنـــيـــة تـــطـــحن

كان باعترافه أحب أقواله إليه ، لأنه يشتمل على أبلغ وسائل التحطيم وهو الطحن .

وقد اتخذنا من هؤلاء الثلاثة نماذج فقط ، وإلا فهناك كثيرون بجانب هؤلاء كانت لهم مشاكلهم . وكل مانريد أن نلفت الأنظار إليه هو أن الحضارة الحديثة جرّت فى أذيالها مشاكل مختلفة ، منها تعقد الحياة الاجتماعية بانقسام المجتمع إلى طبقات متفاوتة فى الحقوق والواجبات تفاوتا يدعو إلى التنافس والتحاسد ، وقديما كان الناس متساوين أو كالمتساوين فى ظل النظام البدوى الديمقراطى المتقشف .

وقد زاد من شعور الناس بذلك التفاوت ، الثقافة الحديثة التى عرفت الفرد بحقوقه وواجباته ، حين بدأ علماء الكلام يناقشون نظرية الخير والشر والصلاح والأصلح . وهل يجب على الله مراعاة العدل فى معاملة عبده أولا يجب ، وإذا كان المرء قد أصبح لايطيق أن يقع عليه غبن حتى من خالقه الذى لايُسأل عما يَفعل ، فكيف به لو كان من بشر مثله يأكل الطعام ، ويمشى فى الأسواق .

وليس معنى هذا أن القدماء لم تكن لهم مشاكلهم ، أو أزماتهم النفسية يلى ولكن لم يكن لديهم الفراغ الكافى للإنصات إليها ، أو التفكير فيها كما فعل المحدثون بعدهم ، وإن شئت فاستمع إلى مايؤيده هذه الدعوى من كلام هؤلاء وأولئك : يقول طرفة بن العبد:

لعمرك ماأمرى على بغمة نهارى ولاليلى على بسر مد[١٠٧]

أما أبو العتاهية فيقول:

---

(١٠٦) من ذلك قوله

وافترقنا فى المقدرات وسوى الله فى الموت بيـنـنـا فاستويـا

ديوانه ص ٢٥٦ .

(١٠٧) معلقته .

أقلب طرفى مرة بعد مرة لأعلم مافى النفس والقلب ينقلب[١٠٨]

أو يقول:

يانفس أنى تُؤفكينا حتّى متّى لاترعوينا[١٠٩]
حتّى متّى لاتقلعين وتسمعين وتبصرين
أصبحت أطول من مضى أملا وأضعفهم يقينا
يانفس إلا تصلحى فتشبهى بالصالحينا
وتفكرى فيما أقو ل لعل قلبك أن يلينا

وهذا هو السبب فى أن الفكر كثيرا مايمتزج بالوجدان عند المحدثين كما ترى فى قول المتنبى:

ياساقيّى أخمر فى كؤوسكما أم فى كؤوسكما هم وتسهيد
أصخرة أنا مالى لاتحركنى هذه المدام ولاتلك الأناشيد

فإنه يناقش القضية مناقشة أهل المنطق أو علماء النفس ليعرف السر فى عجز الخمر عن التغلب على همومه ، وهل ذلك لنقص فيها ، أم لأن طبيعته قد حالت فصارت لاتتأثر بما يتأثر به سائر الناس؟ أما القدامى فيصورون مشاعرهم دون مناقشة أو تأمل طويل كما ترى فى قول طرفة.

وظلم ذوى القربى أشد مضاضة
على النفس من وقع الحسام المهند[١١٠]

والذى نريد أن نصل إليه هو مابدأنا به من أن النفس البشرية صارت ميدانا لدراسة الشعراء وملاحظتهم ، ملاحظة ظهرت فى نتاجهم الأدبى على نحو لم يعهده الأوائل ولم يفكروا فيه ، فبعد أن كانت الأزمة عند القدامى فى الماء والمرعى ، أو هكذا كانوا يعتقدون على الأقل ، صارت عند المحدثين فى النفوس والصدور ، كما ترى فى قول المتنبى:

---

(١٠٨) ديوان ص ٣٦ بيروت .
(١٠٩) ديوان بيروت ص ٢٦٤ .
(١١٠) معلقته .

وكأنّا لم يرض فينا بريب الد م دهر حتى أعانه من أعانا[111]
كلما أنبت الزمان قناة ركّب المرء فى القناة سنانا
ومراد النفوس أيسر من أن نتعادى فيه وأن نتفانى
غير أن الفتى يلاقى المنايا كالحات ولايلاقى الهوانا

أو قول بشار:

وماضاق فضل الله عن متعفف ولكن أخلاق الرجال تضيق

ومن الموضوعات التى شغلت المحدثين من الشعراء مسائل القضاء والقدر وعبث الحظ بالناس ، فقد أطالوا من ذلك عجبهم وحيرتهم كما ترى فى قول بشار:

طبعت على مافىّ غيرَ مخيّر هواى ولو خُيّرت كنت المهذبا
أريد فلا أُعطى وأُعطى ولم أرد وقصىّ علمى أن أنال المغيبا
فأصرف عن قصدى وعلمى مقصر وأمسى وماأعقبت إلا التعجُّبا

ويقول أبو العتاهية قريبا من ذلك:

نبغى من الدنيا الغنى فتزيدنا فقراً ونطلب أن نصح فنمرضا[112]

ويقول أيضاً:

أيا دنياى مالى لاأرانى أسومك منزلا إلاانبابى[113]
ألا وأراك تبذل يازمانى لِىَ الدنيا وتسرع باستلابى

وقد اختلفت مواقفهم مما يكرهون من أمور الحياة والأحياء ، فحينا يلجئون إلى المغالطة فيقول قائلهم:

تصفو الحياة لجاهل أو غافل عما يُرام به ومايتُوقع[114]
ولمن يغالط فى الحقائق نفسه ويسومها طلبَ المحال فتطمعٍ

وأحيانا يملّون تلك المغالطة التى لاتقضى على المشكلة بل تعقّدها ، وترسبها

(١١١) شرح العكبرى ج - ٤ - ص ٣٤٠.
(١١٢) ديوانه ص ١٣٨ .
(١١٣) ديوانه ص ٢٤ .
(١١٤) ديوان المتنبى شرح العكبرى - ٢ - ص ٢٦٩ .

فى أعماق النفس ، فيرتمون فى أحضان اليأس ، ويجدون فى ظلاله الوريفة برداً وسلاما على أكبادهم المقروحة فيقول بعضهم عاتبا على الدنيا ، شاكيا صروفها :

قطعت منك حبائل الآمال وحططت عن ظهر المطِى رحّالى[115]
ويئست أن أبقى لشىء نلت مما م مافيك يادنيا وأن يبقى لى
فوجدت برد اليأس بين جوانحى وأرحت من حل ومن ترحال
ولئن يئست لرُبَّ بَرْقة خُلَّب برقت لذى طمع ولمحة آل
ما كان أشأم إذ رجاؤك قاتلى وبنات وَصْلِكِ يعتلجن ببالى
فالآن يادنيا عرفتك فاذهبى يادار كل تشتت وزوال

وقد كان من أثر هذه الملاحظة الدقيقة مع الحس المرهف أن كثرت فى أشعارهم عبارات تدل على إداركهم التام لأسرار النفس البشرية ومن ذلك قول أبى الطيب الذى يعدّ بحق أستاذ الشعراء جميعاً فى هذا الاتجاه .

واحتمال الأذى ورؤية جانبه غذاء تَضْوَى به الأجسام

فإن المتنبى بمثل هذا البيت عن إدراك فطرى لرأى علماء النفس فى الأنفعالات والعواطف المكبوتة[116] ، وماتسببه للمرء من متاعب نفسية واضطرابات عصبية وخلق حالة مزاجية تستمر مع المنفعل وقتا يطول ويقصر حسب استعداده الشخصى .

وكان الشعراء قديماً لايفطنون إلى مثل تلك الآثار حين يدعو العقلاء منهم إلى الاحتمال والمصانعة كما ترى فى قول زهير:

ومن لم يصانع فى أمور كثيرة يُضَرَّس بأنياب ويوطأ بمنسم[117]

---

(١١٥) ديوان أبى العتاهية ص ١٩٤ .

(١١٦) راجع ماكتبه الأستاذ حامد عبد القادر فى الانفعالات والعواطف بالجزء الثالث من كتابه « علم النفس »بالاشتراك مع الأستاذ الإبراشى واقرأ بصفة خاصة صفحات ١٧٠ ، ٢٣٨ .

(١١٧) ينبغى أن يلاحظ أن الاحتمال والمصانعة ليست من خلق العربى الذى يميل إلى الصراحة والمجازاة على الشر بمثله وزهير نفسه يقرر دلك العرف الجاهلى بعد أبيات قلائل من البيت الأول حيث يقول : =

وإذا شئت موازنة أخرى بين العقلية الحديثة والقديمة فضع قول أبي الطيب:

والظلم من شيم النفوس فإن تجد   ذا عفة فلعلة لايظلم

بجانب قول زهير:

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه   يهدّم ومن لايظلم الناس يظلم

فسترى أن زهيراً يمثل أحد شيوخ القبائل وحكمائها حين يتحدثون عن قانون البادية ومنطق الغابة ، بينما يذكرنا المتنبى بمباحث علم النفس فى نفسية الطفل وهل هى خيّرة بطبعها ، أم أنا نحمل بين جوانحنا رواسب وراثية توجهنا إلى الخير أو الشر.

بل مالى لاأعود إلى بيتين آخرين يكملان مع البيت السابق تصوير الثورة النفسية التى كانت تعصف برأس الشاعر فى تلك الأثناء ويوضحان مدى تغلغل فكره فى فهم الحياة والأحياء وأعنى قوله:

ذو العقل يشقى فى النعيم بعقله   وأخو الجهالة فى الشقاوة ينعم

لايسلم الشرف الرفيع من الأذى   حتى يراق على جوانبه الدم

ألا يدل البيت على اتساع بل تطور خطير فى آفاق الفكر العربى ؛ فبينما كان القدامى يحمدون التعقل والتدبّر ، فرحين بما يصل إليهم من رشاش يسير يرطّب البدن ويبلّ الصدى ، أخذ هو يشكو غرفة فى ذلك الخضم الواسع ، وينشد النجاة منه ، ويحسد الواقفين على شواطئه حيث الأمن والدعة والغفلة . ألا يؤكد هذا البيت ماقلناه سابقا من أن الثقافة الحديثة كانت شرا على أهلها حيث فتحت أعينهم على ماحولهم من مشاكل ومفارقات غفل عنها الجهال فاستراحوا وأراحوا ، على حين أطالوا هم التفكير فيها والأسى لها فأتبعوا أنفسهم فأتعبوا الناس معهم .

أما البيت الثانى فيمثل يقظة الشاعر لما يدور حوله ، وإحساسه بخطر قوى

---

(١) ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه   يهدم ومن لايظلم الناس يظلم

وليس معنى هذا أن زهيرا يناقص نفسه ولكنه فى الأول مثالى موجه وفى الثانى واقعى مصور وشبيه بقول زهير الأول قول السموأل:

وإن هو لم يحمل على النفس ضيمها   فليس إلى حسن الثناء سبيل

الشر المتكلتة فى كل جهة من جهات الحياة ، وإصرارها على أن يكون لها الغلبة والسلطان ، رضيت الشرائع السماوية ، والوشائج الإنسانية أم سخطت ، مما يجعل أزهد الناس فى الصراع مضطرا إلى أن يخوض ضدها حرباً مدمرة ، محافظة على شرفه ، واحتفاظا بحياته .

وقد لايكون هذا الأذى الذى يتطاير إلينا شرره حاداً حاسماً حتى نحسمه بعمل إيجابى سريع مهما كلفنا ، بل منغصات صغيرة لاتكاد تنقطع ، كلما أغلقت دونها بالحلم والاحتمال بابا نفذت إليك من باب آخر بحيلة أو أخرى وذلك هو مايعنيه أبو العتاهية حين يقول:

أرقع من دنياى دنيا دنية   ودارا كثيراً وهنها وخروقها(118)

وإذا كان معظم ماأوردناه من شواهد يرجع تقريباً إلى نزعة واحدة هى سخطهم أو سوء ظنهم بالحياة والأحياء ، فإن هناك أبياتا أخرى تدل على أنهم حاولوا حل تلك الأزمة الحادة التى كانت تنتابهم من وقت لآخر ، لاعن طريق اليأس أو المغالطة الصريحة كما قدمنا ، بل عن طريق مقاومة اليأس بالأمل والتشاؤم وتلمسٌ الخير فى ثنايا الشر ، وخيوط الضوء الدقيقة فى طيات الظلام الحالك كما نرى فى قول أبى العتاهية:

كم نعمة لايُسْتَغَل بشكرها   لله فى طَيِّ المكاره كامنة(119)

وقد أحالوا اليأس المرير إلى زهد عذب مريح كما نرى فى قوله أيضاً:

وجدت الرَّوْح جَذْب العيش لما   عرفت العيش مخَضًّا واحتلابا

وكأنهم بذلك يرثون لمن لايزال متعلقا بالدنيا من أهلها ، وهل رأينا شاعرا قبل أبى العتاهية يرى فى الفقر زينة وبهاء فيقول:

ولقد عجبت من المثمِّر مالَه   نِسَىَ المثمر زينة الإقلال

وربما هدتهم الفطرة السليمة إلى بعض مانستعين به الآن فى ضوء علم النفس

---

(118) ديوان) بيروت)ص 177 .

(119) الموازنة ص 40 .

على ضبط انفعالاتنا ، وتهدئة أعصابنا أمام مانكره من أمور الدنيا ، وذلك بتغير الجو العام حولنا(١٢٠) كما نرى فى قول أبى العتاهية:

لايصلح النفس إن كانت مدبرة إلا التنقل من حال إلى حال(١٢١)

كما أدركوا أهمية التناسى أو النسيان فى إماتة الآلام النفسية مستعينين على ذلك بالزمن فيقول قائلهم:

وإذا مضى هم أمرئ فقد انقضى إن الهموم أشدهن الأحدث(١٢٢)

وبعد فقد حاولنا فيما مضى أن نعنى بما كان من أشعارهم متفقاً مع ثورتهم على الحياة والأحياء فقط . وإلا فهناك قدر غير ضئيل من أشعارهم النفسية بجانب ماذكرنا ، يستطيع القارئ أن يعثر عليه بسهولة فمن ذلك مثلاً فى قول المتنبى:

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميت إيلام

وينبغى أن نلفت نظر القارئ الكريم إلى أننا لم نكتسب هذا فيما يسميه النقاد بفلسفة هذا الشاعر أو ذاك ويعنون به نظرته إلى الدين أو السياسة أو الزواج ونحو ذلك(١٢٣) وإنما أردنا أمراً واحدًا فقط وهو إدراك شعر العصر العباسى لما لم يكن يدركه سلفهم من أسرار النفس البشرية ، وملاحظتهم الدقيقة لها .

والآن وقد انتهينا من الحديث عن أغراض الشعر نحب أن نشير إلى أننا جعلنا ماأصابها من تغير مظهراً من مظاهر تطور الشعر العربى لأمرين:

أولها: كونها صدى لتغيرات وتطورات فى الحياة الاجتماعية والسياسية كشعر أبى العتاهية الذى يعد من بعض نواحيه مظهراً من مظاهر تعقد الحياة الاجتماعية

---

(١٢٠) راجع كتاب الأستاذ حامد عبد القادر والإبراشى فى « علم النفس »ج – ٣ – مبحث ضبط « الانفعلات »

(١٢١) ديوان (بيروت) ص ٢٢٣ .

(١٢٢) المرجع السابق ص ٦٠ .

(١٢٣) من أمثلة ذلك ماكتبه الدكتور مهدى علام بعنوان « فلسفة المتنبى »فى مجلة دار العلوم (يونية سنة ١٩٣٦) .

والنفسية ، وتناحر الطبقات وتحاسدها ، كالخمر والمجون والغزل بالمذكر التى انبعثت فى الغالب عن موجة الزندقة التى غزت الدولة من الخارج وروح اليأس التى دبت فى أنحائها من الداخل .

وهذا هو السبب الذى يجعلنا لانلقى بالا لما كان من مجون الوليد بن يزيد فى العهد الأموى ، لأن تلك الحركة كانت محصورة فى أضيق الحدود ، لم يتأثر بل لم يشعر بها المجتمع . وأهم من هذا كله أنها لم تكن مظهراً من مظاهر تطور الحياة الاجتماعية لدى طائفة كبيرة من الشعب ، على نحو ماحدث فى العصر العباسى ، بل لدى شخص من الأشخاص أو شرذمة من الناس .

ثانيهما : اتساع شقة الخلاف بين ماضى الشعر وحاضره . وإذا اتخذنا الغزل الحسى مثلا نموذجاً لذلك رأينا التشابه القوىّ إن لم يكن التام بين غزل امرئ القيس وعمر بن أبى ربيعة ، ثم الاختلاف التام بينهما جميعاً وبين غزل بشار بن برد إن صح أن يسمى ذلك غزلا ، وهذا قول لا يُلقى إلقاء بل له ما يؤيده من التاريخ ، ألا ترى أن ابن عباس على علمه وورعه ربما استمع إلى شعر ابن أبى ربيعة فى بيت الله ، على حين كان يخشى المحافظون من أهل بغداد أن يؤثر شعر بشار على نسائهم تأثيراً سيئاً . وشنّ عليه رجال الدين حربا شعواء ، وتهدما بذلك لغضب المهدى عليه غضبا انتهى بقتله .

الفصـل الثالث

عناصر الشعر العربى ومدى ما أصابها من تطور أو جمود : –

لعل القارئ كان يتوقع أن نقدّم هذا البحث على مبحث الأغراض . ولكننا خشينا أن نكون صورة من ذلك الضابط الذى سأله رئيسه عن السبب فى إحجامه عن مهاجمة أحد الحصون ، فأجابه بأن لديه مائة سبب أحدها أن الذخيرة قد نفدت ، مما دعا القائد إلى إغلاق سمعه دون ما جاء بعد ذلك من أسباب . وإلا فإننا لم نغفل عن أن هذا الفصل هو أهم وأخطر خطوات الكتاب . وسيكون واجبنا فيه استعراض العناصر التى أشرنا إليها فى صدر الكتاب ومعرفة مدى ما أصابها من تغير أو استقرار وأسباب ذلك . ولنبدأ بالطبع الذى بدأنا به هناك .

العنصر الأول

الطبع :

قد عرفنا فيما سبق أن العرب كانوا يتقبلون كل ما تجود به قرائحهم . دون طويل مراجعة أو تنقيح ، وظلوا كذلك حتى ظهرت مدرسة زهير ، فجوّدت لغة الشعر وصقلته وتنخّلت معانيه ، ولكن ذلك لم يَحِدْ بالشعر كثيراً عن اتجاهه الأول . ولذا ظل خلال العهد الأموى يسير على نفس النهج القديم . وعرفنا أن ميل العرب إلى الجريان مع الطبع فى أشعارهم راجع إلى بساطة حياتهم البدوية وبعدها عن التكلف والتعقيد .

والآن وقد جاء العصر العباسى ، وتغير وجه الحياة . وتطور العربى من بدوى يفترش الرمال الصفراء النقية وتحيط به إبله وضأنه إلى رجل متحضر يتمتع بكل ما وصلت إليه مدنية العصر العباسى – المشرق رغم ظلام العصور الوسطى – من ألوان الترف والنعيم المادى متمثلاً فى الرياش والزخرف ، والأدبى متمثلا فى ألوان الثقافة التى عرفها عصر الرشيد والمأمون . الآن وقد حدث ما حدث ، ماذا كان موقف الشعر والشعراء من

كل ذلك ؟ لم تتبدل سنة الله ولم تتحول ، بل حدث ما يحدث عادة فى جميع شعوب الأرض حين تتغير ظروفها ، وتتسع أمامها آفاق الحياة ، حيث يستجيب قوم لتلك الظروف الجديدة استجابة تامة ، بل ويسرفون فيها إن صح ذلك التعبير ، بينما يقف قوم آخرون موقفَ التردد والإشفاق من ذلك الجديد الذى لم يعرفوه . والتشبث أو الحنين إلى ذلك القديم الذى عرفوه واطمأنوا إليه . وكثيراً ما تتدخل عواملُ مختلفة شخصية وغير شخصية لتوجيه كل فريق لما خلق له . وليس معنى هذا أن هناك فريقًا يقف دائماً وإلى الأبد فى وجه تيارات التطور وقوف الجبال الرواسي.بل كل ما هنالك أن الناس دائماً أمام موجات التجديد أشبه بالمواد المختلفة من أخشاب وأحجار ومعادن حين يجرفها السيل ، فيسرع بعضها إلى امتطاء ظهره ، والسير معه حيثما اتجه ، بينما يسير بعض متثاقلا كأنه مقيد بالسلال أو مرهق بالأغلال .

وعلى مقتضى تلك السنة ظلت طائفة من الشعراء تحتذى الأوائل من حيث الجرى مع الطبع ، ووضع الهدف النهائى فوق الأفكار الجزئية الجانبية وعُنيت بعذوبة العبارة وموسيقيتها أكثر من عنايتها بذلك الزخرف الإضافى والجمال المكتسب الذى يتمثل فى المحسنات البديعية .

وكان على رأس هذه الطائفة أبو العتاهية والسيد الحميرى والبحترى ومالت طائفة أخرى إلى العناية بالصورة اللفظية وإثقالها بالمحسنات البديعية من جهة ، وبالمعانى عمقاً ودقة وإحاطة من جهة أخرى ، وعلى رأس هذه الطائفة مسلم بن الوليد وأبو تمام . ويمكن أن نسمى الطائفة الأولى بأهل الطبع والثانية بأنصار الصنعة . وإنا لذاكرون لك أربعة نماذج أولها جاهلى ، وثانيها أموى ، والثالث عباسى لإمام أهل الطبع ، والرابع عباسى أيضا ولكن لحامل لواء أهل الصنعة ؛ لترى معنا مدى ما بين بعضها وبعض من توافق أو تخالف . ولتكنْ جميعها فى المدح : قال الأعشى يمدح قيس بن معدى كرب :

عَوَّدت كندة عادة فاصبر لها ... اغفر لجاهلها ورِوِّ سجالها[1]
وكن لها جملا ذلولا ظهره ... احمل وكنت معاوداً أحمالها
وإذا تحلَّ من الأمور عظيمة ... نفسى فداؤك فاكفهم أثقالها
فلعمر من جعل الشهور علامة ... قَدرًا فبيَّن نصفها وهلالها
ما كنت فى الحرب العوان مغمَّرا ... إذ شب حر وقودها أجزالها
وسعى لكندة غير سعى مواكل ... قيس فضرّ عدوّها وبنى لها
وأهان صالح ماله لفقيرها ... وأسا وأصلح بينها وسعى لها
ما إن تغيبُ لها كما غاب امرؤ ... هانت عشيرته عليه فغالها
وترى له ضرا على أعدائه ... وترى لنعمته على من نالها
أثراً من الخير المزيِّن أهله ... كالغيث صاب بلدة فأسالها

وقال جرير يمدح هشام بن عبد الملك :

أمير المؤمنين جمعت دينا ... وحلما فاضلا لذوى الحلوم[2]
لك المتخيَّران أبا وخالا ... فأكْرِمْ بالخؤولة والعموم
فيابن المطعمين إذا شتونا ... ويابن الذائدين عن الحريم
وأحرزت المكارم كل يوم ... بغرة سابق وشظاً سليم
نما بك خالد وأبو هشام ... مع الأعياص فى الحسب الجسيم
وتنزل من أمية حيث تلقى ... شؤونُ الرأسِ مجتمعَ الصميم
وأعداء زويتهم بحرب ... تكف مسالح الزحف المقيم
ترى للمسلمين عليك حقا ... كفعل الوالد الرؤوف الرحيم
وَلِيُتم أمرنا ولكم علينا ... فضول فى الحديث وفى القديم
إذا بعض السنين تَعَرَّقتْنا ... كفى الأيامَ فقدَ أبى اليتيم

وقال البحترى يمدح الفتح بن خاقان :

---

(١) ديوانه ص ٢٩ وهى مشروحة فيه شرحا جيدا .

(٢) ديوانه ص ٥٠٧ .

تذود الدنايا عنه نفس أبية ... وعزم كحد الهند وإنى قاطع[1]
مبيد مقيل السر لا يدرك الذى ... يحاولها منه الأريب المخادع
ولا يعلم الأعداء من فرط عزمه ... متى هو مصبوب عليهم فواقع
خلائق لاتنفك توقف حامدا ... له نَفَس فى إثرها متراجع
ولن ينقل الأعداء مجدك بعدما ... تَمَكّن رضوى وأطمأن متالع
أأكفرك النعماء عندى وقد نمت ... علىَّ نمو الفجر والفجر طالع
وأنت الذى أعززتنى بعد ذلتى ... فلا القول مخفوض ولا الطرف خاشع
وأغنيتنى عن معشر كنت برهة ... أكافحهم عن نيلهم وأقارع
فلست أبالى جاد بالعرف باذل ... على راغب أو ضن بالخير مانع
وأقصرت عن حمد الرجال وذمهم ... وفيهم وصول للإخاء وقاطع

وقال أبو تمام يمدح عياش بن لهيعة :

لله أفعال عياش وشيمته ... تزيده كرما إن ساس أو سيسا[2]
ما شاهد اللبس إلا كان متضحا ... ولا أرى الحق إلا كان ملموسا
فاضت سحائب من إنعامه فطمت ... نعماه بالبؤس حتى اجتثت البوسا
يحرس بالبذل عرضا مايزال من الـ ... ـم آفات بالنفحات الغر محروسا
فرع علا فى سماء العز متخذا ... أصلا ثوى فى قرار المجد مغروسا
ليث ترى كل يوم تحت كلكله ... ليثامن الأنس جَهْمَ الوجهِ مفروسا
أَهْيسَ أَلْيسُ لجَّاءُ إلى همم ... تغرق الأسد فى آذيّها اللِّيسا
تجرى السعود له فى كل نائبة ... نابت وإن كان يوم اليأس منحوسا
نافس أهل العلا فاحتاز علقهم ... منهم فأصبح معطى الحق منفوسا
له لواء ندى ما هزّ عامله ... إلا أراك لواء البخل منكوسا

وأظن أن النماذج واضحة فيما قدمنا ، وأن الشبه بين النماذج الثلاثة الأولى واضح من حيث جريانها مع الطبع وعنايتها بالغرض العام وبعدها عن المحسنات

(١) ديوانه ح - ٢ - ص ٧٧ .
(٢) ديوانه ص ١٢٨ .

بخلاف شعر أبي تمام الذى يشبه المعادلات الجبريةَ فترى فيه الفرعَ بأزاء الأصل وسماء العز فى مقابل قرار المجد وترى فيه إلى جانب ذلك استعاراتٍ مركبةً أو مزدوجة أو ماشئت لها من الأسماء . فإنه لم يكتف بجعل صاحبه أسداً حتى استعار له كلكلا ، وهكذا يخلق لنا فى خياله العجيب حيوانا لم يخلقه الله تعالى له أنياب الأسد وأظفاره وكلكل الجمل وجرانه .

ولا بأس على ممدوحه فى أن يكون منحوسا[1] ، مادام ذلك يحقق نوعا من البديع الذى أولع به .

ومن عجب أن معظم النقاد ومؤرخى الأدب قد اهتموا بناحية الزخرف اللفظى وما يحمله ذلك الزخرف من جمال أو قبح . ونسوا أن هذا الزخرف عند أهل الصنعة توأم لمجهود آخر فى ميدان المعانى لا يقل خطورة عن الجانب اللفظى . والتنبه إلى تلك الصلة بين التوأمين تساعدنا على معرفة الدوافع التى دفعت زعماء مذهب الصنعة إلى اعتناقه .

لقد كان إماما هذا المذهب مسلم وأبو تمام[2] بطلين من أبطال المديح ، وقفا حياتهما على هذه المهنة مهنة التكسب بالشعر ، وجعلاها مرتزقهما وشغلهما الشاغل ، فأحبا أن يقولا فى الممدوحين قولا لم يسمع من قبل . والسبيل إلى ذلك أن يحشدا فى العبارة كل ما يتسع له جلدها من معان على حد تعبير أبي تمام ، ثم يخلعا عليها بعد ذلك من الحلى اللفظية بقدر ما تتسع ثروة الشاعر اللغوية ، وما تسعفه به ملكته الشعرية .

وهكذا نرى أن العناية بالألفاظ والمعانى مظهران مختلفان لفكرة واحدة هى الوصول بالشعر إلى أقصى ما يمكن الوصول إليه من مراتب الإبداع والكمال . ولكن الطريق أمامهما لم يكن مفروشا بالورود والرياحين كما يحب بعض الناس أن يفعل بهم أولهم ، بل تعرض الأخير منهما لأنواع المحن والمتاعب .

---

(١) نشير بذلك إلى قوله :

تجرى السعود له فى كل نائبة نائب وإن كان يوم البأس منحوسا

وشتان مابين القولين .

(٢) اضطررنا إلى إطالة الحديث عن أبي تمام لأن فى فهمه فهما لمذهب الصنعة كما ذكرنا أعلى هذه السطور

أهمها ثورة أنصار القديم عليه وعنفهم به . فقد كان للقديم أنصاره ومعظمهم من الرواة وكان أشدهم عنفا به ابن الأعرابي . ولم لا ينصرون القديم ويتعصبون له ، وهو بضاعتهم ورأس مالهم . ولو رضوا عن الجديد ، أو سكتوا عن مقاومته لطغى على قديمهم ، وذهب بمجدهم . على أنهم لو سألوا الله أن يشرب قلوبَهم حبَّ الإنصاف فاستجاب لهم لوجدوا أنفسهم أمام خطر جديد ، هو صعوبة ما أتى به أهل الصنعة من معانٍ بعيدة عن أذهانهم وتجاربهم . ومن ثَمَّ أحبوا أن يستروا موقفهم فتعلقوا ببعض أخطاء أبي تمام وراحوا يتزيّدون فيها ، ويتهكمون منه ومنها ، حتى يشغلوا الناس عن النقط الأساسية فى قضية القديم والحديث ، وقد أفلحوا إلى حد كبير فبقيت آراء الناس حول هذا الموضوع مضطربة حتى هذه الساعة . ومع أن أبا تمام لم يعدم الأنصار من أمثال أبي بكر الصولى فإن ذلك لم يجده نفعاً ، لأنه كان فى دفاعه شبيها بخصومه فى هجومهم . من حيث أن هؤلاء وأولئك ينظرون إلى المسألة من زاوية واحدة تناسب رأيهم الشخصى ويغمضون أعينهم عن بقية الزوايا ، فالأنصار يركزون اهتمامهم على محاسنه محاولين فتح أعين الناس عليها ، والخصوم يعكسون الوضع فيهتفون بما يأخذونه عليه من مآخذ ويصمّون الآذان عما له من محاسن .

ولعَل أخطرَ محاولة لدراسة مذهب الصنعة حتى الآن هى تلك التى قام بها الدكتور شوقى ضيف وقد انتصر فيها لمذهب الصنعة ولإمامه[٣] ومع أنه قد ألقى عليه ضوءا قوياً إلا أنه نظر إلى المسألة بذوقه الخاص[٤] وكان الأولى أن ينظر إليها فى ضوء الذوق العام لجمهور القراء .

ونعود إلى ما بدأنا به من مخالفة أبي تمام وصحبه لسنة القدامى فى الجريان مع الطبع والبعد عن التكلف فنسأل أنفسنا متى يكون الشعر مطبوعا ومتى يكون متكلفا ؟ وجواب هذا السؤال أن الشعر يكون مطبوعا إذا تمت له أمور ثلاثة .

---

(٣) راجع ماكتب عن أبي تمام فى كتاب « الفن ومذاهبه » .

(٤) الدكتور شوقى كأبى تمام ثائر على التقاليد ، يضع الصنعة فوق الطبع ، ولايضيره خفاء المعنى وسنعرض لرأيه فيما بعد .

أولها : صدوره عن شاعر مطبوع ، أى مستعد بمقتضى فطرته لقول الشعر ، ولا يكون كذلك حتى يتم له رقة العواطف ، ودقة الإحساس والقدرة على تتبع مظاهر الجمال فى الكون وتذوقه ، إلى غير ذلك من الأمور التى يكون بها الشاعر شاعراً والأديب أديبا(٥) .

ثانيهما : جريان الشاعر مع طبعه ، أى أنه لا يكفى أن يكون الشاعر مفطورا على قول الشعر ، حتى يصحب ذلك رغبة أكيدة فى الاستجابة لذلك الطبع والجريان معه حيثما اتجه ، دون تعويق لتياره بالبحث عن معنى جديد أو لفظ بديع . وهذا غالبا هو ما يشير إليه النقاد حينما يتحدثون عن الطبع والتكلف .

ثالثها : ألا يحمل الشاعر نفسه على قول الشعر حملا ، بل ينبغى أن يكون راغبا فيه بدافع من نفسه . ولا يكون كذلك إلا إذا كان تحت تأثير انفعال مناسب لموضوع الشعر . فإذا اتجه إلى الهجاء فلابد أن يكون إذ ذاك مغيظا محنقا ، وإن حاول الرثاء وجب أن يكون محزونا ولعل هذا هو السبب فى قول الفرزدق : يأتى علىّ وقت وخلع ضرس أهون عندى من قول بيت من الشعر(٦) . وينصح ابن قتيبة بالذهاب إلى الرياض ، والتقلب فى أعطاف الطبيعة المشرقة لمن كان بصدد قرض شىء من الشعر(٧) ولعل ما أشرنا إليه من ضرورة كون الشاعر تحت تأثير انفعال مناسب بين لنا السر فى قوة تلك القصيدة(٨) المشهورة التى قالها جرير فى هجاء الراعى وقومه . والتى يقال أنها أجلتهم عن ديارهم فراراً من العار الذى صبه شيخ الشعراء عليهم . فقد قالها وهو يهذى كالمحموم ويهدر كالبعير على إثر مشادة بينه وبين الراعى(٩) .

---

(٥) لأبى عامر بن شهيد حديث حول هذا الموضوع فى الرسالة التى كتب بها إلى أبى بكر المعروف بأشكياط (الذخيرة لابن بسام – القسم الأول – المجلد الأول)إخراج كلية الآداب ص ١٩٥ ومابعدها .

(٦) الشعر والشعراء ص ١٨ .

(٧) نفسه .

(٨) نعنى تلك التى يقول فيها:

فغض الطرف إنك من نمير فلا كعبا بلغت ولا كلابا .

وقد بلغ من إعجاب بعض النقاد بهذا البيت وقائله أن قالوا· « إنه أهجى بيت قالته العرب » . طبقات الشعراء ص ١٣١ .

(٩) طبقات الشعراء ص ١٥٤ ، ١٥٥ .

وشعراء العرب ونقادهم لم يكونوا يجهلون أثر الانفعالات القوية فى إجادة الشعر ، فقد قال عبد الملك لأرطاة بن سهيةَ : « هل تقول اليوم شعرا ؟ » قال : كيف أقول وأنا لا أشرب ولا أطرب ولا أغضب وإنما يكون الشعر بواحدة من هذه »[10] .

أما علم النفس الحديث فرأيه فى هذه المسألة واضح ، فإنه يخبرنا أن الانفعالات المتنوعةَ من غضب وخوف وفرح وغيرها تحدث تغيراتٍ وإفرازاتٍ مختلفة فى الكبد وغيره من الغدد[11] يكون من نتائجها إمداد الجسم بنشاط غير عادى يمكّنه من الإتيان بأمور ربما تعذر عليه الإتيان بها فى الأحوال العادية ، والنفس هادئة ، والبال مستقر ، وكما يظهر أثر ذلك النشاط فى الناحية الجسمية ، فيستطيع المرء رفع الأثقال الضخمة ، وقطع المسافات الطويلة ، فإنه يظهر فى الناحية العقلية والعاطفية فيستطيع الإنسان التحليق فى أجواء من الخيال ما كان يرقَى إليها ، والنفاذ بفكره فى أسرار ما كان ليهتدى إليها فى أحواله العادية . ولا شك فى أن أبا تمام قد استوفى الأمرين الأول والأخير من تلك الأمور التى اشترطناها للشعر المطبوع وكان ينفعه الثانى منها . فاشتغاله بالمحسنات البديعية وتصيده لغرائب المعانى كان من غير شك يقطع تيار الطبع الجارف ويميل بالشاعر إلى الغموض والتكلف . ونتائج ذلك خطيرة جداً وضارة بالشاعر .

اولا : لأنها تهاجم الذوق العام عند فريق كبير من الناس . ونعنى به ذلك النوع الذى يطربه المظهر الطبيعى رغم تواضعه أكثر مما تغريه الدهون والمساحيق .

ثانيا : إن استغلاق بعض أبيات أبى تمام على عقول القراء ، وما أكثرها ، تحول بين استمتاع القارئ بالقصيدة كوحدة متكاملة ، لأنها ستشغله عن جمالها بمحاولة فهمها وتجعل عمله فيها عقليا أكثر منه وجدانيا .

ونحن لاننشد فى الشعر حكمة ولا ثقافة ، ولا تجرى فيه وراء الأفكار المجردة ، ولكننا ننشد أولا وأخيراً المتعة الروحية التى لا تتم إلا حين يغمرنا الشاعر بسيل من

(١٠) الشعر والشعراء ص ١٨ .

(١١) باب الانفعالات من كتاب « فى علم النفس » للأستاذ حامد عبد القادر ص ١٥٨ .

الإحساسات القوية والانفعالات الجياشية حول عواطف وموضوعات مشتركة بيننا وبينه . يقدمها إلينا فى أعذب لفظ وأيسر عبارة ولعل هذا هو السبب فى قول القدامى من النقاد « أبو تمام والمتنبى حكيمان والشاعر البحترى[١٢] » .

ومع هذا فذلك القدر المتواضع من الحكمة والعلم الذى يمكن أن نصيبه من قراءة أبى تمام لا يتيسر إلا لطائفة قليلة من المثقفين ، بينما يحرم معظمهم الاتصال بالشاعر اتصالا مباشراً ، ويحرم هو أيضاً منهم . وما ظنك برجل يستعصى فهمه أحيانا حتى على أقرب الناس إليه وأعرفهم بطريقته . ولن نذكر لك شيئاً مما هتف به النقاد أو أكثروا فيه ولكن إليك أبياتًا ثلاثة لم يشر إليها أحد من قبل قالها فى أبى سعيد الثغرى بعد أن فرغ من ذكر خدمته ومدائحه فيه :

هذا إلى قدم الذمام بك الذى لو أنه وُلد لكان وصيفا[١٣]
وَحَشاً تحرّقه النصيحة والهوى لو أنه زمن لكان مصيفا
ومقيل صدر فيك باق روعه لو أنه ثغر لكان مخوفا

وتعجب حين تعلم أن الخطيب التبريزى على بصره بالشعر العربى بعامة وشعر أبى تمام بخاصة ترك البيت الأخير دون شرح ، وليس استهانة منه بشأنه فأنه أشدها غموضاً ولكن لأسباب يعرفها هو . وسنحاول أن ننثرها جميعاً لتدرك مدى الغموض والعنت الذى يجرّه الشاعر على القارئ حين يسلك به شعابا ملتوية من الفكر يحار فيها الدليل ويمكن أن تقرأ هكذا :

أضف إلى ما تقدم من مدائحى فيك قديم حرمتى وسابق خدمتى وأكيد ولائى الذى لو صور بصورة فالبشر ، أو اتخذ شخصية ولد لكان من الطاعة لك والفناء فيك بحيث يحسبه الناس وصيفا لا ولدا .

وبين جوانحى حشا أنضجته عواطفى الحارة بلهيبها حتى إنه لو صح أن يكون زمنا تختلف عليه الفصول الأربعة ، لكان أشدها حرا وأعظمها هجيراً وهو الصيف .

---

(١٢) نحن نتفق معهم فيما يختص بالأول ولانطلق الحكم فى الثانى إطلاقهم كما سيتضح فيما بعد .
(١٣) ديوانه ص ٢٠٨ .

ولكن وسط ذلك الحر اللافح والجحيم المستعر كهف متواضع باطنه فيه الرحمة وظاهره معرض للهجير . وفى ظلال ذلك الكهف الوريفة يكمن حدب لك وإشفاق عليك واحتياط لسلامتك ، وما هذا الكهف إلا صدرى ، الذى لو اتخذ صورة الثغر واتخذت تلك المعانى المختلفة صورة ما يعده الناس فى الثغور لحماية أرضهم من عدد وذخائر لكان ذلك الثغر مخوفا لا يجرؤ أحد على الاقتراب منه .

إذا كان هذا ما يقصده الشاعر فما أغربه ، وإلا يكن ، فهو أشد غرابة . ومع ذلك يقال لنا إن فى فهم مثل هذا الشعر متعة . حقيقة فيه متعة ولكنها منغصة . إنها أشبه بما يناله المرء من أننى لعوب غضوب ، تختلط فيه اللذة بالألم والدموع بالبسمات .

وهكذا نرى أن أبا تمام كان يسرف فى الغموض حقا ، وكان جديراً بثورة القدامى عليه . ولكنه كان إلى جانب ذلك محسنا جداً حين يسلم بعض شعره من تلك الغرائب والعجائب التى جرها عليه مذهبه الجديد . ومن هنا نعلم أن موقف قدامى النقاد منه كان يشبه تماما قول الذى قال : « رضيت فقلت أحسن ما علمت ، وسخطت فقلت أسوأ ما علمت ، وما كذبت فى الأولى ووالله لقد صدقت فى الآخرة » وكان أهم ما أخذه القدامى على أبى تمام قبح الاستعارة كما فى قوله :

يادهر قوم من أخدعيك فقد أضججت هذا الخلق من خرقك (١٤)

وقبح الجناس كما فى قوله :

فاسلم سلمت من الآفات ماسلمت سِلامْ سَلْمى ومها أورق السَّلم (١٥)

وسوء النظم كما فى قوله :

يوم أفاض جَوًى أغاض تعزِّيا خاض الهوى بحرى حجاه المزبد (١٦)

واللحن كما فى قوله :

---

(١٤) موازنة ص ١١٦ .

(١٥) موازنة ص ١٢٢ .

(١٦) موازنة ص ١٢٦ .

ثانيه فى كبد السماء ولم يكن   لاثنين ثان إذ هما فى الغار[١٧]

والخروج على تقاليد القدامى فى الوصف كما فى قوله :

رقيق حواشى الحلم لو أن حلمه   بكفيك ماما ريت فى أنه برد[١٨]

وأخذوا عليه النقل عن القدامى حتى قال بعضهم إنه لم يخترع سوى ثلاثة معان[١٩] . أما إحسانه فكثير كثرة إساءته . وقد رأيت نموذجاً له فى شعر الطبيعة السابق ونزيد هنا أبياتا أخرى قلائل منها قوله فى أبى سعيد الثغرى :

قطب الخشونة باللبان معاقبا   فغدا جليلا فى القلوب لطيفا
هَزّنه معضلة الأمور وهزّها   وأخيف فى ذات الإله وخيفا
يقظان أحصدت التجارب عقده   شزرا وثُقّف حزمه تثقيفا

وقوله فيه أيضا :

لك هضبة الحلم التى لو وازنت   أجأ إذن ثقلت وكان خفيفا
وحلاوة الشيم التى لو مازجت   خلق الزمان الفدم صار ظريفا

أو قوله فى الأفشين على اختلاف الهدف فى الشعرين :

ما زال سر الكفر بين ضلوعه   حتى اصطلى سر الزناد الوارى
نارا يساور جسمه من حرها   لهب كما عصفرت شق إزار

أو قوله يمدح أحمد بن أبى دؤاد :

وما سافرتُ فى الآفاق إلا   ومن جدواك راحلتى وزادى
مقيم الظن عندك والأمانى   وإن قلقت ركابى فى البلاد

---

(١٧) موازنة ١٢ س .
(١٨) موازنة ٦٣ .
(١٩) موازنة ٦٠ .

استفحال الثورة وتشعبها

استفحلت الثورة التى قام بها مسلم وأبو تمام وتشعبت وذهبت بتلك السمات العامة التى تركها الطبع فى الشعر القديم وأحلت أخرى مكانها ، وكان أهم ما ظهر من ذلك :-

أولا :- الغوص على الطريف من المعانى والجديد من الأخيلة ، فقد كان من آثار التغير الشامل الذى طرأ على العقلية وعلى الذوق والخيال وعلى الحياة العربية بصورة عامة ، أن نبتت عند القوم آراء ومذاهب وأفكار لم تكن تخطر للقدامى ببال . ثم هم بعد ذلك لا يكتفون بهذا التفوق أو النمو الطبيعى ، بل يجهدون أنفسهم فى تصيد الجديد والطريف من المعانى كما يجعلوا من شعرهم مسرحا أو مرآة لعرض معانٍ وأخيلة لا عهد للسامعين بمثلها .وغايتهم من ذلك إظهار ما لهم على الأوائل من امتياز وإليك عدة نماذج توضح ماذكرنا ، يقول أبو العلاء المعرى فى الأول منها :

حياة عناء وموت عنا فليت بعيد حمام دنا
ومُوقد نيرانه فى الدُّجا يروم سناء برفع السنى
يحاول عاش ستر القميـ ـص ومـلْء الخمـيص وبرْء الضنى
ومن ضمه جدث لم يُبَل على ما أفاد ولا ما اقتنى
يصير ترابا سواء عليه مَسّ الحرير وطعن القنا

وفيها يقول :

ينافى ابن آدم حالَ الغصو ن فهاتيك أجنت وهذا جنى
إذا هو لم يخن دهر عليه قال الفرىّ وجاء الخنا
وسيان من أمه حرة حصان ومن أمه فَرْتَنىَ

ويقول أبو الحسن الأنبارى فى الوزير أبى الطاهر محمد بن بقية وزير عز الدولة :

عُلُوّ فى الحياة وفى الممات لَحقٌ أنت إحدى المعجزات[٢٠]

---

(٢٠) ابن خلكان (وفيات الأعيان)ج - ٢ - ص ٨٣ .

كأن الناس حولك حين قاموا وفود نداك أيام الصِّلات
كأنك قائم فيهم خطيبا وكلهم قيام للصَّلاة
مددت يديك نحوهم احتفاء كمدهما إليهم بالهبات
ولما ضاق بطن الأرض عن أن يضم عُلاك من بعد الوفاة
أعاروا الجو قبرك واستعاضوا عن الأكفان ثوبَ السافيات

أرأيت هذا السيل الجارف من الأفكار الجديدة ، بل العواطف الحارة التى تأخذ بالعقل والقلب معا ، فقد استطاع الشاعر ببراعته وإخلاصه[٢١] أن يحيل المهانة كرامة والهزيمة نصرا. إنها مغالطة من غير شك ، فالبون شاسع بين الحقيقة المرة وبين الأخيلة المستعارة التى خلعها الشاعر على صاحبه فليس هناك ارتباط بين مصلوب فى جذع وخطيب على منبر إلا فى خيال قوى جامح يذكيه قلب محب ثائر. ولكننا نتقبل تلك المغالطة عن رضا ، بل نجرى وراءها ونتشبث بها تشبثنا بالأحلام السعيدة لأننا نريد أن نعيش فى هذا العالم الخيالى المصطنع بعيدا عن الواقع المرير. نريد أن ننسى أن الإنسانية أهينت فى شخص ذلك المصلوب ، وأن نعتقد أننا حين يدفعنا الحرص على الحق إلى مثل هذه المواقف لن نقابل بشماتة الحاسدين ، بل بإكبار المعجبين.

فإذا رجعنا إلى أبى العلاء وجدناه لا يعمد إلى الخيال ، بل يعتمد على الحقائق ، وكل ما هنالك أنها حقائق دقيقة ، قلما يقف الشخص العادى عندها أو يلاحظها ، أما الفلاسفة والمفكرين فطورا يسرفون فى التفكير والتقدير كما فعل أبو العلاء هنا ، وتارة ينتقلون إلى الطرف الآخر طفرة واحدة ، فيستهينون بالأخطار ، بل يرتمون فى أحضانها فرحين ، كما فعل الشاعر نفسه حين قال :

وهوّنت الخطوب علىّ حتى كأنى صرت أمنحها الودادا[٢٢]

والشاعر لا يناقض نفسه. ولكنه يسلك نفس الطريق الذى يسلكه كل من أسرف فى الاحتياط لنفسه ، ثم لم يظفر من كل ذلك بطائل. وفى هذا المعنى يقول أبو الطيب.

---

(٢١) يظهر من أبيات القصيدة أن الشاعر كان متأثراً حقاً بالحادث.

(٢٢) ديوانه ٣ ص ١٠.

وهـان فما أبـالى بـالـرزايا لأنى ما انتفعت بأن أبالى(٢٣)

وبعد فهل يدرى القارئ كم قرنا طواها أبو العلاء حين قال :

وموقـد نيرانـه فى الـدجا يـروم سنـا بـرفـع السنى

ناعيا على الناس اشتغالهم بأنفسهم حتى فى تلك اللحظات التى يبدو الواحد منهم فيها وكأنه مشغول بمن سواه ؛ فتراهم يحسنون إلى الضعفاء ، ولكن لا ليكشفوا ما بهم من ضر ، بل ليقال عنهم إنهم أجواد . إنه بذاك يذكرنا بطائفة من الكتاب المحدثين الذى ثاروا على المثل العليا القديمة من كرم ووطنية وحب بل وتديّن ، قائلين إن الكرم نوع من الدعاية والوطنية تجر إلى الحروب . والحب إلى الزواج ومشاكله المختلفة . والدين كثيرا ما ينتهى بالتعصب البغيض . وشبيه بقول أبى العلاء مع اختلاف الهدف قول أبى الطيب :

أرى كلنا يبغى الحياة بسعيه حريصا عليها مستهاما بهاصبا(٢٤)

فحبّ الجبان النفسَ أورده التقى وحبّ الشجاع النفسَ أورده الحربا

ويختلف الرزقان - والفعل واحد إلى أن يُرى إحسان هذا لذا ذنبا

وإذا كان أبو الطيب قد ذهب بمعظم ما فى الأدب العربى من أشعار تفسر خلجات النفس ، وسلوك الناس ، فإن أبا تمام قد برز فى تصيد الغريب من الأخيلة والطريف من المعانى(٢٥) .

وإليك طرفا من قصيدته الرائية التى يمدح فيها المعتصم ويذكر احتراق الأفشين .

كم نعمة لله كانت عنده فكـأنها فى غـربـة وإسار

كُسِيَتْ سبائبَ لؤمه فتضاءلت كتضاؤل الحسناء فى الأطمار

موتورة طلب الإله بثأرها وكفى برب النار مدرك ثار

وفيها يقول :

ما زال سرّ الكفر بين ضلوعه حتى اصطلى سر الزناد الوارى

(٢٣) لقد سبق الكتاب الأوربيون إلى هذا اللون من التفكير .

(٢٤) ديوانه ١ - ٦٥ .

(٢٥) يشاركه فى ذلك ابن الرومى .

نارا يساور جسمه من حرها لهب كما عصفرت شِقٌّ إزار
مشبوبة رفعت لأعظم مشرك ما كان يُرْفع ضوءها للسارى
صلىّ لها حيا وكان وقودها ميْتا ويدخلها مع الفُجَّار
وكذلك أهل النار فى الدنيا همُ يوم القيامة جُلّ أهل النار

ثم يعرج على بعض المصلوبين معه فيقول :

ولقد شفى الأحشاء من بُرحَائها أن صار بابك جار مازيار
وكأنما ابتدرا لكيما يطويا عن باطس خبرا من الأخبار
سود اللباس كأنما نسجت لهم أيدى السَّموم مدارعا من نار(٢٦)
بكروا وأسروا فى متون ضوامر قيدت لهم من مربط النجار(٢٧)
لا يبرحون من رآهم خالهم أبدا على سفر من الأسفار
كادوا النبوة والهدى فتقطعت أعناقهم فى ذلك المضمار

فالقارئ لهذه الأبيات التى اخترناها يجد فى كل منها معنى جديداً ورائعا فى الوقت نفسه ، فتراه يبرز النعم وقد أصابت غير موطنها ، تارة فى صورة الغريبة أو الأسيرة . وطورا فى صورة الحسناء وهى تتعثر فى ثياب مهلهلة بالية .

ثم يشبه جسده وقد شبت فيه النيران بالثوب المعصفر ، فإذا ما أتت عليه النار وتفحم بدا وكأنه فى ثياب سوداء . وبعد ذلك يستغل انتساب الأفشين إلى المجوسية أعظم استغلال فيدعى أن صلته بالنار قوية ومتصلة الحلقات ، فقد عبدها حيا ، واحترق بها ميتا ، وسيساق إليها فى زمرة الكفرة والمفسدين . ثم يستغل انحراف بعض الجذوع وتقاربها ليشبه من عليها – شماتة وتهكما – بمن يسر حديثا إلى صاحبه . وكل هذه معان وأخيلة ما كانت لتطرأ على ذهن شاعر قديم لو أنه وقف من المصلوبين هذا الموقف . وقد ذكر بعض الرواة أنه رأى أبا تمام يتصبب عرقا كأنما يتنزل عليه الوحى وهو ينشد بعض أشعاره ، ومثل هذا الجهد العنيف يتيح لهم طرق أفكار لا يكاد يصل إليها البدوى القديم الذى ينتقل بين الصور والأخيلة تنقل النحلة بين

(٢٦) السموم بفتح السين المهملة الريح الحارة ، وأراد بها هنا النار .
(٢٧) أراد بالضوامر الصلب وهو بضمتين جمع صليب .

الزهور ، لا تكاد تستقر فى مكان حتى تثب منه إلى غيره مكتفية منها بالرشفة السريعة . وليس أدل على قوة تصرف الفكر الحديث واتساع آفاقه مما رأيناه من اتحاد الموضوع وهو الصلب فى قصيدتى أبى تمام والأنبارى ، واختلاف القول عندهما اختلافا تاما ؛ حيث جعله أحدهما كرامة والثانى هوانا .

محاولة الإقناع :

كان لانتشار العلوم ، واتساع الثقافة ، واستفاضة الجدل بين العلماء واطلاع العرب على منطق اليونان ، كان لكل ذلك أثره فى الشعر العربى ، بل والعقل العربى الذى أصبح ينتظر لكل شيء تعليلا ، ويتطلب عليه دليلا وكان القدامى من جاهليين وأمويين لا يجدون ضرورة لشغل أنفسهم أو السامعين بمثل ذلك التعليل أو التدليل .

على أن ميل المحدثين من الشعراء إلى استنباط كل جديد وغريب من المعانى كثيرا ما كان يؤدى بالسامعين إلى استنكار ما يأتون به فيضطر الشعراء بدورهم إلى سوق الدليل على صحة ما يقولون حتى يتمكن من نفوس السامعين . ومن ذلك ماروواه الصولى من أن أبا تمام كان ينشد قوله :

شاب رأسى وما رأيت مشيب الر أس إلامن فضل شيب الفؤاد[٢٨]

فأحس شك من حوله فى صحة هذه القضيّة فعقّب بقوله :

وكذا القلوب فى كل بؤس ونعيم طلائع الأجساد

وإليك عدة نماذج من كلام القدامى والمحدثين تبين ما بينهما من فروق فى هذا الصدد .

قال جرير فى النظر :

إن العيون التى فى طرفها حور قتلّننا ثم لم يحيين قتلانا[٢٩]

يَصْرعن ذا اللب حتى لا حَراك به وهن أضعف خلق الله أركانا

---

(٢٨) أخبار أبى تمام ص ٢٣٢ .

(٢٩) ديوانه ص٥٩٥ .

وقال فيه ابن الرومى :

نظرت فأقصدت الفؤاد بلحظها ثم انثنت عنه فظل يهيم[٣٠]
فالموت إن نظرت وإن هى أعرضت وَقْع السهام وَنَزْعهن أليم

وقال الحَرِث بن حِلّزة فى قالة السوء :–

أيها الناطق المرقّش عنا عند عمرو وهل لذلك بقاء[٣١]
لا تَخَلْنا على غراتك إنا قَبْل ما قد وشت بنا الأعداء
فبقينا على الشناءة تَنمينا حصون وعزة قعساء

فقال أبو تمام :

وإذا أراد الله نشر فضيلة خَفِيَتْ أتاح لها لسان حسود[٣٢]
لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يُعرف طيب غرس العود

وقال الفرزدق فى وفاة مولود :–

وجفن سلاح قد رزئت فلم أنح عليه ولم أبعث عليه البواكيا[٣٣]
وفى بطنه من دوام ذو حفيظة لو أن المنايا أخطأته لياليا

فقال أبو تمام فى صغيرين ماتا لعبد الله بن طاهر :

لهفى على تلك المخايل فيهما لو أُمهلت حتى تكون شمائلا[٣٤]
إن الهلال إذا رأيت نُمُوَّه أيقنت أَنْ سيصيرُ بدراً كاملا

دعك من التوسع فى المعنى والتجديد فيه حيث جعل ابن الرومى العين تصيب حين ترسل النظر وحين تغضّه ، بينما اقتصر جرير على الأول وحيث ادعى أبو تمام أن قالة السوء تفيد المفترى عليه . على حين قنع ابن حِلِّزة بنفى آثارها السيئة ، دعك من

---

(٣٠) تاريخ الأدب العربى ص ٣٧٩ .
(٣١) المعلقات العشر.
(٣٢) الموازنة ص ٦١ .
(٣٣) الموازنة بين أبى تمام والبحترى ص ٣٧ .
(٣٤) نفسه .

هذا الآن فإنه ظاهرة أخرى من ظواهر الشعر الحديث(٣٥) وانظر إلى طريقة القدامى فى إيراد القضايا خالية من الأدلة ، جريا على عادتهم فى الاكتفاء من القلادة بما أحاط بالعنق ، ثم انظر إلى إصرار المحدثين على إقامة البراهين عليها .

وشيوع التعليل على هذا النحو يعدّ ظاهرة خطيرة فى الشعر العربى لأن فيه عملية عقلية مركبة ، حيث يبدأ الشاعر بذكر دعوى يكتنفها الشك لغرابتها غالباً كذيوع ما خفى من فضل الفضلاء كلما جد الحاسدون فى تسويد صحائفهم ، ثم يثنى بإقامة الدليل على إمكان حدوث ذلك ، ممثلا له بنار اشتعلت فى عود طيب الرائحة فتضوع شذاه بعد أن كان فضله على غيره خافياً ، يحسبه الجاهل نوعاً من الحطب .وهذه الظاهرة خطيرة لأنها وليدة خيال جامح وفكر ثاقب متحرر يستطيع أن يتغلغل فى أسرار الكون ، فيدرك ما بين أجزائه المختلفة من روابط ووجوه شبه . وهكذا ينبغى أن يدرك القائل :

وشبه الشىء منجذب إليه ... وأشبهنا بدنيانا الطّغام
ولو لم يعل إلا ذو محل ... تعالى الجيش وانحط القتام

الشبه بين الغبار المتعالى فى الجو رغم تفاهته ، والطغام الذين يتسلقون كالقردة والزواحف على أكتاف غيرهم إلى المناصب العليا رغم هوانهم على أنفسهم وعلى الله ، ثم يقفز إلى الطرف الآخر للقضية فيدرك الشبه بين تواضع الجيش وانضوائه تحت لواء الغبار من جهة . وخفاء أقدار النفوس الكبيرة من جهة أخرى فيجمع بين هذين ويضعهما بإزاء ما سبق .

والشعر العباسى ملىء بهذا النوع من التعليل وإن أردت مزيداً فاقرأ قول أبى العتاهية :

يا صاحب الدنيا المحب لها ... أنت الذى لا ينقضى تعبه(٣٦)
إن استهانتها بمن صرعت ... بقدر ما تعلو به رتبه

---

(٣٥) استنباط الجديد الدقيق من المعانى .

(٣٦) ديوانه ص ٣٤ .

ولو استوت للنمل أجنحة كما يطير فقد دنا عطبه

وقول أبى تمام :

لا تنكرى عطل الكريم من الغنى فالسيل حرب للمكان العالى(٣٧)

وقول أبى الطيب :

أرى المتشاعرين غُرُوا بذمى ومن ذا يحمد الداء العُضالا
ومن يَكُ ذافمٍ مرٍ مريضٍ يَجدْ مراً به الماءَ الزلالا

وقوله :

فإن تفق الأنام وأنت منهم فإن المسك بعض دم الغزال

ولا يعتمد المحدثون فيما يحاولون من إقناع السامع على المنطق الجاف ، بل يسلكون إلى النفوس مسالك لطيفة ، تنتهى بها إلى التسليم إن كان الموقف موقف خصومة وجدل ، وبالرضا والهدوء عند السخط والمعاناة ويبدو ما قلناه واضحا حين تضع قول النابغة :

ولست بمستبق أخا لا تلمه على شعث أىّ الرجال المهذب

بجانب قول بشار بن برد :

إذا كنت فى كل الأمور معاتبا صديقَك لم تلقَ الذى لا تعاتبه
فعش واحدا أو صل أخاك فأنه مقاربُ ذنبٍ مرةً ومجانبه
إذا أنت لم تشرب مراراً على القذى ظمئت وأىُّ الناس تصفو مشاربه

والبيت الأخير من أبيات بشار يجعل الإخوان كالماء يصفو تارة ويكدر أخرى فإذا كنا نتقبل هذا الوضع فى مشاربنا ، ونتسامح فيه إبقاء على حياتنا ، فلم لا نفعل مثل ذلك بالإخوان أيضا فنتقبلهم على علاتهم .

وينبغى ألا ننسى أن فى مثل هذا التعليل شيئا غير قليل من المغالطة إذ ليست هناك صلة واضحة بين الماء والأصدقاء أو بين الطغام والقتام أو النار وقالة السوء .

---

(٣٧) ديوانه ص ٢٤٦ .

وكأنى بالشعراء يلتمسون أوهى الأسباب لتمكين ما يقولون من نفوس السامعين . وما أشبههم هنا بالجاحظ حين قال[٣٨] فى تفضيل السودان على البيضان « ودهم الخيل أبهى وأقوى ، والبقر السود أحسن وأبهى وجلودها أنفع وأثمن وأبقى . . وكل جبل وحجر إذا كان أسود كان أصلب صلابة وأشد يبوسة . والأسد الأسود لا يقوم له شىء . وليس من التمر أحلى حلاوة من الأسود . . والإنسان أحسن ما يكون فى العين إذا كان أسود الشعر وأكرم ما فى الإنسان حدقتاه وهما سوداوان وكذا كبده ، وسويداء قلبه » وكأنه بمثل هذا الإسهاب يريد أن يقول إن نواميس الطبيعة فى جانب دعواه وكذلك يفعل المحدثون من الشعراء فيما ذكرناه .

والقدماء فى موازنتهم أبعد عن المغالطة ، وأقرب لطبائع الأشياء .

اقرأ إذا شئت قول عباس بن مرداس :

ترى الرجل النحيف فتزدريه ... وفى أثوابه أسد مزير[٣٩]
ويعجبك الطرير فتبتليه ... فيخلف ظنك الرجل الطرير[٤٠]
فما عِظَم الرجال لهم بفخر ... ولكن فخرهم كرم وخير
بغاث الطير أكثرها فراخا ... وأم الصقر مقلاة نزور[٤١]
ضعاف الطير أطولها جسوما ... ولم تطل البزاة ولا الصقور

فسترى أن الرجل يبسط بين يديك قضية محددة ، وهى أن عظمة المرء ليست بقدر ضخامة جسمه ، ولكن بأعماله النافعة ، ثم يحاول فى البيتين الرابع والخامس الاستدلال على صدق قضيته ، فلا يذهب بك بعيدا ، كما فعل المحدثون من بعده . ولكن يوازن بين الإنسان والطيور ؛ لأنهما تابعان لجنس واحد وهو الحيوان . وقوانين الطبيعة المسيطرة عليهما واحدة ، أو متقاربة .

وهناك نوع من القياس الصريح الذى لا يحتاج إلى مثل هذا المجهود الذهنى لأنه

(٣٨) مجموعة رسائل الجاحظ ص ٦٨ ، ٦٩ .

(٣٩) الحماسة ج ٢ – ص ٢١ – مزير . عاقل .

(٤٠) الطرير: الناعم المترف .

(٤١) بغاث الطير شرارها – مقلاة نزور· قليلة الأولاد .

مأخوذ من التاريخ ، لا من نواميس الطبيعة وترى نماذجه فى مثل قول أبى تمام يمدح المعتصم ، ويعتذر عنه فى استعمال الأفشين رغم ما كان ينطوى عليه من خيانة للدين والدولة :

هذا النبى وكان صفوة ربه   من بين باد فى الأنام وقار[٤٢]
قد خص من أهل النفاق عصابة   وهم أشد أذى من الكفار

أو يقول مشيراً إلى أن الدين والورع لا ينبغى أن يكون أساسا يُقَسِّم فى ضوئه الناس إلى أشراف وسوقه ، بل ينبغى أن يكون الحكم فى ذلك موافقهم ومآثرهم :

إن كان بالورع ابتنى القوم العلا   أو بالتقى صار الشريف شريفاً[٤٣]
فعلام قدم وهو زان عامر   وأميط علقمة وكان عفيفا[٤٤]
وبنى المكارم حاتم فى شركه   وسواه يهدمها وكان حنيفا

---

(٤٢) ديوانه ص ١٥٣ .

(٤٣) ديوانه ص ٢٠٩ الإشارة فى البيت الثانى إلى عامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة وكانا قد تفاخرا فقدم الأول لشجاعته وكرمه . ولم يضره كثيرا ماعرف عنه من فسوق وفجور .

(٤٤) أحيط بالبناء للمجهول. نحنّ وأبعد مالبناء للمجهول أيضا

العنصر الثانى

التزام الحقائق : عرفنا أن التزام الحقائق كان ظاهرة من ظواهر الشعر الجاهلى . ولم يكن ذلك منهم مراعاة لدين ، أو خضوعاً لشريعة ، ولكنه أثر من آثار حياتهم الساذجة ، التى تكتفى بقدر الضرورة من كل شىء فى المأكل بل والمشرب والملبس ، وتدع الفضول والمبالغات جانباً . ونتيجة من نتائج الحياة المكشوفة الصريحة التى يحبونها . وقد تتبعنا آثار تلك الظاهرة فى الشعر العربى ، فوجدنا الميل إلى الاقتصاد الشديد فى المدح والفخر ، بحيث لا يكاد الشاعر ينسب إلى نفسه وقومه حين يفخر ، أو ممدوحه حين يمدح إلا ما يعتقده أو ما هو قريب منه .

أما العصر العباسى فعصر الضخامة والمبالغة فى كل شىء ؛ ضخامة الدولة وفخامتها ، وضخامة الجيوش ، وتكدس الأموال ، وأبّهة الملك ، وسطوة الخلافة . مظاهر رائعة وحياة جديدة مختلفة كل الاختلاف عن حياة البادية ، بحيث صار الشعر الجاهلى الساذج المتواضع يبدو أمامها وكأنه عباءة البدو التى تحيّفها الزمن على كتفى أحد المارة فى بعض شوارع لندن أو باريس .

لم يكن إذن بدّ من أن يساير الشعر العربىّ تلك الحياة الجديدة . وإن يطرح التواضع والبساطة والقصد الذى عاد لا يلائم الظروف الجديدة . فإن تردد ، أو تباطأ حمله الناس على ذلك حملا ، ودفعوه إليه دفعا ، دون هوادة أو ملاينة . ومما يذكر بهذه المناسبة أن أبا تمام وقف يمدح أحمد بن المعتصم فقال :

أبليت هذا المجد أبعد غاية فيه وأكرم شيمة ونحاس[٤٥]
إقدام عمرو فى سماحة حاتم فى حلم أحنف فى ذكاء إياس

قال ذلك وظن أنه قال شيئا . ولكن أبا يعقوب يوسف الكندى الذى درس كتب أرسطو وأفلاطون ، سرعان ما لاحظ البون الشاسع بين قول أبى تمام ومقتضيات العصر فقال معترضاً : وهل زدت على أن شبهت الأمير بأجلاف العرب . إذن فلابد أن يلتمس الشاعر لغة غير تلك التى كانت تقال من قبل ، وُمُثلاً عليا غير

(٤٥) أخبار أبى تمام ٢٣١ والمعنى بلغة الرياضيين أن الممدوح حطم الرقم القياسى فى هذه الفضائل جميعا .

تلك التى عرفت فيما مضى . لقد كان مثل هذا البيت يمكن أن يقع موقعًا جميلا من نفس عبد الملك بن مروان أو أشباهه من خلفاء الدولة الأموية وأمرائها . أما اليوم فلا . وقد أخذ الشعراء إذ ذلك يلتمسون رضا الذوق العام بأساليب شتى . فمال بعضهم إلى الغلو كما ترى فى قول أبى نواس للرشيد :

وأخفت أهل الشرك حتى إنه　　لتهابك النطف التى لم تخلق

أو قول المتنبى فى بدر بن عمار .

لو كان علمك بالإله مقسما　　فى الناس ما بعث الإله رسولا (٤٦)
أو كان لفظك فيهم ما أنزل التـ　　ـوراة والقرآن والإنجيلا

وسرعان ما سرت الروح الجديدة فى أغراض الشعر الأخرى من هجاء وغزل وفخر وغيرها ، فإذا بابن الرومى يقول هاجيا :

لو أن قصرك يابن يوسف كله　　إبر يضيق بها فناء المنزل (٤٧)
وأتاك يوسف يستعيرك إبرة　　ليخيط قدّ قميصه لم تفعل

ومن قبلهم قال بشار يتغزل :

سلبت عظامى لحمها فتركتها　　عوارى فى أجلادها تتكسر (٤٨)
وأخليت منها مخها فجعلتها　　أنابيب فى أجوافها الريح تصفر

وإذا أحببت أن ترى مدى ما بين القدامى والمحدثين من تفاوت بصورة أدق وأوضح فوازن بين قول أبى نواس السابق فى الرشيد وقول جرير فى الحجاج :

وخافوك حتى القوم تنزو قلوبهم　　نُزُوَّ القطا التفت عليها الحبائل (٤٩)

أو قول النابغة :

نبئت أن أبا قابوس أوعدنى　　ولا قرار على زرأ من الأسد

---

(٤٦) ديوانه — ح ٣ — ص ٢٤٤ .
(٤٧) تاريخ الأدب ص ٣٩٩ .
(٤٨) نفسه ص ٣٩٨ .
(٤٩) ديوانه ص ٤٤٠ .

أو وازن قول بشار فيما رماه به الحب من ضعف :

سلبت عظامى لحمها فتركتها عوارى فى أجلادها تتكسر

بقول عروة بن حزام فى نفس المعنى :

متى تخلعا عنّى القميص تبيّنا بى الضرّ من عفراء يافتيان[٥٠]
وتعترفا لحما قليلا وأعظما رقاقا وقلبا دائم الخفقان

وشبيه بهذا قول الأخطل فى الخمر :

تدب دبيبا فى العظام كأنها دبيب نمال فى نَقايتهيّل[٥١]

إذا قيس بقول أبى تمام :

إذا الروح دبّت فيه تحسب جسمه لما دبّ فيه قريةً من قرى النّمل[٥٢]

وقول النابغة :

وعيّرتنى بنو ذبيان خشيته وهل علىّ بأن أخشاك من عار[٥٣]

حين يوضع بإزاء قول أبى تمام :

خضعوا لصولتك التى هى عندهم كالموت يأتى ليس فيه عار[٥٤]

فإنك لاشك واجد فى أقوال السابقين قصداً واعتدالا ، وربما رأيت عند القدامى شيئاً من المغالاة ، ولكنها نادرة ومستساغة . والسر فى ذلك أنها إما أن تجرى مجرى التهكّم ، والتهكم يعنى بإضحاك الناس أكثر مما يعنى بتحرّى الحقائق . ومن ذلك قول الطرماح :

ولو أن برغوثاً على ظهر قملة يكر على صفّى تمم لولّت

(٥٠) ديل الأمالى ص ص ١٥٨ .

(٥١) الموازنة ص ٣٨ . والنقا . بفتح النون القطعة من الرمل

(٥٢) نفسه .

(٥٣) نفسه ص ٣٦ .

(٥٤) نفسه .

(٥٥) الوساطة ص ٤٣٦ .

وقول العيني في جوابه:

ولو أن عصفوراً يمد جناحه على طيىء فى دارها لاستقلت[٥٦]

وإما لأن المرء يستطيع أن يتقبّل مافيها من حقائق مع شىء من التأويل والمغالطة ، كما ترى فى قول بعض القدامى:

ألا إنما غـادرت يـاأم مـالك صدى أينما تذهب به الريح يذهب[٥٧]

فالفرق شاسع بينه وبين قول المتنبي:

ولـو قلم ألقيتُ فى شِقِ رأسه من السقم ماغيرت من خط كاتب[٥٨]

فإن الناس كثيراً مايقولون فلان ظل لفلان ، أو صدى له . أما أبو الطيب فقد ضيق على نفسه سبل التأويل ، ووضع نفسه بين شق قلم فلا يستطيع أحد لذلك تخريجاً ، ولايجد له من كلام الناس شبيها . ولسنا فى ذلك نتحامل على المحدثين بدليل أننا نعتقد أن قول أبي الطييب:

كفى بجسمى نحولا أننى رجل لولا مخاطبتى إياك لم ترنى[٥٩]

أبعد عن المبالغة ، وأقرب إلى المتعارف من قوله السابق ، لأن المرء قد يكون قميئًا ، أو نحيلا ، بحيث يمكن أن يقول قائلا مثلا ، ماكدت أراه حتى تحدّث إلىّ أو نحو ذلك من العبارات .

ونحن نسلم بأن القياس مع الفارق . ولكن كم من الناس يفطنون إلى مثل هذه الفروق الدقيقة ، أليس معظم الشعر مغالطات ، ألا فليكن هذا بعضها . ومن عجب أن الجرجانى فى وساطته[٦٠] سوى بين هذه الأمثلة من كلام القدامى والمحدثين ، وإن اعترف بكثرتها عند هؤلاء ، وندرتها فى كلام أولئك .

(٥٦) نفسه .

(٥٧) نفسه ص ٤٣٢ .

(٥٨) نفسه ص ٤٣٤ .

(٥٩) نفسه .

(٦٠) ص ٤٣٣ .

ويختلف النقاد أيضا حول هذا اللون من التجديد اختلافهم حول تجديد أبي تمام ومسلم ، فمنهم من يتمسك بظاهر العبارة وحرفيتها على عادة القدماء فيرمى الشعراء بالإحالة ، ويتهمهم بالخطأ[61] ومنهم من وسعت الثقافة الحديثة آفاقهم فصاروا لايقفون عند المعنى الحرفى للعبارة ولايرون فيها إلا نوعا من المبالغة البريئة المقبولة بل المرغوب فيها . ومامن شك فى أن هذا الفهم والتساهل كان صدى لما أصاب الحياة من تطور اجتماعى جعلهم يطربون لكل طريف من المعانى وجديد من الأخيلة ، ولوكان ذلك على حساب الحقيقة التى عادوا لايحفلون بها كثيراً . وقد قوى هذا الاتجاه شيوع الثقافة اليونانية التى تحمل آثار الخيال الخصب الشائع فى آدابهم وأساطيرهم . وترى آثار هذه الثقافة فى قول قدامة بن جعفر[62] « إن الغلو عندى أجود المذهبين ، وهو ما ذهب إليه أهل الفهم بالشعر والشعراء قديما ، وقد بلغنى عن بعضهم أنه قال : أحسن الشعر أكذبه . وكذلك نرى فلاسفة اليونان فى الشعر على مذهب لغتهم[63] » .

ولنا فى هذه القضية موقف وسط ، فلا نرفض مثل تلك المبالغات ، ونرمى أصحابها بالخطأ والإحالة ، ولا نتحمس لها تحمس قدامة . لا نرفضها لأننا لا نوافق على ما يبديه القدامى من تزمت وتحامل على المحدثين ، لأن المحدثين لم يحاولوا مغالطة السامعين ولا قلب الحقائق ، ولا إيهام الناس بحدوث ما لم يحدث ، ووقوع ما لم يقع ، وكل ما أرادوه هو إمتاع السامعين على أسلوب العصر . ومثل هذا الفهم يجعل ثورة أنصار القديم عليهم غير ضرورية .

ولا نتحمس لها تحمس قدامة لأننا نعتقد أن القصد فى الفخر والمدح أوقع من الإسراف والغلوّ فيهما . فقد تكون المبالغة عذبة وجميلة ، وقد تعطى ضوءاً ساطعاً كأنه البرق الخاطف . قبل أن يتناولها الفكر بالتحليل . ولكن هذا الضوء اللامع

---

(٦١) الصناعتين ص ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٢٨٩ .

(٦٢) نقد الشعر ص ١٩ .

(٦٣) إذا كان قدامة يمثل رأى المحدثين وأذواقهم هنا ، فإن الجاحظ يتحدث بلسان القدامى حين يقول : « وأنفع المدائح للمادح ، وأجداها على الممدوح ، وأبقاها أثراً ، وأحسنها ذكرا أن يكون المديح صدقا ، ولظاهر حال الممدوح موافقا وبه لائقا – برسائل الجاحظ ص ٣٢ .

سرعان ما يتلاشى أو يضعف على الأقل حينما يظهر أنها مجرّد مبالغة أحسن الشاعر صوغها ، وليس بينها وبين الحقيقة إلا سبب ضعيف .

أما الممكن من المبالغات فإنه شبيه بنار الفحم ، بطيئة الاشتعال ولكنها مع ذلك شديدة الأثر ، طويلة الأمد . وسبب ذلك أن الحقيقة فيها تختلط بالخيال ؛ لجواز وقوعها ، وإمكان حدوثها ، اختلاطاً ربما قَوِى فى نفس السامع حتى يصير الخيال عنده حقيقة أو كالحقيقة . أما عند الغلو فقد يعجب السامع بخيال الشاعر ، أو عبقريته ، ولكن إعجابه يقف عند هذا الحد ، ولا ينفذ منه إلى الممدوح نفسه إلا القليل . وآية ذلك أنى وإياك حينما نقرأ قول الأعشى فى قيس بن معدى كرب :

وإذا تكون كتيبة ملمومة ... خرساء يخشى الدارعون نزالها
كنتَ المقدَّم غير لابس جنة ... بالسيف تضرب معلما أبطالها

بعد قول أبى تمام فى نوح بن عمرو :

لو أن طول قناته يوم الوغى ... ميل إذن نظم الفوارس ميلا

نؤمن من حيث لا نشعر بأن صاحب الأعشى كان شجاعا حقا . أما صاحب الطائى فلا نؤمن ببطولته إلا بقدر ما نؤمن برحلات « جلفر » فى أرض الأقزام(٦٤) .

والقارىء للشعر العربى فى العصر العباسى وما بعده يراه سلسلة من المبالغات متصلة الحلقات . يجعل وقعها على الأسماع ، ودبيبها إلى القلوب ، إذا أسعفها التوفيق فجاءت كما ترى فى قصيدة المتنبى التى يقول فى ثناياها عن أعداء سيف الدولة :

إذا صرف النهار الضوء عنهم ... دجا ليلان ليل والغبار
وإن جنح الظلام انجاب عنهم ... أضاء المشرفية والنهار
إذا فاتوا الرماح تناولتهم ... بأرماح من العطش القفار

---

(٦٤) رحلات خيالية قام بها أحد العمالقة إلى أرض الأقزام فبدأ الفرق شاسعاً بينه وبينهم . وكتبها سوفت الكاتب الإنجليزى المتوفى سنة ١٧٤٥ م .

ثم يقول فى سيف الدولة :

وأصبح ذكره فى كل أرض ... تُدار على الغناء به العقار
تَخِرّ له الجبابر ساجدات ... وتحمده الأسنة والشفار
كأن شعاع عين الشمس فيه ... ففى أبصارنا عنه انكسار

ولعل السر فى إعجابنا بهذه الأبيات واستساغتنا لما فيها من غلو ومبالغات أن تلك المبالغات قد أحسن وضعها حتى بدت كأنها حقائق مجردة من الخيال . وربما كان إعجابنا بشخصية سيف الدولة ، وبلائه فى حرب الروم ونيله منهم رغم ضيق رقعة دولته ، مع سخطنا على تلك القبائل العربية لتجاهلها مثل هذا المجهود ، واستغلال إبقاء سيف الدولة عليهم ، واحتماله لهم استغلالا سيئاً ، ونكرانهم أيادية عليهم وحمايته لهم . ولعل ذلك كله هو الذى يجعلنا نحس بما نحس به من متعة حين نقرأ هذه القصيدة . على أن جمال أسلوبها ، وخفة عبارتها ، وجريان ماء الطبع فيها أمور ينبغى أن تدخل فى حسابنا .

أما المبالغات البغيضة فيمكن أن ترى صورة منها فى قول أبى تمام يمدح نوح بن عمرو الذى أشرنا إليه سابقاً وذلك حين يقول :

لا تَدعُون نوح بن عمرو دعوة ... للخطب إلا أن يكون جليلا(٦٥)
يقظ إذا ما المشكلات عرَوْنَه ... ألفيته المتبسم البهلولا
مازال يبرمهن حتى إنه ... ليقال ما خلق الإله سحيلا
ثَبْت المقام يَرىَ القبيلة واحداً ... ويُرَى فيحسبه القبيل قبيلا
لو أن طول قناته يوم الوغى ... ميل إذن نظم الفوارس ميلا

وهكذا ندرك أن مدى إعجابنا ، أو نفورنا من المبالغات يتوقف على مبلغ إيماننا باستحقاق الممدوح أو المرثى أو ما سواهما لما يقال فيه . وهذا هو السبب فى أننا لانُنساء حين نقرأ قول أبى الطيب :

أنا الذى نظر الأعمى إلى أدبى ... وأسمعت كلماتى من به صمم

---

(٦٥) ديوانه ص ١٨٣

أنام ملء جفونى عن شواردها ويسهر الخلق جرَّاها ويختصم

وذلك لإيماننا بكثير مما يدعيه . وننفر فى الوقت نفسه من قول ابن سناء الملك :

توقَّد عزمى يترك الماء جمرة وحيلة حلمى تترك السيف مبردا(٦٦)
ويأبى إبائى أن يرانى قاعداً وأن أرى كل البريّة مقعدا

حيث لا نعلم الأسباب ولا الظروف التى من أجلها استحق أن يجعل من البشرية مقعداً يتربع عليه .

وهناك نوعان من المبالغة دارا على لسان أبى تمام أكثر من أى شاعر آخر ، وذلك لما قدمناه من أنه كان يهتم بتحميل أشجاره أكبر قدر ممكن من الثمار ، ولو أدى ذلك إلى تحطيم أغصانها . أما النوع الأول فيمكن أن نسميه المبالغة التى يقصد بها التأكيد ، لأنها ليست من تلك المبالغات المدوية التى تسبق إلى الأسماع ، بل فيها هدوء لا تكاد تصل معه إلى الأذهان إلا فى النظرة الثانية ، ولهذا غفل معظم النقاد عنها . وما نظن أن أحداً منهم أشار إليها . وتتضح فى مثل قوله :

يا منزلا أعطى الحوادث حكمها لا مُطْلَ فى عِدَةٍ ولا تسويفا
أرسى بعرصتك الندى وتنفست نفساً بعقوتك الرياح ضعيفاً
ولئن ثوى بك ملقياً أجرامه ضيف الخطوب لقد أصاب ضعيفاً
وهى الفجائع لم تزل نكباتها يألفن ربع المنزل المألوفا

فاستعمال أرسى فى البيت الثانى ، وثوى وملقيا أجرامه فى الثالث ، ويألفن فى الرابع ، مع إمكان الاكتفاء بنزل وزار وحل يمثل لنا ولوع المحدثين بتأكيد معانيهم والمبالغة فيها ما وجدوا إلى ذلك سبيلا ، وشبيه بذلك قوله من نفس القصيدة يخاطب الثغرى :

اسمع أقامت فى ديارك نعمة خضراء ناضرة ترفّ رفيقا
ريّا إذا النعم انتقلن تخيّمت وإذا نفرن غدت عليك ألوفا

(٦٦) تاريخ الأدب العربى ص ٤٠٩ .

وقوله :

جدوى أصيل العلم أن سيضيمه قضـف المكـارم إن رجعت قضيفا[٦٧]

وقوله :

لك هضبة الحلم التى لو وازنت أجَأً إذن ثقلت وكان خفيفا

فوصفه النعمة بالخضرة والنضرة والرفيف والرّى أمر لم يسبق إليه . وكلمة تخيمت التى احتلت مكان أقامت فى شعر القدماء تكاد تكوّن مع البيت السابق وصفاً أو تخطيطاً لجنة خيالية يرسمها الشاعر فى خياله للممدوح . جنة ملتفة الأشجار دانية الثمار ، وارفة الظلال ، تضرب فوق الممدوح سرادقاً ضخماً فخماً يسعه ويسع كل من يلوذ به أو ينتسب إليه .

وكان يكفيه فى البيت الثالث أن يقول : « جدوى من يعلم كذا وكذا[٦٨] » ولكنه يصر على أن يقول أن عطاءه هذا ليس عطاء المجامل أو المصانع الذى لا يؤمن بما يفعل ، فيجود حياء وتورطاً ، وإنما عطاء من يؤمن إيماناً قوياً فى قرارة نفسه أن حرمان الشاعر سيؤدى إلى ضياع المكرمات التى أقام نفسه حارساً عليها . وفى البيت الرابع لا يكتفى بتشبيه حلمه فى الرسوخ بالجبل كما كان يفعل القدامى ، بل يختار الهضبة لضخامتها واتساعها . وأما النوع الثانى من المبالغة فيبدو فى مثل قوله :

كانوا برود زمانهم فتصدعوا فكأنما لبس الزمان الصوفا

أو قوله :

عاقدت جود أبى سعيد إنه بَدُن الرجاء به وكان نحيفا
جدوى أصيل العلم أن سيضيمه قضف المكارم إن رجعت قضيفا
واستل من آرائه الشعل التى لو أنهن طُبعن كن سيوفا

---

(٦٧) القضف بفتحتين النحافة ، والقضيف: النحيف .

(٦٨) وازن بينه وبين الأعشى حين قال:

وعلمت أن النفس تلقى حتفها ما كان خالقها المليك قضى لها

إن غاض ماء المزن فِضْتَ وإن قست كبد الزمان عليّ كنت رؤوفا
خَفَّضت عنى الدهر بعد مسلمة تركت لنابيه عليّ صريفا

ويسمى هذا النوع من التجديد عند النقاد بالتشخيص والتجسيم حيث جعل الزمان إنساناً يتقشف حينا فيلبس الصوف ، ويقسو أحيانا فتغلظ كبده ، ثم يمعن فى القسوة فيصير جملا صؤولا ينشب أنيابه فى عظام الشاعر . ثم وصف الرجاء وهو أمر معنوى بالنحافة والبدانة وفعل بالمكارم مثل ذلك . وصنع من الرأى شعلا وسيوفا .

وقد شغل النقاد أنفسهم ببيان ما فى مثل تلك الأبيات من مخالفة لأساليب الأوائل ، ولم يهتموا بالبحث عن الدوافع التى دفعت بالشعراء وعلى رأسهم أبو تمام إلى الإكثار من ذلك . وقد لا نكون مخطئين إذا ادعينا أنها مظهر من مظاهر احتفال أبى تمام ومن على شاكلته للمعانى ومحاولته دائماً إيضاحها وتأكيدها والمبالغة فيها . لأن المدرَك بالحواس أشد جلاء ووضوحاً من المدرك بمجرد النظر والفكر .

أما فيما يختص بجمال ما ورد فى شعر أبى تمام من تشخيص أو قبحه ، فيجب أن يكون مرد ذلك إلى وجود تشابه قوى أو عدم وجوده بين المشبه به والمشبه . فإخراج الليل الطويل الثقيل فى صورة البعير من قول امرئ القيس :

وليلٍ كموج البحر أرخى سدوله عليّ بأنواع الهموم ليبتلى
فقلت له لما تمطّى بصلبه وأردف أعجازاً وناء بكلكل
ألا أيها الليل الطويل ألا انجلى بصبح وما الإصباح منك بأمثل

جميل ومقبول حيث إن فى كل من الليل والجمل ثقلا وامتداداً . وهذا هو السبب فى أننا نرحب بمثل قول أبى تمام :

خفَّضت عنىّ الدهر بعد ملمة تركت لنابيه عليّ صريفا

حيث تشبه المليات والكوارث بالجمل الصؤول . أما قوله :

يادهر قوّم من أخدعيك فقد أضجرت هذا الخلق من خرقك

وقوله :

كانوا برود زمانهم فتصدّعوا فكأنما لبس الزمان الصوفا

فغير سائغ حيث لا صلة بين الإنسان والزمن ، حتى يستعار هذا لذاك ، ويشبه به فى الخرق والتقشف ، اللهم إلا إذا كان أبو تمام يحمل بين جنبيه نقمة على بنى جنسه ، تجعله من حيث يشعر أولا يشعر ، يرى الإنسان صورة مجسّمة للظلم والعدوان . وليس هذا ببعيد على من كان مثله ذا ذكاء متوقد ، وحس مرهف ، فإن أمثال هؤلاء يكونون فى كثير من الأحيان موضع حسد الأقران ، ولا يقابل الحسد إلا بالسخط والنقمة من المحسود . ويؤكد هذا التوجيه ما نراه من كثرة حديثه عن الأخادع ، ومطالبه الدهر بتقويمها ، فإن الأخادع فى صفحة العنق ، التى يظهر فيها العجب والصلف .

وينبغى أن يختم هذا الفصل بالإشارة إلى ما شاع عند المحدثين من قلب التشبيهات بقصد المبالغة . وذلك كما يرى فى قول البحترى يمدح المتوكل على الله ، ويصف البركة التى شادها :

كأنها حين لجّت فى تدفّقها يد الخليفة لما سال واديها

أو قول أبى نواس فى مدح الأمين :

تتيه الشمس والقمر المنير إذا قلنا كأنهما الأمير[٦٩]
فإن يك أشبها منه قليلا فقد أخطاهما منه كثير

ووجه المبالغة أن التشبيه مبنى دائما على زيادة المشبه به على المشبه فى وجه الشبه . فإذا قلنا محمد كالأسد ، فلا بد أن يكون الثانى أعظم جرأة

---

(٦٩) ديوانه ١١٣ .

وإقداماً من الأول . فنحن نستغل عن طريق المغالطة ما وقر فى اللاشعور من زيادة المشبه به على المشبه حين نقلب الأوضاع فنجعل الفرع أصلا . وبذلك يتقبل السامع القضية دون مناقشة طويلة واثقاً أو كالواثق بأن يد الخليفة فى التدفق وسعة العطاء بحيث يمكن أن تجعل أصلا يشبه به الأنهار والجداول ونحوها حين يراد تأكيد غزارة مائها وتلاطم أمواجها .

والتشبيه المقلوب على هذا النحو ، وبهذا القصد ، لم يرد إلا فى شعر العباسيين وأما قول ذى الرمة :

ورمل كأوراك العذارى قطعته   وقد جللته المظلمات الحنادس[(٧٠)]

فليس مما نحن فيه ، حقاً إنه تشبيه مقلوب حيث كان ينبغى أن يعكس الأمر فتشبه الأوراك بكثبان الرمل لضخامة الأخيرة . ولكن الشاعر لم يقصد بيان ضخامة الأوراك . لأنه لم يكن لديه عذارى يتحدث عنها ، بل كان يقصد بيان عظم تلك الكثبان مع شىء من طرافة التعبير .

---

(٧٠) زهر الآداب – ح ٢ ص ٩٤

العنصر الثالث

التصوير :

تحدثنا فيما مضى عن الميل إلى التصوير ، وعرفنا أنه أحد الأصول الهامة فى الشعر الجاهلى ، وحددنا هدفه عند الجاهليين بأنه نقل المشاهدات والتجارب التى شاهدها الشاعر أو مر بها عن طريق التشبيه أو الاستعارة محاولا فى تصويره الاقتراب من الحقيقة ما أمكن ، فإلى أى حد تطور هذا الأصل أو جمد على ألسنة المحدثين من شعراء بنى العباس ؟ الجواب على هذا السؤال : أن هذا الأصل قد تلون بما أصاب الحياة العقلية والاجتماعية من ألوان إذ ذاك ، وانتهى ذلك به إلى الانحراف الواضح عن الوضع القديم الذى عهدناه عليه ، ويمكن تحديد عوامل ذلك التطور أو الانحراف وآثارها على النحو التالى :

أولا : تأثير ما ظهر فى العصر العباسى من غلو ومبالغة ، فقد كان التصوير قديماً قريباً من الواقع متأثراً فى ذلك باتجاه شعراء الجاهلية إلى القصد والاعتدال ، ولكن لما جاء العهد العباسى ونشأ الغلو والمبالغة ، ترك ذلك الذوق الجديد أثره فى التصوير ، فعظم الفارق بين الحقيقة التى يتحدث عنها الشاعر والصورة التى يعرضها فيها وما كان عظيما قبل ذلك ، وإليك عدة أمثلة يظهر فيها القديم بجانب المحدث ، وبضدها تتميز الأشياء .

قال عروة بن حزام متحدثا عن خفقان قلبه واضطرابه :

كأن قطاة علقت بجناحها   على كبدى من شدة الخفقان

وقال بشار فى نفس المعنى :

كأن فؤاده كرة ترامى   حذار البين لو نفع الحذار[٧١]

---

(٧١) الأدب العربى ص ٣٩٢ .

وما من شك فى أن الأول أقرب إلى الحقيقة ، لأننا لا نشعر بأن قلوبنا تنتزع من صدورنا ويقذف بها بعيداً عنا حينما تصيبنا نوبة من نوبات الشوق أو القلق ، بل نشعر بها تخفق وهى لا تزال حبيسة داخل أقفاصها وأمثلة هذا النوع كثيرة كقول أبى الطيب فى الرماح :

جوائل بالقُنِىِّ مثقّفات   كأن على عواملها الذبالا

بعد قول امرئ القيس :

أيقتلنى والمشرفى مضاجعى   ومسنونة زرق كأنياب أغوال

وكقوله فى لبدة الأسد :

متخضب بدم الفوارس لابس   فى غيله من لبدتيه غيلا

بعد قول طرفة فى ذيل ناقته :

أن جناحى مَضْرَجِىٍ تكنّفا   حِفافيه شُكًّا فى العسيب بِمسْرَدَ

وكقوله فى الخيل وما تثيره من غبار :

خافيات الألوان قد نسج النقـ   ـع عليها براقعا وجلالا

حين يوضع بجانب قول طرفة فى ناقته وما تثيره بيديها من حصا .

فترى المرو إذا ما هجّرت   عن يديها كالفراش المشفتر

ومن مراجعة الأمثلة السابقة ترى مدى احترام القدامى لقواعد فن التصوير ، وعدم اكتراث المحدثين به . وإنما اختلفوا على هذا النحو تبعا لاختلاف غايتهم من التصوير . فالقدامى يهدفون إلى الايضاح ، (٧٢) بينما يهدف المحدثون إلى الجدّة

---

(٧٢) وازن بين قول طرفه فى مغنية·

إذا رجعت فى صوتها خلت رجعها   تجلوت أظآر على ربع ردى

وقول بشار فى حبيته:

وكأن رجع حديثها   قطع الرياض كسين زهرا

لنرى كيف يحاول أحدهما الاقتراب من الحقيقة جاهداً ، بينما يضرب بها الآخر عرض الحائط .

والإبداع والتفخيم والتعظيم . القدامى يحاولون الاقتراب من الحقيقة ما استطاعوا ، ولا يبتعدون عنها إلا مكرهين والمحدثون يحلقون فى سماء الخيال إلى آخر ما يمكن أن تحملهم إليه أجنحتهم أليس هذا هو ما يمكن أن يفهمه المرء من قول أمرئ القيس من جهة :

كأن قلوب الطير رطبا ويابسا لدى وكرها العُنَّاب والحشف البالى

وقول أبى الطيب من جهة أخرى :

شرف ينطح النجوم بروقيـ ـه وعز يقلقل الأجبالا (٧٣)

أو قوله فى أعداء سيف الدولة :

قد سودت شجر الجبال شعورهم فكأن فيه مُسفَّة الغربان (٧٤)
وجرى على الورق النجيع الفانى فكأنه النارنج فى الأغصان

أما العامل الثانى فهو تغلغل المحدثين فيما وراء ذلك الإهاب الخارجى لمظاهر الكون نتيجة لانتشار العلوم ، وتقدم الثقافة ، واتساع آفاق الفكر بحيث صار الشاعر يستطيع عن طريق تداعى المعانى ، وغير ذلك من العمليات العقلية المختلفة أن يرى ويسمع مالم يكن سلفه فى الجاهلية يستطيع أن يسمع ويرى . هذا مع قصد شعورى إلى الابداع والتجديد . وإذا شئت أن ترى نماذج لهذا فارجع إلى قول أمرئ القيس فى الطبيعة متحدثا عن السيل وأثره فى البادية سهولها وجبالها :

كأن ثَبيرا فى عرانين وَبْله كبير أناسٍ فى بجاد مزمّل
كأن ذُرا رأس المجيمر حوله من السيل والغثاء فَلكة مِغْزَل
كأن السباع فيه غرقى عشية بأرجائه القصوى أنابيش عنصل
وألقى بصحراء الغبيط بَعاعه نزولَ اليمانى ذى العياب المحمَّل (٧٥)
كأن مَكاكىَّ الجِواء غُدَيَّة صُبِحْنَ سُلافا من رحيق مُفَلْفل

---

(٧٣) ديوانه ح ٢ ص ١٤٣ .

(٧٤) ديوانه — ح — ٤ ص ١٨٣ المسفة بتشديد الفاء المكسورة الدانية من الأرض .

(٧٥) شبة صروب الأزهار الناشئة عن هذا المطر بضروب الثياب الملونة التى يعرضها التاجر اليمانى للبيع .

وضع بجانبه حديث شاعر محدث عن الطبيعة وعن المطر وآثاره فى السهول والرياض ، كأبى تمام حين يقول :

مطر يذوب الصحو منه وبعده ... صحو يكاد من الغضارة يمطر[٧٦]
غيثان فالأنواء غيث ظاهر ... لك وجهه والصحو غيث ممطر
ياصاحبى تقصيا نظر يكما ... تريا وجوه الأرض كيف تُصَوَّر
تريا نهارا مشمسا قد شابه ... زهر الربا فكأنما هو مقمر
دنيا معاش للورى حتى إذا ... حل الربيع فأنما هى منظر
أضحت تصوغ بطونها لظهورها ... نَوْرا تكاد له القلوب تنور
من كل زاهرة تَرَقْرَقُ بالندى ... فكأنها عين إليك تَحَدَّر
تبدو ويحجبها الجميم كأنها . ... عذراء تبدو تارة وتَخفر[٧٧]

فماأظنك إلا مدركا عظم الفرق بين الشعرين والفكرين ، فامرؤ القيس مصور ، وأبو تمام مفكر ، الأول قد أعاد المناظر الطبيعية بعينها أو بعبارة أخرى نقلها إلينا بأمانة عن طريق تلك التشبيهات المتوالية .

أما الثانى فركب أجنحة الخيال وابتعدبه كثيرا عن أرضنا وسمائنا ، فتخيل الصحو وكأنه ممطر لغضارته ، والنهار المشمس وكأنه مقمر لبهائه ورقته والزهرة حين تسفر ثم تحتجب خلف الحشائش وكأنها عذراء خجول تظهر ثم تختفى خلف الحجب والأستار .

وإن شئت فوازن بين قول امرئ القيس:—

كأن ثبيرا فى عرانين وبله ... كبيرُ أناسٍ فى بجادٍ مزمل

وقول ابن خفاجة عن جبل آخر مرّبه :

وقورٌ على ظهر الفلاة كأنه . ... طوال الليالى مُفْكِر فى العواقب[٧٨]
يلوث عليه الغيم سودَ عمائم ... لها من وميض البرق حمر ذوائب[٧٩]

(٧٦) ديوانه ص ١١٨ .

(٧٧) الجميم: نبات ارتفع عن الأرض ولكن لم يتم نصحه .

(٧٨) ديوانه ص ٢٧ .

(٧٩) يلوث· يعصب — ذوائب: جمع ذؤابة وهى الشعر النابت على الناصية .

أصخت إليه وهو أخرس صامت فحدّثنى ليل السُّرى بالعجائب
فقال: ألاكم كنتُ ملجأ قاتلٍ ومواطن أوّاهٍ تبتّل تائب[٨٠]
وكم مرّبى من مدلج ومؤوّب وطارت بهم ريح النوى والنوائب

فامرؤ القيس قد وقف عند حدود الشبه الظاهرى بين جبل ممتد على جوانبه خطوط ملونة من أثر الزبد والغثاء وشيخ كبير قد تزمل فى ثوب مخطط ، ولم يفكر أو يُعن بما وراء ذلك ؛ لأنه مصور يرى أن واجبه قد انتهى عند هذا الحد . أما ابن خفاجة فقد تغلغل إلى ماوراء تلك الثياب الخارجية ، وتعمق فكر الشيخ ودرس مايجول به من خواطر وعبر ، أو يبدو عليه من وقار وتعقل ، وأخذ يستعيد معه أخبار من لجأ إليه من أخيار وأشرار . ومن المثالين السابقين نستطيع أن ندرك مابين العقليتين من خلاف أما امرؤ القيس فأشبه بالمرآة المصقولة تعكس الحياة والطبيعة فى دقة وأمانة . وأما أبو تمام وابن خفاجة – والمحدثون من خلفهما – فقد سلطا عليها أضواء قوية من فكرهما وخيالهما ، فكشفا عن جوانب خفيّة ، لايفطن إليها الفكر الجاهلى الساذج الذى لاعنى إلا بالجوانب الظاهرية للحياة[٨٢] وإن شئت مزيدا من تلك الموازنات فاقرأ قول امرئ القيس أيضا فى ليل طويل :

وليلٍ كموج البحر أرخى سدوله عَلَيَّ بأنواع الهموم ليبتلى[٨٣]
فقلت له لما تمطّي بصلبه وأردف أعجازا وناء بكلكل
ألا أيها الليل الطويل انجلى بصبح وماالإصباح منك بأمثل

وقوله فى وميض البرق :

أصاح ترى برقا أُريك وميضه كلمع اليدين فى حبِّى مكلَّل

(٨٠) آواه : كثير الدعاه .

(٨١) مدلج : سائر بليل– المؤوب : الذى يقضى النهار سائرا قال : بظلى . استظل به وقت الظهيرة .

(٨٢) يؤيد ذلك عدم تغلغل الخرافة فى آدابهم وعقائدهم ، كما ترى مثلا فى الأمة اليونانية ، ولعل السبب فى ذلك وضوح الصحراء العربية مع غموض البحار المحيطة باليونان ، والتى تثيركثيرا من الفروض والأوهام كلما ابتلعت طائفة من الراكبين على ظهرها . ومن آثار تلك النظرة السطحية عدم إيمانهم بالحياة بعد الموت ، كما ترى فى قول طرفة بن العبد :

أرى قبر نحام بخيل بماله كقبر غوى فى البطالة مفسد
ترى جثوتين من تراب عليهما صفائح صم من صفيح منضد

(٨٣) هذان البيتان ، وبيتا البرق من المعلقة ، وهى مشروحة شرحا جيدا .

يضيء سناه أو مصابيح راهب   أمال السيط بالذُّبال المفتّل

ثم اقرأ بعقب ذلك قول القاضي التنوخي من رجال القرن الرابع :

رُبَّ ليلٍ قطعته بصدود   وفراق ماكان فيه وداع[٨٤]

موحش كالثقيل تقذى به العيـ   ـون وتأبى حديثه الأسماع

وكأن النجوم بين دُجاه   سنن لاح بينهن ابتداع

مشرقات كأنهن حجاج   تقطع الظلام والخصم انقطاع

فامرؤ القيس حين صور طول الليل ولمعان البرق عرض ذلك عرضا حسيا فشبّه الأول بموج البحر حينا ، ويجعل جاثم على صدره حينا آخر ، وشبه الثانى بمصباح راهب . أما التنوخي فقد ارتاد سماء جديدة ، وحلق فى آفاق بعيدة ، وترك الحسيّات جانبا .

شبه الضوء الصادر من النجوم بالسنن حينا وبالحجج المشرقة حينا آخر . ولسنا الآن بصدد بيان أجود الشعرين ، ولكنا نلفت الأنظار فقط إلى الفرق بين العقليتين والمنهجين .

ومأأشبه الفرق بين الفريقين بالفرق بين الرجل الناضج والطفل الغرير[٨٥] أو بين العالم المثقف والأمىّ الساذج . ولاعيب فى ذلك فالعصر الجاهلى يمثل مرحلة أولية من مراحل نموّ الفكر الإنسانى ، بينما تمثل الحياة العباسية مرحلة أكبر نضجا ورقيا ، وطبيعى أن يترك ذلك أثره فى الشعر ، ولكن ليس معنى هذا دائما تفوق الحديث على القديم إذ ربما مال بعض الناس إلى رؤية الطبيعة فى أثوابها الأولى دون تغيير أو تبديل[٨٦] وأمثال هؤلاء يطربهم الشعر الجاهلى .

---

(٨٤) يتيمة الدهر ٢/٣٣٦

(٨٥) أعتقد أن الشبه قوى بين مايوصى به علماء التربية من استخدام وسائل الإيضاح فى تعليم الطفل ، وبين ماشاع فى العصر الجاهلى من تصوير يقصد به الايضاح كما ترى فى قول طرفه (ديوانه ٤٨)

ابا منذر رمت الوفاء فهبته   وحدت كما حاد البعير عن الدحض

(٨٦) بالقرب من لندن منطقة واسعة تركت للطبيعة تعمل فيها ماتشاء دون تدخل من جانب البشر ولما كانت تلك البلاد كثيرة الأمطار فإنك ترى فيها الأشجار الضخمة بجانب الحشائش القصيرة ، وربما رأيت شجرة تفاح أو كمثرى هنا وهناك ويقصد الناس تلك المنطقة لرؤية الحياة فى ثيابها الطبيعية ، ولكن يجب ألا ننسى أن للجانب الآخر شيعته الذين لايرون فى عبث النسيم بأطراف الأغصان ، وما يصحب ذلك من موسيقى عذبة — شيئا يلفت الأنظار ، أو يستهوى الأسماع .

فإذا ماانتقلنا إلى ميدان التجارب النفسية وجدنا دقة التصوير أشد إمتاعا من الجرى وراء الخيال كما ترى فى قول عروة بن حزام .

كأن قطاة عُلقت بجناحها على كبدى من شدة الخفقان

حين يوضع بجانب قول بشار:

كـأن فؤاده كـرة تـرامى حـذار البين لو نـفـع الحذار

أو كما ترى فى قول طرفة بن العبد يصف حبيبته ونعومتها وإدلالها:

تحسب الـطـرف عـليهـا نجدة يـالـقومى لـلشـبـاب المسيـكر

حين يوازن بقول إبراهيم بن سيار فى نفس المعنى:

تـوهمه طــرفى فــآلم خــده فصار مكان الوهم من نظرى أثر

والسبب فى ذلك أن عروة وطرفة قدما لنا فى عبارة عذبة جميلة تجربة طالما أحسنا بها وعجزنا عن تصويرها ، وأعاد إلى أذهاننا ذكريات عزيزة ، فطرفة مثلا قد أعاد إلى ذاكرتك صورة لفتاة مدللة أو كالمدللة ، مترفة أو كالمترفة ، طالما رفعت طرفها إليك فى تثاقل فعل المتأذى حتى بتلك الحركة الهيّنة ، والمجهود اليسير . أما بشار وابن سيّار فلم يفعلا شيئا سوى الجرى وراء الأوهام .

ولايفوتنا أن نذكر هنا أن التصوير كما عرفناه فى العهد الجاهلى نادر جدا فى العصر العباسى ، ولايأتى حين يأتى إلا وعليه مسحه من الحضارة الحديثة تجعل الفرق بينه وبين الجاهلى كبيراً . وتستطيع أن تطمئن إلى صواب هذا الحكم حين تضع قول أبى الطيب مخاطبا سيف الدولة ومشيراً إلى أعدائه .

نثرتهـم فوق الأُحَـيـدَب نَـثْـرةً كما نُثرت فوق العروس الدراهم

أو قوله فى الأسد:

يـطـأ الثرى مـتـمهلا من تيهه فـكـأنـه آس يجسّ عـلـيلا

بجانب قول طرفة:

أنا الرجل الضرب الذى تعرفونه خشـاش كـراس الحيّـة المتوقـد

أو بقوله:

أبا منذر رمت الوفاء فهبته وحدت كما حاد البعير عن الدحض

فطرفة قد انتزع من بيئته أقرب صورها لتمثيل الخفّة والنشاط أو الإحجام والتردد غير متأنّق ولا متوقف. أما أبو الطيب فيختار أجمل الصور وأعذبها(٨٧).

ومن هذا النوع القديم الذى يلتزم فيه أمانة النقل عن الطبيعة معظم ماجاء لأبى عبادة البحترى فى التصوير، فهو من هذه الناحية بدوى يعيش فى المدينة أو جاهلى تأخر به الزمن إلى عهد بنى العباس(٨٨) ووصفه للبركة التى بناها المتوكل خير شاهد على ذلك. وإليك أبياتا منه:

تنصبُّ فيها وفود الماء مُعْجَلَةً كالخيل خارجة من حبل مجريها(٨٩)
كأنما الفضة البيضاء سائلة من السبائك تجرى فى مجاريها
إذا عَلَتْها الصَّبا أبدت لها حُبُكًا مثل الجواشن مصقولا حواشيها
إذا النجوم تراءت فى جوانبها ليلا حسبت سماء رُكِّبَتْ فيها

وماأظنك إلا ملاحظا تلك البساطة والسذاجة البادية على تشبيهاته فخياله فى البيت الأول أيسر منالا حتى من قول أمرئ القيس:

كأن ذرا رأس المجيمر حوله من السيل والغثاء فلكة مغزل

أما فى البيت الثانى فهو يعيد عبارة يعرفها العامة قبل الخاصة حيث يشبهون الماء النقى دائما بأسلاك الفضة. وفى الثالث لم يزد على أن قلب قول عمرو بن كلثوم فى الدروع:

كأن غضونهن متون غدر تصفقها الرياح إذا جرينا(٩٠)

أما من حيث البيت الأخير فلا فضل له إلا فى إقامة الوزن فأن قوة الشبه بين

---

(٨٧) قد ذهب عبد الله بن المعتز بأجمل مافى الشعر العباسى من تشبيهات تقترب فيها الصور من الأصل المقول عنه. وللمؤلف فيه بحث مفصل.

(٨٨) ومن هذا ترى أن إعجاب أنصار القديم من النقاد به وقولهم فيه «إنه يحافظ على عمود الشعر» لم يكن لإقلاله من البديع، وبعده عن غريب المعانى فقط بل لأسباب كثيرة.

(٨٩) ديوانه ص ٣١٩.

(٩٠) المعلقات.

الأجسام وخيالها فى الماء أمر يدركه من لديه أدنى حظ من سلامة الملاحظة ولا أقول دقتها . ولا يسعنا أن نترك هذا الموقف دون أن نشير إلى ماكان من شأن التصوير فى العهد الأموى . وأظننا لن نكون بمعزل عن الحقيقة إذا قلنا إن شعراء هذا العهد كانوا يسيرون فى أعقاب الجاهليين . وقد اخترنا لك إحدى نقائض جرير لترى مدى إكثاره من ذلك التصوير الجاهلى الذى يهدف إلى نقل الحقائق دون مبالغة أو تزيّد إلا ما تقتضيه ضرورة الايضاح ، ودون جرى وراء الخيال ، أو تعمق لمظاهر الكون .

وإليك بعض الأبيات التى اخترناها على غير ترتيب :

حور العيون يمسن غير جوادف ... هزّا الجنوب نواعم العَيْدان(٩١)
عطر الثياب من العبير مذيّل ... يمشى الهوينى مشية السكران
صدع الظعائن يوم بِنَّ فؤاده ... صدع الزجاجة ما لذاك تدان
من كل منتفخ الوريد كأنه ... بغل تقاعس فوقه خرجان
لاقوْا فوارس يطعنون ظهورهم ... نَشْطَ البزاة عواتقَ الخربان(٩٢)
ولقيت راية آل قيس دونها ... مثل الجمال طُلين بالقطران
هزوا السيوف فأشرقوها منكمُ ... وذوابلا يخطرن كالأشطان

(٩١) ديوانه ص ٥٧٠ – الجوداف . القصار – العيدان: جمع عيدانة ، وهى النخلة الطويلة .

(٩٢) النشط : الجذب – البزاة الصقور – الخربان: جمع خرب وهو الحبارى الذكر ، وعواتقها صغارها . أى فعلوا بهم كما تفعل الصقور بالخربان .

العنصر الرابع

الموسيقية : عرفنا أن الشعر الجاهلى يمتاز بالموسيقية ، وأن السبب الأول فى ذلك أنه كان مسموعا ، فوجب أن يكون كذلك حتى يخف على الأسماع والقلوب . ومن الحق أن نقول : إن الشعر العربى فى مجموعه قد احتفظ بهذه الموسيقية دون تغيير كبير إلا عند إمامى مذهب الطبع والصنعة ومن لف لفهما ؛ حيث حرص الأول منهما على تجويد موسيقى الشعر وتهذيبها ، بينما اضطر ثانيهما إلى التضحية بها كما ضحّى بالطبع فى سبيل الصناعة اللفظية . وتفصيل ذلك أن البحترىّ وقد تخلّف عن أستاذه ومعاصره أبى تمام فى ميدان الفكر ، ولم يستطع أن يحلّق معه فى تلك السماء التى طالما حلّق فيها ، أحب أن يحدث نوعا من التوازن بينه وبين ذلك العملاق ، فلم يجد أمراً أقرب إلى متناول يده ، أو أحبّ إلى نقاد عصره من تهذيب موسيقى الشعر ، فصرف إلى ذلك الأمر همّه ، ومازال بشعره حتى بلغ فى تلك الناحية شأوا عظيما .

وكان يعتمد فى تحقيق تلك الموسيقية على اختيار أعذب البحور وأخفها . وكثيراً ما كان يجمع إلى ذلك خفة القافية وجمال حرف الروىّ فيختار قوافيه من بين المفردات التى تشتمل على حرف أو أكثر من حروف اللين ، حتى يسهل مرورها فى الحلق ، ويحسن وقعها على الأذن . ثم لا يشغله شىء من ذلك عن بقية البيت بوجه عام ، فيختار مفرداته من أعذب الألفاظ وأرقها . ولا يكتفى بذلك حتى يتأكد أن كلا منها جديرة بأن تحسن جوار زميلتها حين تلتقى بها فى عبارة ، أو تقيم معها فى بيت . ونحن لا نشك فى أنه كان يتمتع بأذن ذوّاقة ، وأنه كان يستغل تلك الموهبة إلى أبعد حدود الاستغلال ؛ وذلك بترديد البيت عدة مرات على مسامعه حتى يتأكد من خفته وسلاسته .

ومع أن الكلمة الأخيرة فى عذوبة الألفاظ وثقلها ينبغى أن تترك لعلماء الأصوات الذين يستطيعون أن يبنوه على قواعد علمية تجريبية مفصلة ، فأن ذلك لا يمنعنا من القول بأن شيئاً غير قليل من ذلك تستطيع الفطر السليمة أن تدركه دون

عناء ، وإن لم تعرف له اسما ، أو تحفظ له قاعدة . وقديما لاحظ النقاد شيئا من ذلك ، ومثلوا لتنافر الحروف والمفردات بقول امرىء القيس فى شعر حبيبته :

غدائره مستشزرات إلى العلا تضل العقاص فى مُثَنىًّ ومرسل

وقول الآخر :

وقبر حرب بمكان قفر وليس قرب قبر حرب قبر

وإليك أبياتا من إحدى مدائح البحترى فى المتوكل على الله ، يتمثل فيها ما قدمنا من خصائص شعره . وفيها يقول وقد بدأ مشببًا :

عذيرى فيك من لاحٍ إذا ما شكوتُ الحبَ حرّقنى ملاما
فلا وأبيك ما ضيّعت عهدا ولا قارفت فى حبيك ذاما
ألام على هواك وليس عدلا إذا أحببت مثلك أن ألاما
لقد حرّمت من وصلى حلالا وقد حلّلت من هجرى حراما
أعيدى فىّ نظرة مستثيب توخّى الأجرَ أو كره الأثاما
تَرَىْ كبدا محرّقة وعينا مؤرّقة وقلبا مستهاما
تناءت دار عُلْوة بعد قرب فهل ركب يبلّغها السلاما
وجدّد طيفها عَتبْا علينا فما يعتادنا إلا لماما
ورُبَّةَ ليلة قد بتّ أُسْقَى بعينيها وكفّيها المداما
قطعنا الليل لثما واعتناقا وأفنيناه ضما والتزاما

ويترك النسيب إلى المديح فيقول :

مخالف أمركم لله عاصٍ ومنكر حقكم لاقٍ أثاما
وليس بمسلم من لم يقدّم ولايتكم وإن صلىّ وصاما
شهرتم فى جوانب كل ثغر ظباتِ البيضِ والأسلَ المقاما
وأقدمتم وفى الإقدام كُرْه على الغمرات تُقْتَحَمُ اقتحاما
أمينَ الله دمتَ لنا سليما ومُلّيتَ السلامة والدواما
أرى المتوكلية قد تعالت محاسنها وأكملت التماما

قصور كالكواكب لامعات يكدن يضئن للسارى الظلاما

أما أبو تمام فيصدر عن ذوق وعقلية مغايرة تمام المغايرة لصاحبه ؛ فقد وضع نصب عينيه جودة المعانى وغرابتها من جهة وازدحام المحسنات البديعية التى قد تجف حتى تشبه العمليات الحسابية من جهة أجرى ، وترك عذوبة اللفظ وجمال الموسيقى تأتى فى المؤخرة ، وهكذا يمكن أن تقول إنه لم يكن يحفل بها إلا بقدر ما كان أهل الطبع يحفلون بالمحسنات البديعية ولذا جاءت معظم أشعاره ثقيلة على الأسماع والألسنة . وسنذكر لك هنا أبياتا من إحدى قصائده المشهورة ، قالها فى رثاء محمد بن حميد الطوسى :

كذا فليجلَّ الخطب وليفْدحِ الأمر فليس لعين لم يفَضْ ماؤها عذر (٩٣)
تُوُفِّيت الآمال بعد محمد وأصبح فى شغل عن السَّفَر السَّفْر
وما كان يدرى مجتدى جود كفه إذا ما استهلت أنه خُلِقُ العسر
ألا فى سبيل الله من عُطِّلَت له فجاج سبيل الله واثغر الثغر

وفيها يقول :

وقد كانت البيض المآثير فى الوغى بواتر فهى الآن من بعده بُتْر
أمن بعد طَيِّ الحادثات محمدا يكون لأثواب الندى أبداً نشر
إذا شجرات العرف جُذَّت أصولها ففى أى فرع يوجد الورق النضر
لئن أبغض الدهر الخؤون لفقده لعهدى به يُحَبُّ له الدهر

والأبيات تعلن عن نفسها فى وضوح فكثرة الجناس والطباق مع البناء للمجهول ، قد أساء إلى الموسيقية كثيراً :

على أن لأبى تمام أبياتا تجعل المرء يجزم بأنه كان يتحدى الذوق العام والأوضاع الموسيقية أحياناً كقوله فى ابتداء إحدى قصائده :

قَدْكَ اتَّئِبْ أربيت فى الغلواء كم تعذلون وأنتم سجرائى (٩٤)

---

(٩٣) ديوانه ص ٣٦٨ .

(٩٤) ديوانه ص ٢ .

وكقوله :

قرت بقُرّان عين الدين وانشترت ... بالأشترين عيون الشرك فاصطلما[95]

وكقوله لبعض ممدوحيه :

جاءتك من نظم اللسان قلادة ... سمطان فيها اللؤلؤ المكنون[96]

حُذِيَتْ حذاءِ الحضرمية أرهفت ... وأجادها التخصير والتلسين

وقد تعجب حين تراه يشبه قصائده بالأحذية ، كأنما عجز عن أن يجد لها شبها خيراً من ذلك ، لكن رويداً فأنه يشبهها فى مكان آخر بما هو شر من ذلك ، وأشد وقعا على أذن الممدوح فيقول :

فكأنما هى فى السماع جنادل ... وكأنما هى فى القلوب كواكب[97]

ويقول فى رثاء بنى حميد :

لو خر سيف من العيّوق منصلتا ... ما كان إلا على هاماتهم يقع

وما أعظم الفرق بينه وبين قول كعب بن زهير الذى نسج على منوال قوله :

لا يقع الطعن إلا فى نحورهم ... وما لهم عن حياض الموت تهليل

ويقول فى أحد ممدوحيه :

هو الهام هو الموت المريح هوالـ ... م حتف الوَحِيّ هو الصمصامة الذكر[98]

أخذه من قول مسلم بن الوليد :

موف على مهج واليوم ذورهج ... كأنه أجل يسعى إلى أمل

وتورط أبى تمام فى هذه الغرائب وغيرها من أمور يأباها الحس المرهف يرجع إلى

---

(95) ديوانه ص ٢٢٩ .

(96) ديوانه ص ٣٣٠ .

(97) ديوانه ص ٢٩ .

(98) ديوانه ص ١٥٠ . والوحى على وزن غنى السريع .

تغلب الناحية الفكرية على غيرها من نواحي الشعور ؛ فإن قوة إحدى هذه النواحى كثيراً ما يكون على حساب الأخرى(٩٩) .

واستخفاف أبى تمام بالذوق العام ، على نحو ما بدا فى الأبيات السابقة ، ومخالفته طريقة الأوائل ، وإسرافه المزرى فى المحسنات ، يهدينا إلى الفكرة المسيطرة عليه وعلى كثير من شعراء العصر العباسى ، ألا وهى الاعتماد على الرأى الشخصى ، وعدم التقيد بالتقاليد الموروثة ، أو الوقوف عند السماع .

وهو وأصحابه فى هذا يشبهون أهل الكوفة بين النحويين ، والمعتزلة فى المتكلمين ، وأبا حنيفة مع الفقهاء . ومن هذا نرى أن التقليد والتجديد أو التبعية والتحرر لم تظهر آثاره فى ميادين الأدب وحدها ، بل شملت أنواع النشاط الفكرى المختلفة . فهى إذن ثورة فكرية عامة أعان عليها ، ومهد لها تطور المجتمع . وهى لذلك تذكرنا بالثورة الرومانتيكية فى الآداب الأوروبية ؛ فهى تشبهها من حيث إنها صدى لتطور الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية ، وتشبهها من حيث إن كلا منها حاولت التحرر من كل ما هو قديم ، سواء فى ذلك لغة الشعر ومعانيه ، أو دوافعه وأغراضه .

وإذا كان أبو تمام قد مثل الذروة العليا لتلك الثورة ، فإن له سلفا مهدوا لها . وكان لكل منهم لونه الخاص . فبشار بن برد أول من أصاب عناصر الشعر القديم فى الصميم ، فلم يحفل بدقة التصوير ، ولم يلتزم الحقيقة فيما يقول ، ثم ذهب بعد ذلك بوقار الشعر العربى فى غزله وهجائه .

وقد كان أبو نواس يشبهه فى مهاجمة الذوق العام ؛ حيث أسرف فى الحديث عن الخمر والغلمان ، ثم رفع لواء الثورة على بناء القصيدة العربية أما أبو العتاهية فحاول تيسير لغة الشعر والميل به نحو العامّية .

ومسلم بن الوليد هو واضع أسس الطريقة التى انتهجها أبو تمام فيما بعد ، وأهم

---

(٩٩) ينقسم الشعور إلى فكر ووجدان وإرادة . وموقف أبى تمام هنا شبيه بموقف شوقى فى ذكرى شكسبير ، حيث شبه جمجمته بأصيص أزهار ، ولسانه بذنب عقرب إلى آخر ماذكره هناك .

ما تمتاز به العناية بالبديع من جهة ، والغوص على المعانى من جهة أخرى .

وهذا الاختلاف بين قادة الثورة هو سر ما نراه من خلاف بين مؤرخي الأدب حين يحاولون البحث عن زعيمها ، ومرسل الصيحة الأولى فيها ، فتراهم يجعلون بشارا زعيم المحدثين جميعاً حيناً ، وأبا نواس حيناً آخر ، أو يتخطونهما معاً إلى مسلم وأبى تمام ، لأن مذهبهما متشعب النواحي ، واضح المعالم والرسوم .

ولعل السر فى إغفالهم بشاراً أحياناً أن نواحي التجديد عنده لم تكن واضحة فى أذهان معظم النقاد الذين لم يحاولوا أن يتعرفوا على عناصر الشعر القديم ، ويعرفوا موقف زعماء المحدثين منها .

ومن هذا أيضاً تعرف السر فى تعصب أنصار القديم للبحترى ، رغم تأخر الزمن به ، وجعلهم أياه زعيم أهل الطبع ، مع أن أبا العتاهية وبشاراً يشاركانه فيه . وما ذلك إلا لأن كلا من الأخيرين وإن حافظ على أهم عناصر الشعر القديم ، وهو الجريان مع الطبع ، قد خالفها فى أمر أو أكثر ، أما البحترى فكان صورة من القدماء ، لا تكاد تختلف عنهمَ إلا بقدر ما تمليه الضرورة من أمور لا تمس أصول الشعر العربى التى أشرنا إليها .

وكأنى بالقارئ يسأل نفسه – وقد فرغ من أمر القدامى والمحدثين – عن أشعر الفريقين ، وأعذب الشعرين . ومن حقه أن يسأل هذا السؤال . ومن منا لا يسأل نفسه من حين لآخر ، وبمناسبة أو أخرى عن أشد عصور الشعر العربى ازدهاراً ، وهل هو الجاهلى ، أم الأموى ، أم العباسي . وعن أمير شعراء العربية ، وهل هو امرؤ القيس ، أم جرير ، أم المتنبى .

وجواب هذا السؤال أن لكل من القديم والجديد مزاياه ، والفرق بينهما أشبه بالفرق بين فن البناء قديماً وحديثاً . فالأول يمتاز بالبساطة والرحابة ، والثانى بالدقة والتعقيد . وكل طراز صالح لعصره ، مناسب لظروف أهله . فنحن نعجب ببساطة الشعر القديم وقصده ، ووضوحه وتناوله الأمور من أقرب الطرق وأيسرها على القارئ والسامع ، وقارئ الشعر الجاهلى أشبه براكب المطية الذلول ، أو البحر الهادئ .

أما الشعر الحديث فإنه يهز نفوسنا ، ويبهر أعيننا بما فيه من معان بديعة ، ونظرات عميقة ، وفهم تام للحياة والأحياء حين تتوفر له جودة العبارة ، وعذوبة اللفظ ، ويسعفه الطبع السليم . ترى شيئاً من ذلك لبشار وابن الرومى وأبى نواس وأضرابهم كما ترى كثيراً منه عند أبى الطيب ، وقدراً صالحاً عند أبى تمام ، فإذا تعقَّد لفظه ، واضطربت عبارته ، وخنق أنفاسه كل غث ومتكلِّف من البديع ، ذهبت حلاوة المعنى وجمال الفكرة .

وهكذا نستطيع أن نقول : إن شعر القدامى ومعهم أهل الطبع من المحدثين كالبحترى ، يحلق فوق رؤوسنا حتى نكاد نلمسه بأيدينا ، ولكنه لا يتهافت تحت أقدامنا . أما أبو تمام وأشباهه فيصعدون أحيانا إلى أوج السماء ، ويسقطون أطواراً إلى أعماق الأرض .

والآن وقد استعرضنا عناصر الشعر الأربعة ، وعرفنا أهم ما أصابها من تطور فى العصر العباسى ، نحب أن نلفت الأنظار إلى أحد الأمور الهامة التى يمكن بمساعدتها أن نميز بين القديم والحديث من الشعر . ونعنى به شيوع مظاهر الترف والحضارة فى الشعر الحديث ، ويقابل ذلك فى القديم سيطرة الحياة البدوية عليه . بحيث لا يكاد القارئ يخطئ وهو يقرأ فى الشعر العربى ما إذا كان يقرؤ لقديم أم محدث .

وإذا أحببت أن تتأكد من هذا ، فاقرأ قول الفرزدق:

وركب كأن الريح تطلب عندهم لها ثرة من جذبها بالعصائب

ثم اقرأ بعقبه قول ابن المعتز فى موقف مشابه للسابق :

والريح تجذب أطراف الرداء كما أفضى الشفيق إلى تنبيه وسنان(١٠٠)

فالظروف التى أوحت بالبيتين واحدة . ألا وهى عبث الريح بأطراف ثياب هذا الشاعر أو ذاك . ولكن كلا منهما يفسر هذا العمل فى ضوء تجاربه الخاصة . فالفرزدق الذى قضى حياته فى منازعات مستمرة مع جرير وغير جرير من الشعراء . بل واشترك بطريق مباشر أو غير مباشر فى حروب تميم مع غيرها من

---

(١٠٠) ديوانه ص ٦٨ .

قبائل البدو يرى فى جذب الريح لطرف عصابته نوعا من الخصومة . أما ابن المعتز فيتذكر به موقفا كريما ، وهو موقف الحواضن والخدم وهم يوقظونه فى رفق ولين .

وشبيه بهذا قول طرفة ويشار فى الغناء والحديث . قال الأول فى قينة:

إذا رَجَّعَتْ فى صوتها خلتَ رَجْعَها   تجاوب أظآر على ربُع رَدِى

وقال الآخر:

وكأن رجع حديثها   قِطَع الرياض كُسِين زهرا

فطرفة يتخير أقرب الأشياء إليه وأشدها شبها بترجيع القينة ألا وهو تجاوب النوق المرضعات حين تفقد أحد فصلانها . بينا رأى بشار فى أحاديثها شبها من الرياض والأزهار ؛ لما فى كل منهما من جمال ومتعة .

وينبغى ألا تنسى أن سلطان الزمن والبيئة على الشاعر أقوى من أن يقاوم ؛ فهذا عبد الله بن المعتز يحاول فى بعض قصائده أن يتشبه بالأوائل فيقول معارضا لبيدا :

أذلك أم فَرد بقفر أجاده   من الغيث أيك فرعه قد تهللا(١٠١)
لدى ليلة خوارة المزن كلما   تنفس فى أرجائها البرق أسبلا
كأن عليه من سقيط قطارها   جمانا وهت أسلاكه فتفصلا
فبات بليل العاشقين مسهدا   إلى أن رأى صبحا أغر محجلا
فنفض عن سرباله لؤلؤ الندى   وآيس ذعرا قلبه فتأملا(١٠٢)

وأظن أن البون شاسع بين هذه الأبيات وتلك التى قالها لبيد فى ناقته فاللؤلؤ والجمان وليل العاشقين الطويل وسهادهم أمور ما كان لها أن تعرف الطريق إلى ثور الوحش الذى يتحدث عنه ابن المعتز ، فالموقف عصيب لايحتمل كل تلك الرقة ،

---

(١٠١) ديوانه ص ٢٨١ .

(١٠٢) وازن بين هذه الأبيات وبين قول لبيد فى معلقته:

أفتلك أم وحشية مسبوعة   خذلت وهادية الصوار قوامها

ومابعده .

خشن لايتسع لكل ذلك الترف ولكن الأمير العباسى رجل مترف ، فلابد أن تخونه عباراته ، وتنم عنه لغته شاء أم لم يشأ .

وإذا كانت شخصية ابن المعتز وعصره بأبيان أن يستترا حتى حين يريد أن يخفيهما ، فأنهما يظهران بوضح تام حين يرسل نفسه على طبيعتها . وهذا هو السبب فيما اشتهر به من جمال التشبيهات ونبلها . فالقارئ لقوله:

انظر إلى حسن هلال بدا يهتك من أنواره الحندسا
كمنجل قد صيغ من فضة يحصد من زهر الدجا النرجسا

لايشك فى أنه يقرأ لشاعر عباسى . كما أن القارئ لمثل قول زهير :

ومن لم يصانع فى أمور كثيرة يُضَرَّسْ بأنياب ويوطأ بمنسم
ومن لم يَذُدْ عن حوضه بسلاحه يُهدَّمْ ومن لايَظلمْ الناس يُظلمِ

يدرك من أول نظرة أنها لشاعر بدوى:

وما ذلك إلا لأن المناجل الفضية لايمكن أن تخطر ببال البدوى ، كما أن الأنياب والمناسم ، وأحواض المياه والدفاع عنها بحد السيوف والدعوة إلى التظالم من شأن الجاهلية الأولى وضروراتها .

الفصل الرابع

استرداد الشعر العربي لحريته

خرج أبو تمام من المعركة التي نشبت بينه وبين أنصار القديم منتصرا أو كالمنتصر وصار له مذهب عرف به ، ونسج على منواله بعض فحول الشعراء كابن المعتز ، بل والمتنبي في مبدأ حياته الشعرية ولكن الأخير لم يلبث أن ثار عليه ، وحرر نفسه ، بل والشعر العربي منه أيضا .

وقد أدهشنا(١٠٣) أن نرى صاحب «الفن ومذاهبه» قد وضعه في مكان غير لائق به ، حيث جعله رأس جماعة من الشعراء ظهرت في القرن الرابع الهجري «وأخذت تعيد وتبدئ في الخواطر المسبوقة والأفكار المطروقة ، ثم هي تعقّد في الألوان والأصباغ القديمة ؛ إذ تستعين بوسائل من التكلف للثقافة . فليس فيها نقش ولازخرفة إنّما هي أشياء غريبة عن الفن لاتفصح عن وجدان ، ولاثراء في الألوان ، ولذا جاء جمالها مملاً ينقصه الروعة الفنية(١٠٤) .

وقد استدل الزميل على دعواه بعد أبيات تثبت تصنعه للثقافات المختلفة كمصطلحات الصوفية وعبارتهم ، وللأفكار الفلسفية . ومن ذلك قوله مشيرا إلى فكرة التجلّي:

تجلّى لنا فأضآنا به كأنا نجوم لقينا سعودا

أو فكرة الحال كما في قوله:

وحالات الزمان عليك شتى وحالك واحد في كل حال

وكقوله مشيرا إلى قول أرسطو في الحكمة: «قد يفسد العضو لصلاح أعضا» .

لعل عتبك محمود عواقبه وربما صحت الأجسام بالعلل

---

(١٠٣) قد يعجب القارئ لطول تتبعنا للزميل الدكتور شوقي وإشارتنا الكثيرة إلى كتابته ولكن ماذا نفعل ، وقد كتب خير ما كتب في الموضوع وإن خالفنا وخالفناه أحياناً ؟ والمرء يشغل نفسه دائماً بأهم ماسبقه من بحوث أو باحثين .

(١٠٤) الفن ومذاهبه في الشعر العربي للدكتور شوقي ضيف ص ١٧٨ .

ثم يأخذ عليه أبياتا أخرى مثل قوله:

ولك الزمان من الزمان وقاية ولك الحمام من الحمام فداء

وقوله:

أسفى على أسفى الذى دلهتنى عن علمه فيه علىّ خفاء

وَرَأَيْنَا أبا الطيب رغم هذه الأبيات وغيرها أقل تصنيعا وتصنعا من أبى تمام فشعره ليس تلفيقا أو تعقيدا ، بل ولاامتدادا لشعر أبى تمام ، وإنما أبى الطيبب يرجع الفضل الأول فى وقف تيار هذا المذهب الغريب على الشعر العربى والعقلية العربية .

وتسألنى بعد ذلك . مابال هذه الأبيات التى مرت منذ قليل ، وظاهرها التصنع والتعقيد ، ويجانبها عدد غير قليل لمن تتبع شعر أبى الطيب ؟ والجواب على ذلك أن هذه الأبيات لاتمثل شعر المتنبى ، فقد قالها محاكيا أبا تمام ؛ لأن الاخير كان أقرب الفحول المحدثين إليه وأعظمهم ذكرا (١٠٥) ولكن طبيعة المتنبى المتمرد الجامحة ماكانت تستكين لقيود الصنعة أو تصبر على الرسف فى سلاسلها طويلا ؛ ولذا كانت تثور عليها فتحطمها ثم تنطلق على طبيعتها غير حافلة إلا بما جاء عفوا ودون عناء .. ويذكر الدكتور عبد الحميد يونس أن أبا الطيبب حاول أن يسلك مسلك أبى تمام فوجده صعبا وعر المسالك فتحول عنه إلى غيره (١٠٦) وليس الأمر كما ذكر ، بل أعرض عنه للأسباب التى أشرنا إليها .

فمن الظلم إذن لأبى الطيب ، بل ولأى شاعر آخر ، أن نأخذه البيت أو البيتين نتصيدها من هذه القصيدة أو تلك ، ألا ترى أن بالعتاهبة يقول:

الدهر ذو دول ، والموت ذو علل والمرء ذو أمل والناس أشباه (١٠٧)

---

(١٠٥) ربما كان من تمام الفائدة أن تذكر أن القصيدة الهمزية التى أكثر حصوم أبى الطيب من الإشارة إليها ؛ والتى ذكرنا بعض أبياتها منذ قليل قد أرسل بها الشاعر إلى أديب مثله هو أبو على هرون بن عبد العزيز الأوارجى الكاتب . ولغة العلماء والأدباء فيما بينهم دائما غير لغتهم حين يتحدثون إلى الجمهور ومن يدرى لعلى الأوارجى هذا كان مولعاً بالتعقيد مفتوناً بهذا النوع من الشعر فأحب أبو الطيب أن يزيده منه .

(١٠٦) مقدمة ديوان أبى تمام إخراج مطبعة صبيح .

(١٠٧) ديوانه ص ٢١٢ .

ولم تــزل عبر فيهــن مــعــتبر يجرى بها قــدر والله أجــراه
يبكي ويضحك ذو نفس مصرفة والله أضــحــكــه والله أبــكــاه

ومع ذلك لاندخله فى رجال الصنعة ، لأنه قالها لغرض خاص (١٠٨) وخرج فيها عن طبعه وطابعه العام .

والمنهج السليم إذن أن نتخير قصيدة أو بعض قصيدة لكل من الشاعرين تمثل طابعه العام ثم نوازن بينهما من حيث شيوع البديع وغير البديع من خواص المذاهب الحديثة فيهما وعدم شيوعه .

وقد استعرضنا نتاج كل من الشاعرين لاختيار نماذج للموازنة فوجدنا أن شعر أبي تمام يكاد يكون فى مستوى واحد من حيث الحرص على تقاليد مذهب الصنعة والتكلف ، أما المتنبي فيمكن تقسيم شعره إلى قسمين أحدهما على مذهب أبي تمام ، وثانيهما قاله وهو مشغول بنفسه أو كالمشغول ، مَعْنِيٌّ بآماله وآلامه أو كالمعنّى ، وهو قدر لايقل عن سابقه ، وقد أرخى فيه لنفسه العنان وابتعد كثيراً عما تقتضيه الصنعة من تكلف وتعقيد وتصنع وتصنيع ، فكان كالبركان الثائر يرسل الحمم دون طويل فكر أو مراجعة . وسنبدأ بذكر أبيات له تمثل النوع ، وتضع بإزائها أبياتا لأبي تمام كي يتضح وجه الشبه أو الخلاف بينهما . ثم نذكر بعد ذلك هذا النوع الذى انفرد به أبو الطيب .

وقد أخترنا لهما قصيدتين حيث قيلت كل منهما فى مدح ملك أو أمير مع التعرض لتنكيله بخارج عليه وكافر بنعمته مكتفين بقدر كاف من كل منهما .

قال أبو الطيب يمدح سيف الدولة ويذكر إيقاعه ببعض الخارجة عليه .

طــوال قــنــاً تــطــاعنها قصــار وقطرك فى ندى ووغى بحار (١٠٩)
وفيك إذا جنى الجانى أناة تُــظَــن كــرامــةً وهــى احــتــقــار
وأَخْــذٌ لــلــحــواضر والــبوادى بضــبــط لم تُــعَــوَّدْهُ نــزار

---

(١٠٨) يظهر أنه كان يعارض بها قول مسلم بن الوليد :

موف على مهج واليوم ذو رهج كأنه أجل يسعى إلى أمل

حيث تحداه أن يقول مثلها كما ورد فى الأغانى ج - ٣ - ص ١٣٩ .

(١٠٩) ديوانه - ٣ - ص ١٠٠ .

تَشَمَّمُهُ شميمَ الوحش إنسا　　وتنكره فيعروها نفار
وما انقادت لغيرك فى زمان　　فتدرى ما القادة والصَّغار
فقرّحت المقاود ذفريها　　وصعَّر خدَّها ذاك العذار(١١٠)
وأطمع عامَر البُقينا عليها　　ونزّقها احتمالك والوقار
وغيَّرها التراسل والتشاكى　　وأعجبها التلبّب والمغار(١١١)
وكانت بالتوقف عن دارها　　نفوسافى رداها تستشار
وكنتَ السيف قائمه إليها　　وفى الأعداء حدّك والغِرار
فأمست بالبُديَّة شفر تاه　　وأمسى خلف قائمة الحيار
وكان بنو كلاب حيث كعب　　فخافوا أن يصيروا حيث صاروا
تَلَقَّواْ عزَّ مولاهم بذل　　وسار إلى بنى كعب وساروا
فأقبلها المروجَ مَسوماتٍ　　ضوامر لاهزال ولاشيار (١١٢)

أما أبو تمام فيقول مادحا المعتصم ومشيراً إلى حرق الأفشين.

الحق أبلج والسيوف عوار　　فحذار من أسد العرين حذار
ملك غدا جار الجلافة فيكم　　والله قد أوصى بحفظ الجار
يارب فتنة أمة قد بَزَّها　　جبارها فى طاعة الجبار
جالت بخيذر جولة المقدار　　فأجله الطغيان دار بوار
كم نعمة لله كانت عنده　　فكأنها فى غربة وإسار
كُسِيَتْ سبائبِ لؤمه فتضاءلت　　كتضاؤل الحسناء فى الأطمار
موتورة طلب الإله بثأرها　　وكفى رب النار مدرك ثار
صادى أمير المؤمنين بزبرج　　فى طيه قمة السجاع الضارى (١١٣)
مكرا بنى ركنيه إلا انه　　وطد الأساس على شفير هار
حتى إذا ما الله شق غباره　　عن مستكن الكفر والإصرار

(١١٠) ذفريها: مثنى ذفرى وهى العظم الذى خلف الأذن.

(١١١) التلبب: التشمّر للحرب.

(١١٢) الشيار ضد الهزال.

(١١٣) صدى: دارى. زبرج: زينة: حمة: الإبرة التى يلدغ بها قطب العقرب الشجام: الثعبان.

ونحا لهذا الدين شفرته انثنى — والحق منه قانئ الأظفار
هذا النبى وكان صفوة ربه — من بين باد فى الأنام وقار
قد خص من أهل النقاق عصابة — وهم أشد أذى من الكفار
واختار من سعد لعين بنى أبى — سرح لوحى الله غير خيار
حتى استضاء بشعلة السور التى — رفعت له سجفًا عن الأسرار

أما أبيات المتنبى التى تمثل الشطر الثانى من شعره فهى :

عيد بأية حال عدت ياعيد — بما مضى أم لأمر فيك تجديد
أما الأحبة فالبيداء دونهم — فليت دونك بيدا دونها بيد
لولا العلا لم تجب بى ما أجوب بها — وجناء حرف ولا جرداء قيدود
وكان أطيب من سيفى مضاجعة — أشباه رونقه الغيد الأماليد
لم يترك الدهر من قلبى ولا كبدى — شيئا تتيمه عين ولا جيد
ياساقيىَّ أخمر فى كئوسكما — أم فى كئوسكما هم وتسهيد
اصخرة أنا مالى لا تحركنى — هذى المدام ولا تلك الأناشيد
إذا أردت كميت الخمر صافية — وجدتها وحبيب النفس مفقود
ماذا لقيت من الدنيا وأعجبها — أنى بما أنا باك منه محسود
أمسيت أروح مثر خازنا ويدا — أنا الغنى وأموالى المواعيد
إنى نزلت بكذابين ضيفهم — عن القرى وعن الترحال محدود
جود الرجال من الأيدى وجودهم — من اللسان فلا كانوا ولا الجود
ما يقبض الموت نفسا من نفوسهم — إلا وفى يده من نتنها عود
من كل رخو وكاء البطن منفتق — لافى الرجال ولا النسوان معدود

وأظن أن القارى الكريم بعد الموازنة بين الشعرين سيوافقنا على أن أتهام أبى الطيب بالتلفيق والعيش على تراث الأوائل مع الخلو من الروعة الفنية فيه حيف شديد عليه ، ومع أن فى قصيدته الأولى بديعا لا يقل عما لصاحبه ، فإن بديع أبى الطيب تتطلبه المعانى فى إلحاح . ألا ترى أن وضع طوال القنا مع القصار ، والكرامة بجانب الاحتقار وقائم السيف بأزاء حده والغرار ينسجم انسجامًا تاما مع غرض القصيدة وهو الحرب والنضال .

فأين من هذا ما تراه عند أبى تمام من وضع الجبار بجانب الجبار والثار بعد الثار ماذا يقصد بهذا ، أيريد أن يجعل منها جناسا ؟ لقد رجعنا إلى شرط الجناس فرأينا أن

تكرار الكلمة بلفظها ومعناها كما هي الحال هنا ليس من الجناس فى شىء ، بل لابد أن يختلف المعنى إذا اتحد اللفظ كما هو الحال فى كلمة إباه من قول المعرى .

فإن إباء الليث ما حل أنفه   بأن محلات الليوث إباء

أو يختلف اللفظان فى الاشتقاق إذا اتحد المعنى كما ترى فى لفظى حل ومحلات من البيت السابق .

أما هذا التكرار فليس من الجناس فى شىء[١١٤] ومع ذلك يصر عليه أبو تمام ويكثر منه كأن ولوعه بالصورة اللفظية أغراه بالاكثار حتى مما لا خير فيه وقد كان العرب يفعلون ذلك ولكن لفائدة كما فى قول مالك بن الريب

لقد كان فى أهل الغضى لودنا الغضى   مزار ولكن الغضى ليس دانيا
فليت الغضى لم يقطع الركب عرضه   وليت الغضى ماشى الركاب لياليا

فأنه إنما فعل ذلك حين حضرته الوفاة فحن إلى موطنه فى بلاد العرب .

ولهذه الكلمة فى قلبه وحياته وضع خاص وارتباطات كثيرة وذكريات عزيزة لأنها موطنه ، وطبيعى أن يحن إليه فى اللحظات الأخيرة من حياته ولذا لا نجد بأسا فى تكرارها . ومع أن النقاد يأخذون على الأعشى قوله[١١٥]

وقد غدوت إلى الحانوت يتبعنى   شاو مشل شلول شلشل شول

لاتحاد منى الصفات الأربعة الواردة بعد شاو وتقارب لفظها ، فأنا نعتقد أنه فيها خير ألف مرة من أبى تمام فى قوله :

المجد لا يرضى بأن ترضى بأن   يرضى المؤمل فيك إلا بالرضا

لأن التكرار عند الأول له دوافعه النفسية فالأعشى سكير وحريص على أن يكون الشوّاء نشيطًا خفيف الحركة حتى لا ينغص عليه لذة الخمر بطول انتظار الشوّاء . أما أبو تمام فلا هدف له من هذا التكرار سوى الزخرف اللفظى .

ويمتاز الأعشى بأمر آخر ، ذلك أن التكرار عنده استوفى شرط الجناس ، وهو اختلاف الألفاظ من حيث الاشتقاق .

فإذا ما ولينا وجهنا شطر النوع الثانى من شعر أبى الطيب وجدنا له قصائد كثيرة يمكن أن توضع بجانب الدالية السابقة ونذكر على سبيل التمثيل :

---

(١١٤) المثل السائر لابن الأثير ص١٥٦ .

(١١٥) الشعر والشعراء لابن قتيبة ص١٢ .

واحر قلباه ممن قلبه شم ومن بجالى وجسمى عنده سقم

وقوله :

ملومكما يجل عن الملام ووقع فعاله فوق الكلام

وقوله :

فؤاد ما تسليه المدام وعمر مثلما تهب اللئام

وقوله :

على قدر أهل العزم تأتى العزائم وتأتى على قدر الكرام المكارم

وقوله :

فديناك من ربع وإن زدتنا كربا فأنك كنت الشرق للشمس والغربا

وقوله :

كم قتيل كما قتلت شهيد ببياض الطلى وورد الخدود

على أن هناك أمراً خطيرًا ينبغى أن نفطن إليه ، وذلك أن قصائد أبى الطيب حتى المعروفة بغرابتها لا تخلو من أبيات وهاجة ترسل ضوءا قويا يشغلنا عما حوله من غرابة ويغرينا بمتابعة القراءة حتى النهاية . ومثال ذلك قصيدته الهمزية التى يرى فيها الدكتور شوقى صورة واضحة للتعقيد ، ألا ترى أن قوله :

مثلت عينك فى حشاى جراحة فتشابها كلتاهما نجلاء

كاف لأن يدفعنا لاغتفار ما عساه أن يأتى بعده من سيئات . بل دعنى أتقدم معك إلى هذه الأبيات التى نأخذها عليه مثل قوله :

ولك الزمان من الزمان وقاية ولك الحمام من الحمام وقاء

قل فيها ووخذ عليها ما تشاء ، ولكنك لن تستطيع أن تقول إنها ميتة ينقصها الحياة والحركة ، وهذا يكفينا . دعها تثيرنا ضد الشاعر أو ضد أنفسنا ، أو تثير الخصومة بين بعضنا وبعض كما توقع هو ، فأنها فى جميع هذه الحالات ستبعث فينا الحياة والنشاط . ومهما يكن من أمر فأنها خير من قول أبى تمام فى عياش بن لهيعة :

مقابل فى ذرا الأذواء منصبه عيصا فعيصا وقد موسا فقد موسا

الواردين حياض الموت متأقة ثباً ثبا وكراديسا كراديسا

نموك قنعاس دهر حين يحزنه أمر يشاكه آباء قناعيسا

وبعد فهل آمنت معى بأن الحكم على الشاعر اعتمادا على عدة أبيات منتزعة من أماكنها انتزاعا قد لا يؤدى إلى سلامة الأحكام وسدادها . بل أرجو ألا أكون متهما

بالتطرف والاسراف إذا قلت : إنه لا يصح إصدار حكم من الأحكام العامة على شاعر من الشعراء اعتمادا على قصيدة بعينها ، بل ينبغى أن نختار قصيدة تمثل مذهب الشاعر أتم تمثيل . ألا نرى أننا لو اخترنا للموازنة بين مذهب أبى تمام وأبى الطيب قول الأول يمدح عياش بن لهيعة(١١٦)

أحيا حشاشة قلب كان مخلوسا ورم بالصبر عقلا كان مألوسا

ووضعنا بأزائه قول أبى الطيب فى مدح سيف الدولة وعتابه :

واحر قلباه ممن قلبه شبم ومن بجالى وجسمى عنده سقم

لكان تزيدا على أبى تمام لأنه أكثر من البديع فيها إلى حد الابتذال

ويؤكد ما ذهبنا إليه من أن الأحكام ينبغى أن تبنى على الكثير الغالب ، وأن الاعتماد على الأبيات المفردة يؤدى إلى فسادها ، أن العمل بغير ذلك يكاد ينقض رأى الزميل نفسه ، ألا تراه يجعل قول المتنبى :

أعدى الزمان سخاؤه فسخابه ولقد يكون به الزمان بخيلا

بعد قول الطائى :

هيهات أن يأتى الزمان بمثله إن الزمان بمثله لبخيل

دليلا على جمود الشعر ونضرب معينه ، بحيث صار الأواخر يعيشون على تلفيق أشعاد الأوائل ، مع أن لأبى تمام ما هو شر من ذلك ألا تراه يقول متغزلا .

ملطومة بالورد أطلق طرفها فى الخلق فهو مع المنون محكم(١١٧)

بعد قول إبى نواس :

تبكى فتذرى الدر من نرجس وتلطم الورد بعنان(١١٨)

إلى غير ذلك من الأمثلة التى لا يتسع لها المقام . وتخلف الطائى ظاهر ؛ فاستعمال ملطومة على هذا الوجه ، والربط بين طرف الحبيبة والموت على هذه الصورة يأباهما الذوق السليم . فهل يفهم من هذا أن أبا تمام أيضا كان ملفقا ، أم أن للشعراء سقطات من حين لآخر ، لا يختص بها أحد دون سواه(١١٩) .

---

(١١٦) ومع ذلك لامانع من ذكرها حين نذكر للمتنبى أسوأ شعره .

(١١٧) الموازنة ص٤٣ .

(١١٨) نفسه .

(١١٩) إن خير وسيلة لإصدار أحكام دقيقة على الشعراء ، هى اتباع طريقة الإحصاء التى يدعو إليها الأستاذ رجب ، أستاذ الدراسات العربية والإسلامية بجامعة أكسفورد .وقد طبق أصول هذه الطريقه زميلنا الدكتور عبد العزيز عتيق على أبى فراس الحمدانى فى رسالة الدكتوراه التى تقدم بها إلى جامعة أكسفورد .

أما أبو العلاء فشعره نوعان ، قال أولهما فى صباه ، واحتذى فيه أبا الطيب حتى يكاد يكون صورة منه فى كل شيء وبخاصة فى الفخر بنفسه والتحامل على المنافسين من الشعراء . وأكبر الظن أن هذا التحامل ليس إلا عدوى وصلت جراثيمها إليه من أستاذه ومثله الأعلى ، والقارىء لقوله :

رويدك أيها العاوى ورائى لتخبرنى متى نطق الجماد[١٢٠]
سفاه ذاد عنك الناس حلم وغى فيه منفعة رشاد
أأخمل والنباهة فى لفظ وأقتر والقناعة لى عتاد

أو قوله :

باى لسان ذامنى متجاهل علىّ وخفق الريح فىّ ثناء[١٢١]
تكلم بالقول المضلل حاسد وكل كلام الحاسدين هراء
ومن هو حتى يحمل النطق عن فمى إليه ويمشى بيننا السفراء
وإنى لمثر يابن آخر ليلة وإن عزَّ مال فالقنوع ثراء

والقارىء لها ولأمثالها يدرك قوة الشبه بينها وبين شعر أبى الطيب وقد جمع كتابه سقط الزند هذا القسم من الشعر .

وهناك نوع آخر قال بعد أن زهد فى الناس واعتزلهم فى بيته وضمّنه تأمّلاته فى الحياة ، ونصائحه للأحياء ، وإن شئت فقل ثورته عليهم . وفى هذا الشطر يقوى الشبه بينه وبين أبى تمام ، وذلك لأن الصنعة هنا من جناس وطباق ونحوها لا تطغى عليها العاطفة الجياشة أو الخيال الجامح كما ترى فى سقط الزند ، بل تظل بارزة واضحة وسط ما يحيط بها من فكرة هادئة ، أو نصيحة متعقّلة ، وهذا يذكرنا بأبى تمام الذى يطغى الفكر عنده على العواطف . ولكن رغم كل ذلك لم يبلغ مبلغ أبى تمام فى الاحتفال للبديع أو التعقيد فيه . وأظهر أنواع البديع عنده الجناس .

ومن الطريف أن تعلم أنه التزم فيه أيضًا مالم يلتزمه أحد من الشعراء ونشر بذلك إلى رأى دعا إليه الخليل بن أحمد الفراهيدى فى الجناس[١٢٢] وأوجب فيه أن يتّفق المتجانسان فى اللفظ دون المعنى . ومع أن هذا الرأى ظل مطّرحًا لا يهتم به الناس

---

(١٢٠) سقط الزند – السفر الثانى – القسم الأول ص٢٨٦ .

(١٢١) نفسه ص٣٩٥ .

(١٢٢) راجع الصناعتين الخانجى ص٢٥٠ .

كثيرًا ، فقد كان المعرى من أسرع الشعراء إلى الاستفادة منه وإليك إحدى قصائده لترى مدى نجاحه فى ذلك .

تكرم أوصال الفتى بعد موته ... وهن إذا طال الزمان هباء[١٢٣]
وأرواحنا كالراح إن طال حبسها ... فلا بد يومًا أن تكون سباء
يُعبّرنا لفظَ المعرة أنها ... من العُرِّ قوم فى العلا غرباء
فإن إباء الليث ما حلّ أنفه ... بأن محلات الليوث أباء
وهل لحق التثريب سكان يثرب ... من الناس لا بل فى الرجال غباء
هم ضاربوا أولاد فهر وجالدوا ... على الدين إذ وشي الملوك عباء
ضرابا يطير الفرح عن وكر ... أمه ويترك درع المرء وهى قباء
وذو نجب إن كان ما قيل صادقا ... فما فيه إلا معشر نجباء
هل الدين إلا كاعب دون وصلها ... حجاب ومهر معوز وحباء
وما قبلت نفسى من الخير لفظة ... وإن طال ما فاهت به الخطباء
تفزع أعرابية أن جرت لها ... نواعب يستعرضنها وظباء
وما الأربى للحى إلا مسفة ... على أنهم فى أمرهم أرباء
تعادت بنو قيس بن عيلان بالغنى ... فثابوا كأن العسجد الثؤباء
ولولا القضاء الحتم أخبى واقد ... ولم يبن حول الرافدين خباء
وعادوا إلى ما كان إن جاء عارض ... رأوا أن رعيا فى البلاد رباء
يبيئون قتلاهم بأكثر منهم ... وإن قتلوا حرًا فليس يباء

والقارىء لهذه القصيدة يجد فيها عددًا وفيرًا من الجناس معظمه على شرط الخليل بن أحمد ، أما قليله فيتبع مذهب الجمهور الذى يميل إلى التساهل والرفق بالنفس وبالناس . وما من شك فى أن الخليل وأبا العلاء كانا يدركان أن اختلاف المعنى أدق فى الصناعة لأنه يذكرنا بما بين المفردات من تباين فى معانيها رغم اتحاد لفظها ، فهو كما أشرنا سابقًا نوع من التلاعب بالألفاظ يحسن أو يقبح تبعا لبراعة الشاعر واستعداده الشخصى .

---

(١٢٣) اللزوميات ص٣١ .

خاتمة

أظن أنه لن يضير هذا البحث أن نقف به عند هذا الحد ، معتزمين أن نعمل على إتمامه ، إن شاء الله تعالى بعد قليل . وإنى لأعرف الناس بما فيه من فجوات يجب أن تملأ ، وإجمال ينبغى أن يفصل .

ألست ترى أن ما نذهب إليه من أن الشعر القديم يميل إلى الصدق والقصد يمكن أن يكون موضع جدل ومناقشة ؛ وأن من حق أى إنسان أن يعترض فيدعى أن المبالغة والغلو عرفا فى كل العصور . وأن من ذلك فى الجاهلية قول المهلهل بن ربيعة :

فلولا الريح أسمع من بحجر صليل البَيْض تقرع بالذكور

وفى العهد الأموى قول الفرزدق :

إن الذى سمك السماء بنى لنا بيتا دعائمه أعزّ وأطول

وسيكون من حق هذا المعترض علينا أن نجرى له بعض الإحصائيات ، كى نثبت أن ما ورد من ذلك فى الشعر القديم نادر ومستساغ وبذلك يطمئن إلى سلامة النظرية التى بين يدينا .

وسيكون الموقف فى التصوير أشد دقة وتعقيدًا ؛ لأن بعض المحدثين كالبحترى يكاد يكون صورة من الأوائل فى هذا الصدد . ولبعض آخر مذاهب جديدة ، كابن المعتز ، الذى يحاول الاقتراب من الأصل المنقول عنه ، كما كان يفعل القدامى ، ولكن بعد أن يخلع عليه جمالا جديدًا ، ويعرضه فى ثياب أنضر وأزهى(١) .

وربما برهنت الأيام على أن كتابنا الحالى سيكون مختصا بتحديد النظريات مع ذكر نماذج محدودة عليها ، بينما يهتم الكتاب المرتقب بالتطبيق المفصل على تلك النظريات

وهناك أمر آخر لم يحظ بالعناية التامة هنا ، ونرجو أن نتمكن من أن نوفيه حقّه فى المستقبل ، وهو موقف القرآن من العقليتين القديمة والحديثة . ولن نكون قد قمنا

---

(١) اقرأ ما كتبه المؤلف عن ابن المعتز.

بواجبنا على الوجه الصحيح حتى نعرف موقف شعراء العربيّة على اختلاف بيئاتهم وعصورهم من المذهبين .

وإذا كان لنا أن نذكر للقارىء قاعدة عامة تعينه على التميز بين القدامى والمحدثين ؛ فذلك أن يتذكر كلما قرأ لهؤلاء أو أولئك أن الأوائل كانوا يعتمدون دائما على حواسهم ، بينما يستعين الأواخر كثيرا بعقولهم . وإذا قرأت هذا البحث فى ضوء هذه النظرية فستطمئن إليه . وربما فتحت أمامك آفاق لم نفكر فيها بعد

وأخيرا أرجو أن أكون بهذا البحث قد بذلت مجهودا متواضعا فى سبيل إعلاء ذلك البنيان الضخم الذى أرسى زميلنا الفاضل الدكتور شوقى أساسه ولن نسخط إن شاء الله تعالى إذا وقف منا بعض الباحثين نفس الموقف الذى وقفناه من الدكتور شوقى مسددين أو معارضين ؛ فإننا لم نقل آخر كلمة فى الموضوع ، كما أن الحق أحب إلينا ، وأكرم عندنا من أى شىء آخر والحمد لله أولا وأخيرا . والسلام عليكم ورحمة الله

محمد عبد العزيز الكفراوى

طيبة الجديدة ش الأهرام
١٨ نوفمبر سنة ١٩٥٨

مراجع البحث

أخبار أبي نواس مطبعة الاعتماد سنة ١٩٢٤
أخبار أبي تمام
الأغاني – مطبعة التقدم
الأمالي – دار الكتب سنة ١٩٢٦
الأوراق – مطبعة الصاوى سنة ١٩٣٤
ابن الرومى – للأستاذ العقاد – مطبعة حجازى . الطبعة الثانية
البيان والتبيين للجاحظ –
البيان المغرب لابن عذارى – إخراج ليڤى بروفنسال
التطوّر والتجديد فى الشعر الأموى للدكتور شوقى ضيف
تاريخ الأدب العربى للأستاذ السباعى بيومى . مطبعة العلوم سنة ١٩٣٧
تهذيب الكامل للسباعى بيومى
حديث الأربعاء للدكتور طه حسين
ديوان – عبيد بن الأبرص – ليدن – ١٩١٣
ديوان – امرىء القيس – شرح السندوبى مطبعة الاستقامة سنة ١٩٢٠
ديوان طرفة – شرح الشنقيطى
ديوان أبى الطيب المتنبى – شرح العكبرى . مطبعة الحلبى سنة ١٩٣٦
ديوان أبى العتاهية – بيروت سنة ١٨٨٢
ديوان ابن الرومى – كامل كيلانى – مطبعة التوفيق الأدبية
ديوان زهير بن أبى سلمى
ديوان الأعشى – المطبعة النموذجية
ديوان جرير – مطبعة الصاوى . الطبعة الأولى
ديوان أبى نواس – المطبعة العمومية الطبعة الأولى
ديوان بشار بن برد
ديوان البحترى مطبعه هندية . الطبعة الأولى
الذخيرة لابن بسام . لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٣٩

زهر الآداب . المطبعة الرصافية سنة ١٩٢٥
سقط الزند – مطبعة دار الكتب سنة ١٩٤٦
سيرة ابن هشام . مطبعة حجازى ١٩٣٧
الشعر والشعراء . مطبعة المعاهد سنة ١٩٣٢
الشعر الأندلسى – ترجمة الدكتور حسين مؤنس . مطبعة لجنة التأليف والنشر
شعراء النصرانية
الصناعتين – لأبى هلال العسكرى الآستانة . الطبعة الأولى
ضحى الاسلام . مطبعة التأليف والنشر . الطبعة الثانية
طبقات الشعراء – مطبعة سعادة
عصر ما قبل الاسلام للأستاذ مبروك نافع – مطبعة وادى النيل
الفن ومذاهبه – مطبعة لجنة التأليف والنشر – الطبعة الأولى
فى علم النفس – للأستاذ حامد عبد القادر والأستاذ الأبراشى
اللزوميات مطبعة الجمالية الطبعة الأولى
ليلى والمجنون . الدكتور هلال . مكتبة الأنجلو المصرية . الطبعة الأولى
معجم الأدباء . مطبعة دار المأمون سنة ١٩٣٨
المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر مطبعة بولاق سنة ١٢٨٢هـ
المفضليات مطبعة المعارف سنة ١٣٦١هـ
الموازنة بين أبى تمام والبحترى . مطبعة صبيح .
مجموعة رسائل الجاحظ . مطبعة التقدم . الطبعة الأولى
نيكل – مختارات من الشعر الأندلسى
نقد الشعر لقدامة بن جعفر . القسطنطينية . الطبعة الأولى
النابغة الذبيانى للأستاذ عمر الدسوقى
نفح الطيب . المطبعة الأزهرية . الطبعة الأولى
الوساطة بين المتنبى وخصومه . دار إحياء الكتب العربية سنة ١٩٤٥
يتيمة الدهر للثعالبى مطبعة الصاوى . الطبعة الأولى

الفهـــرس

الفصل الثالث .

الفصل الرابع .

نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع
١٨ شارع كامل صدقى بالفجالة القاهرة ص ب ٩٦ الفجالة
ت: ٩٠٨٨٩٥ - ٩٠٩٨٢٧ فاكس: ٩٠٣٣٩٥

رقم الايداع : ٣٩٨١

الترقيم الدولى I.S.B.N 977 - 14 - 0000 - 2

نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع
١٨ شارع كامل صدقي بالفجالة ، القاهرة ص. ب ٩٦ الفجالة
ت : ٩٠٨٨٩٠ - ٩٠٩٨٢٧ فاكس : ٩٠٣٣٩٥